هيفاء بيطار
امرأة في الخمسين
رواية
دار الساقي

الأعمال الكامله
t.me/kotbhm

امرأة في الخمسين

صدر للمؤلفة عن دار الساقي:

- امرأة من هذا العصر
- فضاء كالقفص
- كومبارس
- SMS
- أيقونة بلا وجه

هيفاء بيطار

امرأة في الخمسين

دار الساقي

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاص آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخص آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠١٥

الطبعة الإلكترونية، ٢٠١٥

ISBN-978-614-425-709-8

دار الساقي

بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: ٥٣٤٢/١١٣.

الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣

هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

تابعونا على

DarAlSaqi@

دار الساقي

Dar Al Saqi

الطريق منحدرة بشدة، لدرجة اضطررت أن أتأبط ذراعه كي لا أتعثر وأسقط، خاصةً أنني ألبس الكعب العالي وأنا بكامل أناقتي، وأشعر بالنشوة الخفيفة اللذيذة التي يولّدها فيّ إحساسي برشاقة جسدي وتناسقه ونضارته رغم بلوغي الخمسين. كنت أمشي يومياً ساعة وأحياناً ساعتين مشياً رياضياً سريعاً دون تعب، وأعود إلى البيت ألهث من التعب اللذيذ، أقف تحت دوش الماء الفاتر وأغمر جسدي برغوة الصابون المُعطّر باللافاندر أو الليمون، ثم أجفف جسدي وألبس ثيابي بعد أن أرمق بعين الرضا والإعجاب تلك المرأة التي تبتسم لي في المرآة لتهنئني على شباب جسدي وأنا بعمر الخمسين. كان في الثانية والخمسين، يسير إلى جانبي في أجمل شارع في رأس بيروت، وكنا نقصد مقهى دبيبو الأحب إلى قلبي حيث لا أرفع نظري عن صخرة الروشة الساحرة، وأنا أحاول أن أسمع وشوشه الموج الذي يعرف قصص العشاق الذين انتحروا بأن ألقوا بأنفسهم من قمة الصخرة إلى البحر. كنت أتابط ذراعه لسبب وحيد: ألاّ أتعثر من الانحدار الشديد للطريق التي تنتهي بكورنيش بيروت الساحرة، بيروت المُغوية والتي أحسها امرأة دائمة الفتنة والإغراء. كان بجانبي مُنتفخاً كطاووس فقد حصد جائزة مهمة في مجال الإبداع والنقد الأدبي، لكنه كان يحدثني عن عشيقته التي عاش

معها لسنوات رغم كونهما متزوجين، وكانا يلتقيان في مدن مختلفة لقاءات سربة ملتهبة بالهوى والرغبة والتحدي، وصف لي جمالها وبدا أنه يثار لمجرد تذكر شعرها الكثيف الطويل الكستنائي، وقال إن زوجها كان ضابط أمن مُطلق الصلاحيات لكنها خاطرت بحياتها وزواجها واحتمال خسارتها لولديها لأنها عشقته بجنون، وأنهما كانا زميلين في التدريس بجامعة في بغداد. قال إن زوجها كان أحد أهم الضباط الذين يثق بهم صدام حسين، لم أكن أنظر إليه وهو يتكلم، ولم أكن أحس بأية إثارة في كلامه، كنت أنصت إليه بقليل من الاهتمام وبكثير من السخرية والاحتقار خاصةً حين قال إنه الآن يشفق عليها لأنها أصبحت امرأة في الخمسين وأنه حين التقاها لآخر مرة في أحد المؤتمرات الأدبية، نظر إليها بشفقة ونفور وقال إن شفتيها أصبحتا ذاويتين ومجعدتين وأنّ ترهّل رقبتها أثار اشمئزازه. ضحكت ولم أعلّق بكلمة، مكتشفةً أنه لم ينتبه لضحكتي حتى التي تعني قمة احتقاري له، لا أعرف إن غاب عن باله أنني في الخمسين، وأن تلك العشيقة التي أحبته لسنوات وعرضت حياتها ومستقبلها للخطر – وهي زوجه ضابط أمن مُطلق الصلاحيات – هي في عمره بل تصغره بسنتين!!

لم يمنعني احتقاري له واشمئزازي من كلامه من استمراري في تأبط ذراعه، كنت منتشية من شعوري باحتقاره، وخطر لي أن أسأله: لكنك في الثانية والخمسين ويمتد كرشك أمامك متراً ورقبتك مترهله، والتجاعيد حول عينيك أشبه بأشعة الشمس حين تبتسم؟ خطر لي لو نتعرى ونقف أمام مرآة الحقيقة وأتفرج على هزيمته. لكنني لم أعلّق بكلمة بل سألت بلهجة مرحة وكأنني أداعب طفلاً وأشجعه أن يتابع قصة بدأها: إذاً انتهت علاقتك بها لأنها في الخمسين؟ لم ينتبه للتهكم والسخرية في كلامي، وقفزت كلمات إلى شفتي وهمّت أن تصرخ به: وأنا في الخمسين! فلماذا تسعى لإقامة علاقة معي، لماذا لا تركنني جانباً كما فعلت بحبيبتك التي تماثلني في العمر؟ أخذ نفساً كطاووس وقال إنه يعرف عمر المرأة ويُقدّره استناداً إلى رطوبه مهبلها. صعقني جوابه ليس لوقاحته غير المُتوقعة بل لأنه يتعامل مع المرأة كما لو أنها سلعة تُقدَّر قيمتها استناداً إلى شيئين: عمرها ورطوبة المهبل. وجدتني أفضّل أن أسقط وألاّ أستمر في تأبط ذراعه، ولم أعلّق بكلمة، كنت أريده أن يتدفّق بالكلام مُخرجاً كل عفن أعماقه، وبدأت متعة خبيثة تنمو في داخلي وأنا أسمع للطاووس حاصد الجوائز الأدبية الأهم في عالمنا العربي الذكوري، وقد عُرف عنه أنه أكثر من اهتم

بالأدب النسائي وأنه أشاد بالكاتبات اللاتي كسرن تابوهات الجنس والرغبة. وصلنا مقهى دبيبو أخيراً وأردت أن أمحو كلامه من ذاكرتي، فعلي أن أنجز مهمتي الصحفية بأن أحاوره، خاصةً بعد حصوله على أهم جائزة أدبية في العالم العربي. وجدتني أحدثه عن صخرة الروشة التي تُسمى صخرة العشاق المنتحرين، لكن لا أعرف كيف انفلت مني سؤال: هل تؤمن بالحب؟

اقترب منا النادل وسأل بلطف ماذا نطلب؟ فرد الناقد للحال: نبيذ، وكأنه استدرك فسأل: هل تقدمون مشروبات روحية؟ فقال النادل: طبعاً. لا أعرف لمَ هوى قلبي إذ أتاني يقين أنني أنا من سيدفع الفاتورة، ربما لأنني صاحبة الاقتراح أن أجري الحوار معه بعيداً عن أجواء المؤتمر الأدبي الصاخب، حاولت مؤاساة نفسي: بسيطة سأدفع ثمن كأس من النبيذ، لكنه طلب زجاجة نبيذ ومن أفخر الأنواع، وطلبت شاياً لسبب وحيد كي لا أشاركه بشرب النبيذ لعله يشعر أن عليه أن يدفع ثمن ما طلبه، أما أنا فسأشرب مجرد كأس شاي. كان فزعي من احتمال أن أدفع الفاتورة قد أنساني أنني سألته: ما رأيك بالحب؟ فإذ به يضحك ويأخذ نفساً كأن شهيته على البوح قد تجددت وقال: كنت منذ سنتين على علاقة مع أربعة نساء دفعة واحدة واستمرت علاقتي بهن لأكثر من ثلاث سنوات ولم تعرف أي منهن أنني

أخونها مع أخريات. عرفت ُ أنني تورطت في سماع حديث مُقزز لأحد أهم النقاد في عالمنا العربي، فقلت له: ما حاجتك لتقيم علاقة مع أربع نساء؟ لماذا لا تحب امرأة واحدة وتكتفي بها؟ ردّ بغرور وكأنني أهنته إذ قارنته برجل طبيعي: أنا أملك جموحاً وقدرات فكرية وجنسية خارقة ولا يمكن أن أكتفي بامرأة واحدة. قاومت رغبه قوية بأن أبصق عليه وأقوم هاربةً من حضوره الكريه، لكنني ضحكت بسخرية وقلت له: يا سلام غربن دايزر. لا أعرف لم أجبت بتلك الطريقة، وأخرجت المسجّلة الصغيرة من حقيبتي وقلت له وأنا أحاول تهدئة روحي من عاصفة الغثيان والقرف من حاصد الجوائز الأدبية: إذاً هل نبدأ الحوار. قال: لننتظر النبيذ أولاً.

أحضر النادل زجاجة نبيذ من أفخر الأنواع وطلب منه أن يتذوق النبيذ، فتذوقه بنشوة وقال: ممتاز! ثم طلب مازوات تليق بالنبيذ الفاخر. كان علي أن أسلّم الحوار معه ليلاً لينزل في الصفحة الثقافية صباح الغد، وبدأت أسأله الأسئلة التقليدية ذاتها التي أسألها لكل مُبدع يحقق إنجازاً هاماً ويحصد جوائز، وبدأ شعورٌ مُزعج بالانقباض يهيمن علي لإحساسي أنني سأتورط بدفع الفاتورة، فهو يعتبر نفسه ضيفاً وأنا صحفية أقيم في بيروت ومطلوب مني أن أجري معه حواراً، وأنا من

اقترحت عليه أن نجري الحوار في مقهى دبيبو. حدّثني عن بداياته كأستاذ جامعي في بغداد وعن زواجه المبكر من امرأة لا تعني له شيئاً سوى أنها أم أولاده، وأنه عاش حياته كعازب، وحين قاطعته: ما ذنب تلك الزوجه تهملها هكذا؟ ردّ بامتعاض بأنها لم ترقَ إلى مستواه الفكري. فقلت: لكنها كانت خيارك، لماذا لم تختر امرأة ترقى إلى مستواك الفكري. صعقني جوابه: أنت لئيمة حقاً! لا أعرف لماذا أطلق علي تلك الصفة؟ أنهيت الحوار واستأذنته بأنّ علينا العودة إلى الفندق وبأنني حريصة ألاّ أتأخر في تسليم الحوار إلى الجريدة. لوّحت للنادل كي يجلب الفاتورة، وقبل أن أتأمل بأنه قد يدفع أسرع يقول لي: شكراً على هذه الدعوة اللطيفة، فعلاً مكان ساحر. اضطررت أن أدفع بالبطاقة لأنني لم أكن أحمل مبلغ ٦٥ دولاراً ثمن النبيذ الفاخر والمازوات التي طلبها حاصد الجوائز البخيل. فكرت ونحن متجاوران في التاكسي أن أحذف كل ما قاله عن تجربته في النقد الأدبي وأن أكتب عن اكتشافي المذهل لبخله المُربع وانتهازيته وعن حقيقة تقديره للمرأة، هذا المحتال المدّعي أنه يناصر أدب المرأة الجريئة، يحتقر النساء في الخمسين ويُلغي عنهن صفة الأنوثة، ومعيار تقديره لهن هو معيار وحيد: رطوبة المهبل. طلبت منه أن يدفع أجرة التاكسي لأنني لا أحمل نقوداً كافيه، تظاهر أنه

كان سيدفع بالتأكيد. وقبل أن أنصرف باتجاه الجريدة قال: هل نلتقي ليلاً؟ تظاهرت أنني لم أفهم وقلت له: عليّ أن أسلّم الحوار الآن مع مبدع عبقري مثلك، عجنت كلامي بكل ما أملك من احتقار له، لكن غطرسته وغروره أعاقا احتقاري من الوصول له، قال: تعالي نشرب كأساً، أنا أحب السهر، رقم غرفتي ٢٣٣. سأكون وحدي، سأنتظرك أوكي؟

عجباً، يا لمتعة الذهول التي أدخلني بها؟ ما الذي يجعله يعتقد أنني مستعدة لمضاجعته؟ بل إنه يعتبر نفسه أنه يهديني هديةً لا تقدَّر بثمن وهي أن يقذف سخامه في جوفي؟ لعل هذه هي الهدية الوحيدة التي يمكن أن يقدّمها لامرأة، هدية لا تكلّفه شيئاً لأنها من إفرازات جسده كالبول والبراز. ابتسمت له وتعمّدت أن أطعن عينيه بنظرة تحدٍّ وقلت له ببطء مُتعمَّد أيضاً متأملةً أن يكون كل حرف في كلماتي أشبه بالشفرة تجرحه: لكنني امرأة في الخمسين. بدا عليه الارتباك، فمدّني ارتباكه الذي أثلج صدري بشجاعة متهورة، أو بتعبير أدق بوقاحة متهورة وقلت له وأنا أحس بمتعة لا حدود لها: وجافة أيضاً.

لا أنكر أنه جذبني من أول مرة التقيته فيها، كان رجلاً وسيماً وهادئاً وابتسامته دافئة، وكنت قد راكمت الكثير من الخيبات في علاقاتي العاطفية لدرجة أنني

وصلت إلى حكمة فتنتني: الرجل مهم في حياة المرأة، لكن الأهم هو الاستغناء عنه. كنت، كملايين النساء مثلي، أرتعب من التقدم في السن، خاصةً بعد انقطاع الدورة الشهرية التي تعني في عرف المجتمع أنني قد تحولت إلى كائن لاجنسي ولم أعد مرغوبة بالنسبة للرجل، الذي لا يعيبه شيء، فهو قادر على الإنجاب وهو على حافة قبره، مجرد أن تخرج من إحليله نقطة تحمل بعضاً من الحيوانات المنوية تتسبّب في حمل، وهذا يعني أنه رجل. وكنت قد عشت حالة بديعة من عدم الحاجة إلى الجنس والرجل لمدة ثلاث سنوات، بل كنت أشعر بالقرف والسخرية كلما أمطرتني ذاكرتي ببعض الصور من علاقاتي السابقة حين كنت لا أزال أؤمن إيماناً أعمى أنّ الحياة امرأة ورجل، وأن الرغبة والعلاقة العاطفية والجنسية هي دليل الصحة النفسية للمرأة والرجل. كنت ضحية هذه الفكرة المُتسلطة علي كقدر لا مجال لردّه، فكرة لا يجرؤ إلاّ قلة من الشجاعات على التشكيك بها. أن تعيشي بلا علاقة عاطفية جنسية هذا يعني أنك مُعقّدة وغير مرغوبة، لذا يجب أن أبرمج جهازي العصبي وآليه تفكيري وأتحكم بهورموناتي كي أكون منتمية لعصر الجنس. ألم يتحول الجنس إلى سلعة وإلى ضرورة كالطعام والشراب؟ ألا أرى وأسمع الجميع يرددون تلك الأفكار كببغاوات ويؤمنون بها

إيماناً أعمى. يا لروعة عبارة سومرست موم: الحب هو مستوى الهورمونات في الدم. كم أتفق معه لأنه في الوقت الذي انقطعت فيه الدورة الشهرية وبدأت أعاني من الهبّات الساخنة والباردة المُربعة والتي توقظني من عز النوم، في ذلك الوقت انطفأت تماماً رغبتي بالجنس، وصار الرجل مُهرِّجاً لم يوجد إلا لأسخر منه. ولدهشتي انسحبت مشاعري من النفور من الجنس وانطفاء رغبتي بالرجل على الماضي، على زواجي وتجاربي العاطفية، كل تلك الذكريات صارت مُعمَّدة بالقرف، مجبولة بالنفور. يا إلهي كم يتغير الإنسان. كانت تلك السنوات الثلاث من السابعة والأربعين – حيث انقطع طمثي نهائياً – وحتى الخمسين من أجمل سنوات عمري، تحررت من عبودية الغريزة ومن الأفكار المُتسلطة بضرورة أن أكون على علاقة عاطفية مع رجل كي أثبت لنفسي ولموروث مجتمعي أنني طبيعية، ولم أكن وحدي من تعاني هذا التسلط بل شريحة واسعة من النساء من معارفي وصديقاتي والنساء اللاتي اعترفن لي اعترافات مهمة جداً كوني صحفية وناشطة في مجال الدفاع عن حقوق المرأة، وخاصةً الدراسة التي قدّمتها عن ١٢٠ حالة لنساء مُعنّفات وبعضهن أصبحن مُعاقات بعد تعرضهن للعنف من قبل أزواجهن أو بعض الذكور في أسرهن. لم يتحرر عقلي وروحي من الأوهام

ومن تسلّط أهمية الجنس وهيمنته على حياتنا إلا بعد غياب الطمث، وجدتني – رغم الإزعاج الذي لا يُطاق للهبّات الساخنة والباردة – أدخل في حالة من النشوة الروحية الرائعة، نشوة من تحرر من عبودية، من اضطراره لمجاملات لا يطيقها ولكنه يمارسها دون أن يجرؤ على التفكير أو التشكيك بها. وحدها امرأة في الخمسين تملك الحقيقة وتملك السحر والجاذبية، لأن من يملك الحقيقة يملك سرّ الجاذبية الحقيقية، جاذبية الروح والقلب، ومتعة المشاركة والإحساس والحب الحقيقي غير المستند على مقدار انتصاب القضيب ومدى رطوبة المهبل.

مذ بلغت السابعة والأربعين أحسست أنني أولد من جديد، حرة كنسمة ومتألقة كشعاع من نور، شعرت أنني خفيفة ومتحررة من ثقل أطنان من الأفكار الموروثة، وصرت أضحك كثيراً وانخرطت في صداقات مع نساء يماثلنني في العمر وفي المشاعر ذاتها. كنا خمس نساء على أعتاب الخمسين، مُطلقات، أرامل، عازبات، متزوجات شكلياً، وكنا نشترك جميعاً بالأحاسيس والأفكار ذاتها، ونقضي ساعات نكاد نموت من الضحك ونحن نستعيد بسخرية ذكرياتنا في عالم الرجل والجنس. لذا فحين التقيت بالناقد الخمسيني الجذاب حاصد الجوائز وأحسست بتقلقل مشاعر عذبة شديدة

الدفء والرقة في قلبي، أحسست بفرح، كمن أثبتت لنفسها أن قلبها لم ييبس كلياً وأنه لا يزال قادراً على الحب، الحب الناضج المُعتّق لرجل يستحق حبها. لم أكن قد تبادلت معه إلا كلمات قليلة، إذ كان مُحاطاً – ككل المشاهير – بالمعجبين والصحفيين، لكنني تمكنت من الاستحواذ على انتباهه لأنني كنت أعرف أنني أملك جاذبية من نوع خاص، نوع تجعل كل رجل يرغب في اكتشاف السر الذي جذبه نحوي. أحببت وسامته وقامته الممشوقة رغم بدانته المتوسطة، وأحببت ابتسامته المرتشحة بشيء من خفر، أحببت قميصه الأزرق الفضفاض الذي يحاول أن يموّه أو يخفي كرشه. لكن الأهم من كل ما ذكرت كوني أخضعت نفسي لحالة من الدراسة، كما لو أنني أتفحّص مشاعري التي اعتقدت أنها ماتت. ها أنا أمام حالة من تحدي الذات، إذاً لم أوصد باب قلبي كلياً أمام الرجل، ونفوري الشديد وسخريتي من تجاربي العاطفية السابقة ليست حقيقية. ها أنا امرأة في الخمسين أستسلم بالعذوبة ذاتها والدفء ذاته لنداء رجل نجح من حيث لا يدري في نقر باب قلبي نقرات خفيفة، جاعلاً براعم الحب المُغلقة تتفتح. منذ اللحظات الأولى للقائي به أحسست – أحسسنا – بالكيمياء بيننا، بتلك الجاذبية الغامضة التي تجذب رجلاً لامرأة، ضحكت وأنا أعي التماعة

عيني وأنا أنظر إليه دون أن أرى نفسي في المرآة، وانتشيت فرحاً وأنا أراه مرتبكاً في التلصّص على الفسحة بين نهدَي والتي يكشفها قميصي البنفسجي الحريري. كنت أمازح نفسي وأنا أقول كأنني ألهو: الأزرق جميل مع البنفسجي، في تلك اللحظة بالذات سمعته يقول لي: كم يليق بك البنفسجي! انفلتت مني ضحكة عالية، فنظر إلي باستغراب منتظراً تفسيراً فقلت له: كنت أهمّ أن أقول لك: قميصك الأزرق يليق بك. تبادلنا نظرة، نظرة تنبؤية، نظرة يمكنها أن تقرأ ما سيحدث، أدرك كل منا وبيقين تام أن ثمة علاقة حب عاصفة سوف تولد بيننا. في تلك اللحظة التي تبادلنا فيها نظرة كاشفة وتنبؤية رأيت اللون الأزرق يذوب في اللون البنفسجي، كان اللونان يتضاجعان نيابةً عنا.

لكن كل تلك المشاعر التي أحسستها حين التقيته ماتت وعاد الاشمئزاز إياه من عالم الرجل، بعد أن كشف لي عفن أعماقه ونظريته حول المرأة في الخمسين وحديثه المُهين عن حبيبته وسخريته من شفتيها الذابلتين المُجعّدتين ورقبتها المُترهلة. اعتبرت أن تلك المشاعر الدافئة التي أحسستها اتجاهه وتلك الجاذبية التي ولدت بيننا وهمٌ سخيف، وعدت بلا أدنى شعور بالخيبة أو الألم إلى حالتي الأصيلة السابقة من الاكتفاء بالذات وطرد الرجل من حياتي. لكن ظلت تلك اللحظات

القصيرة العابرة تتحداني لأنها كانت أصيلة وحقيقية، لم تكن وهماً أبداً. كلٌ منّا أدرك رغم الازدحام والتشوش وإلحاح الإعلام أن يربطه بمواعيد ومقابلات تلفزيونية، رغم التشوش والفوضى والتشتت الذهني، وخوفي ألاّ أتمكّن من إجراء حوار معه، خلف هذه اللوحة الصاخبة كنا نعي بعيون مفتوحة حتى أقصاها ذلك الانجذاب القوي الآسر بيننا؛ انجذاب آدم إلى حواء. كان قلق تلك الليلة صعباً وثقيلاً، أردت أن أغفو بأسرع طريقة، كنت مشوشة من عدم قدرتي على تجاهل تلك الجاذبية القوية بيننا وبين منطقه الذي أثار قرفي واحتقاري، لكن ككل مرة ينقذني العمل، وجدتني أنجز كتابة الحوار مع حاصد الجوائز النقدية ومكتشف عمر المرأة من رطوبتها المهبلية. أرسلت الحوار إلى الجريدة مع عدة صور التقطتها له محاذرةً أن يظهر كأس النبيذ. وقبل أن أغفو وجدتني أشتمه: أبخل من كلب.

اسيقظت مبلبلةً ويبللني الخزي من حلمٍ فاضح، كان قد جرّدني من قميصي البنفسجي وجرّدته من قميصه الأزرق، وبقينا واقفين متواجهين نتأمل بعضنا بمتعة الاكتشاف الأولي للقاء آدم بحواء، ولم نتلامس أبداً ولم تمتد يدة لتمسك يدي، ولم يحاول أن يمسد شعري بأصابعه الرشيقة، ولم أحاول أن أداعب كتفيه رغم اشتهائي الأشبه بحرق لذلك. كنا جاذبيتين متواجهتين

وبيننا ستارة رقيقة من هواء ساخن، واقتربنا حتى لامس نهداي المشرئبّان صدره الجميل المشدود العضلات، وما أن حدث هذا التلامس حتى أفقت وقلبي يدقّ كطبل. أنا أشتهيه وأميل إليه بوضوح ولا مجال للشك بذلك، وليس مثل الأحلام بكاشف لسريرة الإنسان. شربت على عجل عدة فناجين من القهوة وانطلقت إلى الجريدة لأجد العدد والحوار الذي أجريته معه. كنت قد قطعت وعداً حاسماً بيني وبين نفسي ألاّ ألتقيه. سأرسل له المجلة عن طريق وسيط وسأختفي تماماً من حياته. ولكن ظل مزاجي مُتعكراً ومشوشاً وأنا ألعنه غاضبةً على أفكاره المتخلفة وأسخر منه كاشفةً زيف شخصه، فالناقد المدافع عن حقوق المرأة والمقدّر لإبداع الكاتبات الجريئات اللاتي تجرّأن على خدش تابوهات الجنس والرغبة ينظر إلى المرأة تلك النظرة الدونية. أقفلت هاتفي الخليوي ووجدتني أبحث بإصرار عن رواية **الربيع الروماني للسيدة ستون** للمسرحي العبقري تنسي ويليامز الذي سحرتني روايته التي يحلل فيها نفسية امرأة في الخمسين لا تزال متفتحة شهوةً للحب والجنس والحياة وكيف تُهان بطريقة حقيرة ويسخر منها كل من حولها لمجرد أنها امرأة في الخمسين، أي امرأة لا تستحق الحياة وعليها أن تتحول إلى كائن لا جنسي. لكنني لم أستطع أن أقرأ إلا عدة

صفحات وبذهن مشوش، إذ كنت أغلي غضباً من بخله وظلّ رقم ٦٥ دولار يتقافز أمام نظري وأنا أحاول التركيز على القراءة، ووجدتني مروّعة من بخله. لقد قبض جائزة دسمة وراتبه كأستاذ جامعي وخبير ثقافي وكتاباته الغزيرة في المجلات والجرائد تؤمّن له بحراً من الدولارات، فهل يبخل بأن يدفع ثمن زجاجة نبيذ طلبها هو وشربها هو! هل التفسير الوحيد هو بخله أم أنه يعتبر نفسه نعمة وهدية لمن يلتقيه! ألم يخجل أنه استغلّ صحفية – بالتاكيد يعرف أنني أعيش على راتبي المتواضع – أن تدفع ثمن زجاجة نبيذ احتساها ومن أفخر الأنواع. كنت أغلي من ألم الإهانه والاحتقار حين فوجئت بصديقة لي تقتحم منزلي وتصرخ: طيب ليش قافلة موبايلك؟ قلت لها: مزاج. قالت: الزلمة يبحث عنك كالمجنون ويريدك أن تحضري الندوة وبعدها سنرافقه إلى الحفل الذي يقيمه وزير الثقافة تكريماً له. لا أنكر أن هذا الكلام أثلج قلبي، إذ أشعرني أنني أثّرت به وأنه وقع في مجال جاذبيتي، لكنني أصررت ألاّ أذهب، لا أريد أن ألتقيه مجدداً، لا أزال بحالة غثيان من بخله وكلامه المهين والمقرف عن المرأة وتباهيه بعلاقاته الجنسية بالجملة. ولكن صديقتي أقنعتني أنّ من المعيب أن أقفل موبايلي فقد يضطر رئيس التحرير أن يطلب مني موضوعاً. ثم إن

ذلك الهروب يعني أنني مهتمة به ومتوارية عنه، أي أنه يؤثر بي. أما لو كنت لا مبالية به حقاً، فلأبقي هاتفي مفتوحاً ولأعتذر له بكل لطف وبرود عن حضور الندوة والتكريم.

لم أكن أملك الوقت لأتفحص داخلي، لأعرف إلى أي مدى أنا جادة في رغبتي بعدم لقائه مُجدداً، لكن هل حقاً لا أملك الوقت لتفحص مشاعري وجدية موقفي منه، أم أنني أخادع نفسي بأنني لا أمتلك الوقت؟ ألم أطِر من الفرح والنشوة حين أتاني صوته ما إن فتحت موبايلي يسأل بلهفة وبدون مواربة: لماذا تتهربين مني؟ ورددت بضحكة تعمدت أن تغيظه وأنا أقول بصوتٍ رخو لا مبالي وباستخفاف نجحت في إيصاله له: ولماذا أتهرّب منك؟ لا يوجد أي سبب يدفعني للتهرّب منك؟ قال: لماذا أقفلت موبايلك إذاً؟ قلت وأنا أتظاهر بالغضب والغيظ فيما قلبي يتقافز فرحاً: يا سبحان الله! ألا يوجد في العالم سواك! ألا توجد أسباب أخرى تجعلني أقفل موبايلي؟ قال بصوتٍ حنون ومرتشح بالشوق: لم أنم من شوقي لك، صدقيني أنت امرأة آسرة. عرفتُ أنني سأستسلم له وأنني لن أقاومه، ورغم تظاهري أن كلامه لم يؤثر بي ورغم أنني أجبته ببرود: شكراً على المُجاملة، فإنني أسرعت أغتسل كأنني على موعد غرامي معه، ولبست أكثر ملابسي إثارةً، وكثّفت الكحل

والعطر، وبحثت بإصرار عن أحمر الشفاه القرمزي الذي لا أستعمله الا حين أكون مُغرمة، كان قلم أحمر الشفاه قد ذاب تماماً فأصررت أن أستخرج ما تبقى منه بملقط الشعر، وصبغت شفتي بلون الشهوة، ونسيت أنني امرأة في الخمسين. تذكّرت حين كنت في الثامنة عشرة من عمري، وكنت مُغرمة بشاب جميل يكبرني بسنوات، وعلى الأرجح كنتُ أحبه من طرف واحد، ولم أعرف أبداً إن كنت أعجبه أو يكنّ لي المشاعر، لكن ما أتذكره تماماً ذلك الاضطراب الشديد الذي كان يصيبني ما إن ألتقيه صدفة، وكيف يتحول وجهي بطرفة عين إلى قرص شمندر داكن الحمرة، وأخشى أن يسمع من حولي دقات قلبي. لا أنسى ذلك اليوم، وكنت جالسة على مقعد في الباص ولمحت الحبيب واقفاً في الشارع، يبدو أنه ينتظر أحداً أو ينتظر الباص، وجدتني أرجو سائق الباص أن يتوقف، فقال لي: لكن ممنوع الوقوف إلا في الموقف. ولكنه أمام رجائي الحار توقف وسمح لي بالقفز، وأخذت أركض بسرعة جنونية كما لو أنني أسابق الزمن لأكون بجانب من أحب، من ألهب خيالي بالهوى والشغف، وركضت كما لو أنني أطير، وخفّفتُ من سرعتي حين اقتربت منه لأتظاهر أننا التقينا صدفة، وحين سلّمت عليه ومدّ يده مُصافحاً شعرتُ أنني أذوب، وتمنيت لو يتوقف الزمن عند تلك اللقطة، أنا

وهو وعصف من الشغف يخضّني كما لو أنني قشة في مهبّ الريح. لا أذكر حديثنا ولا أذكر أي شيء سوى ذلك الركض المجنون باتجاه شاب آمنت وقتها أنني أحبه. استعدت تلك الذكرى بمرح وأنا ذاهبة للقاء حاصد الجوائز، كنت أشعر بالرضى عن شكلي وأناقتي، وبدت لي الحياة لعبة جميلة مُتجددة لا يملّ منها المرء مهما اعتقد أنه وصل عمر الحكمة حيث لا يعود أي شيء يفاجئه.

ثُرى لماذا شعرتُ بتلك الحماسة والشهية للقائه رغم احتقاري له ولأفكاره ورغم أنني لمست بخله المُقزِّز؟ لم أكن أخدع نفسي لأنني وأنا أقود سيارتي فكرت بالقرف ذاته والاشمئزاز نفسه بكلامه وعاد رقم ٦٥ دولار يتراقص أمام نظري. إذاً لماذا تلك الحماسة للقائه، هل أرضى غروري اشتياقه لي؟ هل حقاً لم يغفُ وهو يفكّر بي؟ وماذا يريد مني إن كان تقييمه للنساء في الخمسين بأنهن مُنتهيات الصلاحية الجنسية؟ لكنني ما أن طرحت هذا السؤال على نفسي حتى وجدتني أتساءل: أنا ماذا أريد منه؟ ولم أتوقع أنّ هذا التساؤل سوف يبلبلني إلى هذه الدرجة! أظن أنه لا يعني لي شيئاً على الإطلاق وأن الحالة بيننا مُعقدة. فأنا لا أتعامل معه كمجرد رجل حصل بيننا انجذاب قوي، الأمر أبعد من ذلك بكثير، كنت أمام غواية تجربة أو حالة،

كنت أتفحص من خلال تلك المرأة الخمسينية – التي هي أنا – نوع الانجذاب أو الشغف في هذه المرحلة من العمر. كنت أرضى أن أجري على نفسي تجارب لأعرف فيزيولوجية امرأة في الخمسين، ولم يكن هو سوى الأداة، سوى أدوات المُختبر الذي سأجري الاختبارات على روحي بوساطته. كنت أشعر واعية ولاواعية أن كل يوم يُبعدني أكثر عن الحياة ويُقرّبني أكثر من الموت، وكان القليل من الجنون لذيذاً في هذا العمر، قليل من اللهو غير المؤذي والذي يولّد حيويةً في الروح. ربما أردت أن أعرف كيف سيتصرف معي وأي خازوق يحضره لي بعد خازوق دفع ٦٥ دولار ثمن النبيذ الذي احتساه. وتخيلت كيف سأجتمع بصديقاتي الخمسينيات وأحكي لهن عنه ونحن نتقصّف من الضحك والسخرية، وتخيلت كيف سيشمتن بي وقد دفعت ثمن زجاجة النبيذ. الخمسون هو عمر الانعتاق من شهوات الجسد وهيمنة الرجل، والانعتاق هو الحرية، بل إنني لا أعرف كلمة حرية إلا بالانعتاق. أخذت أصفر وأدندن لحن أغنية كمراهقة سعيدة وأنا ذاهبة للقائه في الفندق لحضور الندوة المُقامة على شرف حاصد الجوائز الأبخل من كلب، ولا أعرف لماذا ابتدعت هذا التعبير؟ مسكين الكلب، من قال إنه بخيل؟ حين رأيته من بعيد مُحاطاً بالصحفيين والمصورين،

اختبأت في زاوية لأراقبه دون أن يراني، كان جميلاً وأنيقاً بالبذله الكحلية والقميص ناصع البياض وربطة العنق المُخططة من اللونين الأحمر والكحلي، وكانت كوكبة من النساء يحمن حوله، أكثرهن إلحاحاً للتقرب منه شابة مُحجّبة بطريقة جعلتني أشعر بالاختناق، كان الحجاب مُضاعفاً من اللونين الأصفر والأخضر وقد نفر خدّاها لكثرة ما شدّته حول عنقها. فجأةً انطفأت حماستي وخجلت كيف استخرجت بقايا أحمر الشفاه الفاقع مستعينةً بملقط الشعر، لماذا أردت إغواءه؟ لكنني أعرف الآن أنني لم أقصد إغواءه بل أريد أن أثبت له – وربما لنفسي أيضاً – أنني امرأة تثير الإعجاب ولها حق بأن تُحِب وتُحَب رغم بلوغها الخمسين. قرفت من تلك الحالة التي جرّني إليها بأن أثبت له أنني مُثيرة وبكامل أنوثتي، لكن ألا يعني ذلك أن ثقتي بنفسي مهزوزة؟ لماذا يهمّني أن أثبت له أنني امرأة مُشتهاة؟ لكن لو لم يكن رجلاً مشهوراً وحاصد جوائز وناقد من الطراز الأول، هل كان يعنيني أن أثبت له أنني لا أزال أحتفظ بكامل أنوثتي؟ لو كان رجلاً عادياً لا تحيطه الأضواء هل كان ليهمني رأيه؟ وهل كنت سكتُّ على مضض حين تحدث بتلك الطريقة المُهينة واللاإنسانيه عن نساء بلا حيض؟ أيه لعبة لَيّ ذراع أريد أن ألعبها معه؟ لكن لا يمكنني تجاهل تلك الكيمياء الحقيقية التي جذبتني

إليه، الحلم الذي فضحني، الشهوة التي انفلتت من رقابة لاوعيي الصارمة وصفعتني بلونين يتضاجعان: الأزرق والبنفسجي. وجدتني أمسح أحمر الشفاه الفاقع عن شفتي، وأزرّر قميصي الأخضر كي لا يكشف عن فتنة نهدين استيقظت ذاكرتهما، ولممت شعري المتهيّج وعقصته بملقط بلاستيكي، وانتبهت كيف تباطأت دقات قلبي وعادت إلى رشدها، ولم أسمح له برؤيتي بل حرصت أن يدخل الجميع إلى القاعة حيث تبدأ الندوة، وبعد أن دخل الحشد وأغلق الباب تسللت وجلست في المقعد الأخير أتابع بذهن مشوش ما يقوله وكيف يردّ على الأسئلة التي يوجّهها إليه بحماسة وبكثير من الإجلال والتقدير الصحفيون والقرّاء، ولم أعد أتابع، خنقني الملل والإحساس بالعبثية، وخطر لي أن أنزل الدرج الطويل وأحكم قبضتي على المايكروفون وأسأله بصوت جهوري: لو سمحت، إشرح لنا نظريتك حول امرأة في الخمسين وكيف تقدّر عمر النساء استناداً إلى رطوبة المهبل؟ ولو سمحت، هذا هو الشق الأول من السؤال، أما الشق الثاني فهو كيف تعالج هذا الفصام بداخلك بين حماستك الشديدة لكتابات النساء وجرأتهن في خرق المحظورات وخاصةً الجنس وأنت تنظر باحتقار وقرف ودونية إلى النساء في الخمسين وتجرّدهن من أهم صفة تتباهى بها المرأة: الأنوثة؟ هل

تتحول المرأة في الخمسين إلى كائن لا جنسي؟ يا سلام، يا للمتعة الهائلة التي حرّضها هذا السؤال في نفسي، والصور البديعة التي رسمها خيالي لوجوه الحاضرين وقد سمّرها الذهول! أيقظني من خيالاتي تصفيق حاد وفلاشات المصورين يلتقطون الصور لحاصد الجوائز وهو يستلم الدرع الذي سلّمه له وزير الثقافة، ثم صوره مع المعجبين والمعجبات. وكم أعجبتني الشابة المحجّبة حين دفعت عدداً من المعجبين وأصرّت أن تقف بجانبه وكتفها ملتصق بجذعه مبتسمةً للكاميرا.

***

لقد تعرّيت في سريره بكامل وعيي وإرادتي، معلقةً احتقاري لازدواجيته وبخله على المشجب الخشبي الأنيق في زاوية. لم أكن أشعر بأية إثارة جنسية، لم تكن سوى إثارة واحدة هي إغواء ما ستجرّني إليه تلك الممارسة بعد أن أوصدت نفسي ضد عالم الرجل ثلاث سنوات! كنت أتعامل مع نفسي كما يتعامل عالِم مع حيوانات التجربة، وربما أردت أن ألوي ذراعه حين أفقأ عينيه بجسدي المتناسق الجميل والذي يُضاهي جسد شابة في الثلاثين، يمكن أن أعدد الكثير من الأسباب لقبولي ممارسة الجنس معه، ما عدا الحب أو الرغبة،

كنت أفتح طاقة على عالم الرجل والجنس، آخر طاقة ممكن أن أسمح بها – هكذا كنت أقول لنفسي –، ولدهشتي لم أتوقع أن نكون مُنسجمين ومُتناغمين إلى هذا الحدّ المدهش، كنا كأننا خُلقنا لنمارس الحب معاً، لم نشعر بارتباك وخجل وحيرة الممارسة الأولى، كل حركة كان يقوم بها كنتُ أتلقفها كما لو أنني أتوقعها أو أنني تدربت عليها طويلاً. هو بدوره احتواني بطريقة آسرة كما لو أنه يعرف مفاتيح جسدي، كنا كفرقة تعزف لحناً جميلاً تدربت عليه طويلاً، وفي كل حركة كانت روحي تزهر، كذلك روحه، ولم أتفوّه بكلمة طوال فعل الحب، أما هو فلم يستطع أن يمنع نفسه عن التعبير عن دهشته لذلك التوافق والانسجام الرائع بيننا. كنت أشعر أن عيوننا تتضاجع لأنه كان يسبر دوماً عينَي بعينيه، وقال لي متجاوزاً غروره: لم أشعر بهكذا نشوة مع امرأة. كنت سعيدة لأنني مُشتهاة ومعشوقة ومرغوبة، كنت سعيدة ومنتشية بذلك العزف الجميل لجسدينا على أوتار الرغبة، لكنني لم أصل للنشوة ولم يهمّني ذلك على الإطلاق، فأحاسيسي كانت أهمّ بما لا يقاس من تلك الرعشة الميكانيكية التي لا تعني لي شيئاً. كنت مذهولة ومتعجبة من أن الجسد يمكن أن يستيقظ من سباته في أي عمر، وها أنا بعد ثلاث سنوات من قصة حب فاشلة أذوب رغبةً وشغفاً بين ذراعي غريب. أطرى

جسدي المشدود المتناسق وقال لي إنه في بداية شبابه كانت تثيره الشابات الطويلات، ضخمات القامة، ثم اكتشف أن المرأة الأميل للقصر تملك إغواءً وفتنة، مثلي تماماً. أخذت أضحك من كل قلبي وأنا بكامل عريي دون أن ينتابني خجل، وعجبت كيف لم أدثّر نفسي بالغطاء بعد انتهائنا من ممارسة الحب، كنت أريد أن أهزمه بنضارة جسدي، بنضارة جسد امرأة في الخمسين. لكنني حين اختليت بنفسي لم أستطع أن أواجه نفسي في المرآة، كنت أحس بالخزي من تلك الإنسانة التي ارتضت أن تمارس الجنس كتجربة، فقط لتتفحص مشاعرها بعد انقطاع لثلاث سنوات، فقط لتثبت لرجل مغرور أن امرأةً في الخمسين هي امرأة، هي أنثى تُثير وتحرّض مشاعر وتستحق الحب والاعتراف بأنوثتها. وبقي ذلك الانسجام الجسدي بيننا يحيّرني، أهذا ما يسمّونه الكيمياء؟

انتظرت أن يتصل بي، كنت من المؤمنات بالعاطفة، ولا أتخيل أية ممارسة جنسية بعيداً عن العاطفة، ولولا الجاذبية القوية بيننا لما كنت في فراشه مستسلمةً لنداء الرغبة، ولأقوى لغة في العالم: لغة الجسد. لم يتّصل، فوجدت له العذر لعله نائم، لكن ثمة شك خبيث جعلني أتصل به، فكان هاتفه الخليوي مشغولاً لفترة طويلة، ترى مع من يتحدث عند الثالثة فجراً، وبرز وجه

الفتاه المُحجّبة في خيالي وأتاني إحساس أشبه باليقين أنه يتحدث معها. وقبل أن أسمح لمشاعر – طالما عذبتني – أن تسيطر علي؛ مشاعر الإهانة والخيانة، ذكّرتُ نفسي أن ما يجمعني به مجرد رغبة وفضول وتحدٍّ، وأنه حرّ أن يتصرف كما يشاء، فلا سلطان لي عليه، ولا سلطان له علي. لكن كيف سأتخلص من كل هذه المرارة التي أغرقت روحي. كنت أعي ذلك الشرخ في روحي، فأنا أجبر نفسي أن أتصرف عكس طبيعتي، وأتّهم طبيعتي بالتخلف، أنا لا أحب أن أهب جسدي إلا لرجل أعشقه وبيننا وعد بالارتباط، الحب لا يكتمل بدون وعد. ولكنني كنت أجبر نفسي أن أكون إنسانة عصرية وأن أتصرف كما تتصرف صديقاتي ونساء عصر الحرية الجنسية ومساواة المرأة بالرجل، وكان عالم الصحافة والأدب أصدق نموذج على هذه الأفكار والممارسات، كنت أريد أن أنتمي إلى بيروت وأوساطها الأدبية والفنية، متجاهلةً تعاسة إنسانة تشعر بالألم والخزي والقهر كوني أدوسها بلا تقدير ولا احترام ولا أنصت لها ولرغبتها الحقيقية.

تلقيت الطعنة الأولى منه حين سافر دون أن يودّعني! لم أشأ أن أتّصل به باكراً بعد وصالنا المذهل بانسجامه وجماله، كنت أتخيّل طوال الوقت تلك الابتسامة العذبة التي سترتسم على وجهينا حين نلتقي

بعد ليلة الوصال التي أدهشتنا معاً، وكنت قد أحضرت له هدية أشبه بتذكار ذي دلالة: دمية صناعة روسية جميلة جداً تلبس قميصاً أزرق وتنورة بنفسجية وقد زيّن شعرها الأشقر بزهور صغيرة وردية، كانت تلك الدمية رمزاً لعلاقتنا ولشعلة الشغف التي تفجّرت من اللقاء الأول وهو يلبس القميص الأزرق وأنا ألبس البلوزة البنفسجية. ولم أعكّر فرحتي بلقائه بأن أتساءل ترى ماذا سيُحضر لي كتذكار؟ ورغم أن بخله صفعني فقد كنت مستعدة أن أغضّ النظر وأسامحه إن لم يحضر لي تذكاراً، وانتظرت اتصاله في اليوم التالي لحفلة الغرام، مؤمنةً أن المبادرة يجب أن تكون من الرجل، ومرّ الوقت بطيئاً ومُهيناً لأنوثتي وكرامتي، وحاولت أن أبرّر له انشغالاته، ولم أقوَ على الانتظار أكثر والساعة تجاوزت الثانية ظهراً، تجمّد الدم في عروقي حين وصلني رنين غيابه وصوت الآلة تقول إن الرقم المطلوب خارج التغطية. اتصلت بالفندق فأعلموني أنه سافر وأن مسؤول العلاقات العامة قد أوصله إلى المطار عند الساعة الثانية عشرة ظهراً. كنت أعرف المسؤول عن العلاقات العامة، إذ كنا نتواجد دوماً في الندوات والمؤتمرات العديدة، كان شاباً مرحاً ومفرط التهذيب ولكنه في أعماقه كان يكره كل المثقفين ويصفهم بالمملّين والمغرورين، اتّصلت به وادّعيت أنني أسأله عن

أحد أصدقائنا المشتركين، وجعلت الكلام ينزلق إلى الضيف، وكم صعقني حين أخبرني ضاحكاً بأنه أوصله إلى المطار وأن شابة مُحجّبة رافقتهما وأنها – رغم حجابها – لم تمتنع عن تقبيله أمام الجميع، وأنه يتعجّب من جرأة بنات هذا الزمن، وسألني باهتمام: هل يحق للمُحجّبة أن تُقبّل رجلاً غريباً؟!

لم أعد أصغي لكنني كنت واثقة أنه كان يتحدث إليها الثالثة فجراً حين كان خطه مشغولاً. كان يُغازل امرأةً أخرى بعد دقائق من وصالنا! من ممارستنا الحب بطريقة أذهلتنا لجمالها وانسجامنا! أتراه لم يحتج للحظة تأمل؟! وأية وقاحة وغرور مُقرف وانعدام لأبسط قواعد الذوق أن يسافر دون أن يقول كلمة وداع لامرأة وهبته جسدها وروحها! أي نوع من الإبداع الزائف هذا؟ هل يمكن أن نفصل المبدع عن سلوكه؟ أتراه أراد تحقيري وإهانتي؟ أتراه أراد السخرية مني بأنني استسلمت له ببساطة شديدة لأنني امرأة في الخمسين، وبأنه – وهو يزيدني بثلاث سنوات – أهداني تلك المُضاجعة، بل تمنّن علي بها؟ وبأنني لا أستحق كلمة شكر أو وداع، فهو منشغل حالياً مع شابة لا يزال مهبلها رطباً؟ كانت الدمية الجميلة ترمقني بعينيها الزقاوين، وبصعوبة جرّدتها من ملابسها وأحرقت تنورتها البنفسجية وأنا ألعنه وألعن نفسي

وأحاول جاهدةً امتصاص غثيان القرف والإهانة من المُبدع المُكرم، حاصد الجوائز.

هل تعمّد إهانتي! ألم يتقصّد ألاّ يودّعني عمداً لتحقيري وأنا التي توقعت منه هديه تذكارية! واشتريت له بكل مودة ومحبة دمية ترمز إلى لقائنا الجميل ومشاعرنا الصادقة، وكيف لا تكون مشاعرنا حقيقية وصادقة وقد كان وصالنا ساحراً وباعترافه هو بأن مشاعر كتلك التي أحسها معي لم يشعر بمثلها في حياته؟ هل خاف أن يقترب مني أكثر كي لا يكتشف زيف أعماقه وشهرته الزائفة، إنه مُبدع على المستوى الفكري والبحثي لكنه مُنحطّ على المستوى الإنساني، إنه يكرهني بأعماقه لأنني عفوية وصادقة وطبيعية، وهو ناجح مُزيف، يكتب دراسات بديعة تحليلية عن الأدب النسائي دون أن يؤمن بكلمة مما يكتبه، إنه يحتقر تلك الحريات التي تطالب بها الكاتبات، وفي أعماقه يُصنّفهن كعاهرات، وقد قدّم لي الدليل بطريقة تعامله معي، فالرجل لا يودّع عاهرة ولا يدير ظهره إلا لعاهرة، أراد أن يطعنني في صميم كرامتي وأنوثتي كأنه يقول لي: يا رخيصة، ضاجعتك ورميتك. لقد تعمّد ألاّ يودّعني وأن يسافر دون أن يُعلمني لأنه يخافني، يخاف تلك الإنسانة الحقيقية التي ستكشفه على حقيقته فيما لو سمح لها بالتقرب منه أكثر، الإنسان

المزيف لا يسمح لآخر حقيقي أن يقترب منه بشكل حميمي لأنه سيكشف زيفه. العلاقة الحقيقية تعني إسقاط الأقنعة وكشف الذات.

بعد أن هدأت وامتصصت الصدمة وحوّلتها إلى حالة تأملية، أحسست بغبطة، غبطة من يكتشف شيئاً مهماً ويكون مستعداً سلفاً كي يدفع كلفته وثمنه مهما كان موجعاً. لقد زججت نفسي في علاقة معه كي أكتشف زيفه، كي لا أكذب حدسي، ولأن كيمياء حقيقية لا يمكن تجاهلها تفجّرت بيننا وقذفتنا إلى سرير الرغبة، كانت الجاذبية الجسدية بيننا هائلة أحرجتنا ولم نستطع مقاومتها، لكنني تعاملت مع الحالة باحترام، أما هو فكان مُصرّاً على احتقاري وإهانتي. وجدتني سعيدة بتلك المشاعر لكنه لم يحقّرني ولم يُهنّني بل كشف القناع عن أعماقه المُتعفنة، وأنا واثقة أنه يخافني، وأنه لن ينساني بسهولة، سأظلّ أؤرّقه وأدينه، إنه يعرف أنني من النوع الذي يسبر الأعماق، وها أنت الآن أسيري، ستدخل معملي الداخلي يا حاصد الجوائز الدسمة وسوف ترى كيف سأفكك قطعةً قطعة.

أحاول أن أتجرّد من ذاتي، من كوني امرأة في الثانية والخمسين، ولا أعرف من أين تغزوني المتعة، متعة من نوع خاص، متعة من يكتشف جوهراً ظل غائباً عنه لعقود، متعة من يكتشف الفرق بين الحقيقي والزائف.

أسترخي على الأريكة وبيدي كأس فودكا ممزوج مع الغريفون، أشعر بخفّتي وأمازح نفسي بأن أكرر مراراً عنوان الرواية البديعة لكونديرا، **خفة الكائن التي لا تحتمل**. أشعر بخفّة، بمعنى رشاقة روحي، أشعر أنني في ذروة الإحساس والفهم، وأن كل تلك المشاعر التي تتفاعل في أعماقي تتحول إلى سخرية، لا يوجد شعور أروع من السخرية، ليس لغاية التجريح بل لتلطيف الألم والخسائر. أقلّب محطات التلفاز، ملل تلو ملل تلو ملل، ياه المواضيع الأبدية ذاتها، الأساليب المُحنّطة البالية ذاتها في علاقة الرجل بالمرأة، في مفهوم الحب، والملل الزوجي والخيانة والبرود الجنسي، والضعف الجنسي عند الرجل. أتجرّع جرعة كبيرة من الفودكا وأحسّ بالسخونة اللذيذه في قلبي، أضحك إذ تخطر ببالي فكرة طريفة بأنه لم يعد من رجل يُسخّن قلبي كجرعة فودكا. أتاني يقين مؤكّد أن عمر الخمسين هو عمر الحقيقة، والحقيقة دوماً قاسية وفظة ولا يريد أحد أن يصدقها، الكل يفضّل سعادة الوهم. أستدعيهم بسخرية، كما لو أنني آمرهم أن يصطفوا في رتل، أسمّيهم رجال حياتي، رغم أنني لفظتهم جميعاً وتقيأتهم وأصبحوا خارجي تماماً دون أن يترك أحدهم أية بصمة في روحي، لكني أدرك أن علي أن أطلق عليهم لقباً ما، آمرهم أن يقفوا أمامي فيما أنا مسترخية على الأريكة

منتشيةً بالشعور اللذيذ الذي تعطيني إياه الفودكا، ياه كم يتشابهون! يذهلني تشابههم شكلاً ومضموناً لحدّ التطابق! أحس أجسادهم من ظلام، وأرواحهم مُعتمة. هل أحببتهم حقاً؟ أكرر على نفسي السؤال الذي يفجّر شكوكاً متزايدة في أعماقي: هل أحببتهم حقاً؟ أم كنت ضحية خداع الحاجة للحب، أن لا أنثى طبيعية وسوية بدون حب، هل كنت سعيدة حقاً معهم؟ وهل توقعت من الحبيب الجديد أن يُنسيني ألم حبٍّ قديم؟ ثم أجد نفسي في قلب الألم ذاته الذي هربت منه، من حب قديم.

ينظرون إلي بدهشة وشيء من خوف والكثير من النفور، كما لو أنهم يحدسون أنني سأحاكمهم، لكني حين أمعن في تأملهم أدرك أن سبب ضيقهم وخوفهم هو أنني كشفتهم على حقيقتهم، وأنني لم أعد أشبه حضوري الذي يعرفونه، وأن امرأةً في الخمسين – وحدها – ممكن أن تنطق بالحقيقة، حقيقة ما عاشته وأحسته، حتى لو تسببت بإدانة الجميع لها وخسرانها احترامهم. أضحك من كل قلبي وعاصفة غثيان تعصف بروحي: لا أريد هكذا احترام. وبصوتٍ زاعق غاضب صرخوا في اللحظة ذاتها: ماذا تريدين منا؟ وببرود وسخرية ممتعة أردت أن أتسلى بقلقهم وغضبهم فسألتهم بصوتٍ رخو ليزيد من تأجج غضبهم: ماذا

تتوقعون أنني أريد منكم؟ ولدهشتي وجدتهم يتلاحمون ويتلاصقون حتى تكاد الحدود بين أجسادهم تتلاشى، وردّوا بصوت واحد: لا نعرف، لكنك استدعيتنا لأمر هام فما هو، وماذا تريدين منا؟ انفجرت بضحكة ساخرة وأنا أقول منقلةً نظري بين وجوههم المُكفهرة: أريد أن أبكي على أطلال حبنا، ثم أردفت: أحبائي بالجملة. ولم أفهم كيف توحدت حناجرهم فصرخوا: واضح أن قصدك السخرية منا، أليس كذلك؟

اعتدلت في جلستي ورشفت آخر جرعة مُنعشة من الفودكا وتربّعت متخذةً وضعية بوذا وقلت لهم كما لو أنني أتوجه بالحديث إلى أطفال: لا، لا، سأزعل منكم، لماذا تفترضون أنني سأسخر منكم؟ هذا يعني أنني أسخر من نفسي أيضاً، لأنني كنت شريكتكم في تلك الحالة أو اللعبة أو الورطة أو حتى يمكن في بعض الحالات تسميتها بالكارثة، ألم أكن شريكتكم – طبعاً كلٌّ على حدة، لأنني أقرف من تعدد العلاقات في وقت واحد – في ما يُسمّى حالة الحب أو الحب. وبالمعجزة التي حولت حناجرهم إلى حنجرة واحدة قالوا: إذاً أنت تريدين الانتقام منا.

ضربت كفاً بكفّ وقلت: يا سبحان الله، ولماذا أريد الانتقام منكم؟ و... قاطعوني كما لو أن الكرة أصبحت في ملعبهم أو لاعتقادهم أنهم سيقضون علي بالضربة

القاضية: إذاً أنت تريدين إقامة جرد لعلاقاتك الغرامية! ورغم تصنّعي السخرية واللامبالاة فإن هذه العبارة جرحتني، وغمرني حزن كثيف. فكرت وأنا أنقل نظري في وجوههم التي طالما برقت عيناي وجداً وأنا أتأملها بأن الألم أكثر رحمةً من الحزن. وللحظة اختفوا، غابوا عن نظري وإحساسي بوجودهم، ووجدتني أتساءل بسذاجة، ربما سذاجة آدم وحواء حين تبادلا النظرة الأولى: ما الذي يربط المرأة بالرجل؟ وأتاني يقين بأن العلاقة بينهما شديدة التعقيد، وما الحب سوى تمويه ناجح جداً ليخفي حقيقة ما يربط المرأة بالرجل. هل أحببتهم جميعاً؟ هذا ما علي أن أؤمن به وإلا لما استطعت أن أهبهم روحي وجسدي وأن أكتب لهم تلك الرسائل المثقلة بالشغف والوله، وأظنهم أحبوني لأنهم عشقوا اللغة التي خاطبتهم بها، عشقوا رسائلي حتى أنهم كانوا يطالبونني بإلحاح أن أكتب لهم، وأحياناً يغضبون إن قصرت بالكتابة. هل كنت أملك غريزة عفوية أن الأنثى التي لا تُقاوم هي اللغة، وأن أي رجل، مهما كان منيعاً ومُحصناً ضد الحب، فإنه ينهار متيّماً عشقاً بمجرد كلمات. كنت أدرك بحدس لا يقبل الشك أن فتنه اللغة لا تعادلها فتنة، وإغواء اللغة لا يعادله إغواء. كان القاسم المشترك الأعظم بين عشاقي ولعهم بلغتي، بمفرداتي، كانت تصيبهم حالة إدمان على كتاباتي،

وكنت أستمتع بتلك السلطة التي أمارسها عليهم، لكن ولسوء حظي ولغبائي أو إهمالي لم أكن أحتفظ بنسخ من رسائلي، الآن أريد منهم رسائلي، لسبب وحيد كي أدرك إلى أي حد كنت مُضللة، وكانت حالتي الذهنية العاطفية مشوشة، إلى أي حد كنت ضحية ما يُسمّى خداع الحاجة للحب، التي هي عكس الحب تماماً.

طمأنتهم أنني لا أحقد عليهم أبداً ولا أريد منهم شيئاً، وهممت أن أبوح لهم بأنني أستخفّ بهم جميعاً وأحتقرهم، لكن لم أجد جدوى من هذا التصريح الذي قد يفشل مهمتي، فأنا أريد رسائلي التي كتبتها لكل واحد منهم، وأنا واثقة أنهم يحتفظون بها لأنهم عشقوا كلماتها وتدفق المشاعر المرسومة بكلمات. قد يحاولون التملص من طلبي، قد يدّعون أنها ضاعت، وقد يغتاظ بعضهم أنني ساويته بالآخرين فيما يؤمن أنه كان الحبيب المُميّز. لكنني مصممة على اتّباع كل الحيل والأساليب لأحصل على رسائلي لعشاقي، لأنني أنا المرأة المتربعة في ذروة سنوات الحكمة، أنا المرأة الخمسينية، أملك الحقيقة كاملة، ولست مُرتهنة لأحد ولا أملك ولاءً لأحد سوى الحقيقة. حين علموا أن غايتي من استدعائهم هو رغبتي وإصراري على الحصول على رسائلي، ذهلوا وبعضهم عبّر صراحةً عن سخريته من طلبي وسألني بسخرية صريحة: هل

تريدين أن تطبعيها كتاباً؟! لم أكن بمزاج مرتاح لأردّ عليه، تجاهلته، وقلت: لستم مضطرين لمعرفة دوافعي، ولست مضطرة أن أقدم لكم الأسباب التي تجعلني راغبة بالحصول على رسائلي لكم. أفترض أنكم تملكون الحد الأدنى من الاحترام لرغبتي، خاصةً أن هذه الرسائل تخصّني فأنا من كتبتها. اعترض أحد عشاقي قائلاً: لكنها صارت ملكنا، ألم ترسليها لنا؟ إذًا هي من حقنا، أنت كمن يستعيد هديةً قدّمها لشخص، وأظن هذا سلوك غير لائق. حاولت امتصاص اعتراضه وإيجاد حل سريع لمشكلة ستتفجّر بيننا، فقلت مصطنعةً الهدوء والمُبالغة في احترام رأي العشيق إياه: معك حق، الأمر يشبه استعادة هدية قدّمتها لكم، لكن إذا كنت حريصاً على رسائلي يمكنك تصويرها، احتفظ بنسخة لك، لكن من حقي أيضاً أن أملك أوراقي، ما كتبته، وما كنته، إن هذه الكتابات تعني لي الكثير، إنها أشبه بالبحث عن الذات. أظنكم تعرفون أن الذاكرة تضعف مع العمر، وغالباً ما تُهمل حوادث ذات قيمة، ما يؤلمني أنني أحس بتشوش وضباب في ذهني حين أتذكر كيف كنت؟ لأنني – وبكل صدق أقول لكم – لست واثقة أنني أحببتكم، كنت أحب الحب وليس أنتم، كنت ضحية هيمنة فكرة رهيبة علي هي ضرورة حب رجل، وكنتُ مثارة ومتحمسة لهذه الفكرة لدرجة أعمتني عن

حقيقتي وذاتي، لقد ضيعت ذاتي، أجل ضيعتها من أجل سراب اسمه الحب. لا تعنيني نظراتكم الساخرة وغير المتفهمة، فأنا لا أبالي، هل فهمتم قصدي أم لا؟ كل ما يهمني هو الحصول على الرسائل، لأستشفّ من خلال الكلمات روحي وقتها، لأقدّر إلى أي حدّ كنت أمارس الخداع على ذاتي. وماذا ستفعلين بها؟ سأل أحد العشاق. لا أعرف، لكن الكلمات ليست ذات اتجاه واحد ومعنى واحد كما تبدو، إنها كأشعة الشمس تنتشر بكل الاتجاهات، هذا ما أدركته حين قرأت بالصدفة بعض الرسائل التي كتبتها لرجل أحببته وكانت تفصلنا محيطات. كنت أكتب له رسائل ينتظرها كما تنتظر الأرض المشققة من العطش المطر، وكنت أرسلها إليه بالفاكس، لأن الإنترنيت لم يكن قد وجد بعد، وقبل وفاته – إذ كان مصاباً بالسرطان – أرسل إلي طرداً بكل الرسائل التي كتبتها له، وكتب لي سطراً واحداً: انشريها في كتاب، إنها أجمل من رسائل جبران خليل جبران ومي زيادة. لم أفتح الطرد حتى، وضحكت من ملاحظته واعتبرت أن السرطان قد أضعف ملكاته الذهنية. وبعد أشهر من استلامي طرد رسائله، وكنت أرتّب خزانتي، دفعني فضولٌ فاتر أن أفتح الطرد، وهالني كمّ الرسائل التي أرسلتها له، وسحبت رسالة كيفما اتفق وقرأتها، ولا أعرف كيف أصف لكم حالتي!

كنت مصعوقة، كنت أمام إنسانة ليست أنا، لا تشبهني ولا تمتّ إلي بصلة. وبدأت أقرأ، توقفت عن القراءة لبرهة لأدقّق في خطي. هل أنا حقاً من كتبت تلك الكلمات؟ إنها أنا، فهذا خطي. تابعت القراءة: "لا يستطيع عصير الجزر البارد أن يلطّف أشواقي إليك، شمس عمودية سخية تغمر البحر، يتلألأ سطحه بانعكاسات رائعة. الساعة الواحدة ظهراً، أفكر بك، نهارك ليلي، وليلي نهارك. الحرمان يمتلئ معنىً يا حبيبي، كل شيء يفشل في تبديد شعوري بالحرمان منك، لا العمل ولا الأصدقاء، لا شيء يلطّف هذا الشوق النهم إليك، الذي يجرّدني من طاقة الصبر ويدفعني كي أدفن نفسي كل مساء في السرير كأنما أريد أن أخبّئ جسدي في جسدك، لكنني واثقة أن لا فرح في العالم يعادل فرح إنسانٍ عاشق. قرأت اليوم قولاً للقديس أوغسطين: أحبَّ الله وافعل ما تريد. أما أنا فأقول: أحبك وأفعل ما تريد".

لم أكمل قراءة الرسالة لأنني لم أعد أتحمّل كمية النفاق فيها، كنت واثقة، رغم مرور سنوات على كتابتي تلك الرسالة لحبيب لم يعد الآن على قيد الحياة، أن حبي كان مغشوشاً وأن عواطفي ليست صادقة تماماً. هل أنا امرأة لعوب؟! ألم أحبه؟ ألم أكتب له عشرات الرسائل التي كان يقرأها مراراً مُفتتناً بسحر اللغة. كان

يقول لي مداعباً: أشعر وأنا أقرأ رسائلك كما لو أنني عصفور صغير تلتقطينه من رقبته فلا يستطيع الفكاك منك. وكنت أردّ بدلال: وهل تريد أن أفلتك لتطير بعيداً عني؟ فيردّ للحال: الابتعاد عنك هو موتي. ما كنتُ متأكدة منه أن عواطفي مغشوشة وأن حبي الحقيقي لم يكن له بل للغة، للحالة، لذلك التزاوج البديع بين الشعور واللغة، كانت مشاعر خام غنية وقوية تبحث عن من يتحداها ويماثلها في الزخم والقوة كي تستسلم له وتهبه روحها وذاتها، ولم يكن الرجل بقادر على ذلك العطاء، بل كانت اللغة هي الأنجح. إذ كان الرجل – الحبيب – مجرد صلة وصل بين تدفق مشاعر الهوى في أعماقي وبين اللغة التي تدخلني في نشوة هائلة هي نشوة التحليق عالياً حتى بلوغ ذروة الإبداع والشغف. كنت امرأة مفتونة بمفهوم الشغف، وكان علي ابتداعه وخلقه. سحبت كيفما اتفق رسالةً ثانية كتبتها له: "ما زلت هناك، قربك، ولا يزال هواء الحرية يخفق في رئتي، لا معنى لبيروت من دونك، طوال طريق العودة كنت أبدو متماسكة، رغم أنني كنت أسمع طوال الوقت أنين الشوق الخافت في روحي، كنت أتنفس ألماً لفراقك، شاعرة أن قلبي ينسحب مني شيئاً فشيئاً، لو تعرف ماذا فعل بي صوت المطربة التونسية لطيفة حين صدح صوتها بأغنية "إن شاء الله، إن شاء الله ترجع

لي"، انهمرت دموعي سخية دون أن أبالي بالركاب إلى جانبي، كان شوقي لك قد بلغ حدّ التورم غير المحتمل، وعرفت أن علي أن أجرّب قواي في صراع صعب جداً وهو بعدي عنك، فأنت أكثر إنسان في العالم أحس بالكمال الداخلي معه.."، قفزت عدة أسطر في الرسالة الطويلة وتابعت القراءة: "عبرت الحدود ونظري معلّق بالغروب الذي بدا ملتهباً بالشوق لك، وصلت بيتي وأنا أقاوم سكينة مشروخة بحزن عميق، ثم انطرحت على السرير ليس بسبب تعب السفر بل لأنني أحتاج قربك، علي أن أبوح لك بحقيقة هامة هي أن كل تجاربي السابقة (وهي قليلة جداً).." وهنا انفجرت بضحك حتى سالت دموعي من تلك العبارة واستحضرت تماماً تلك اللحظة الكاذبة التي كتبت فيها تلك العبارة "القليلة جداً"، كانت كلمات عن مشاعر وأحاسيس. قفزت عدة أسطر لأتابع القراءة: "أحبك بكل المعاني، كل شيء فيّ يتوهج معك، كل خلية في جسدي تشتاق إليك لحدّ الوجع، أحس أن دمي يخفق في موجات من الوله نحوك، كم أعشق أن تسمّي نهدي "الفخمين"، أفكر بشوق حارق كم يتوق الفخمان لراحتك، أريد أن أكتب عن نهد له مقاس راحة يد، ياه متى سأراك ثانيةً؟ كيف سأطوي كل هذا الزمن؟".

رميت الرساله جانباً وأنا أعي كم هي مُفتعلة ومُصطنعة، تحسست كيس الرسائل، يا إلهي يبدو كمخدة! أي إغواء كنت ضحيته؟ لماذا كل الرجال الذين أحببتهم كتبت لهم أطناناً من الرسائل؟! كما لو أن الرسائل هي العصب الرئيسي للحب! دلقت محتويات الكيس على الطاولة فتناثرت الرسائل، وأخذت أقرأ من كل ورقة عبارة، أقرأ ما يقع عليه نظري بالصدفة: الحب قوي كالموت – لا أستطيع أن أواجه عيني لأنني أرى فيهما دفقات من المشاعر، أبكي دون أن تتقلص عضلة واحدة في وجهي كأن دموعي ماء إلهي – كم هو خلاّق هذا الحب ومثمر، كيف يمتطي الكلمات ويحررها ويعطيها جمالاً، أحب هذه السعادة الصامتة التي أعيش في قلبها مذ عرفتك، وبين حين وآخر يعصف بي الشوق كرعشةٍ مُباغتة، وفي قمة انشغالي بأمور حياتي الروتينية، أشعر أن كل من حولي يضبطونني متلبسةً بالحب – ياه كم تختلف أنت عن الرجال الذين عرفتهم. ما إن قرأت هذه العبارة حتى رميت الأوراق جانباً وانفجرت بالضحك، إذ تذكرت أنني قلتها لكل عشاقي. وحين سأحصل على رسائلي التي أرسلتها لهم سأضع خطاً تحت العبارة المُشتركة التي قلتها لهم: كم تختلف أنت عن بقية الرجال الذين عرفتهم. فكرت بجدية وقلق، ما سر اهتمامي الشديد بتلك الرسائل التي كتبتها

لرجال أحببتهم؟ ألا يتبادل معظم المحبين الرسائل؟ وكم من كتب عظيمة ضمّت رسائل حب بين عاشقين؟ لماذا أنظر للأمر كما لو أنه حادث فريد وغريب؟ لست استثناءً ولا الرجال الذين أحببتهم استثناء، ربما أشعر بملل أو مجرد فضول لأعرف ماذا كتبت لكل واحد منهم؟ لكني أعرف بحدسٍ لا يُخطئ أن الأمر أكثر تعقيداً بكثير من مجرد امرأة عاشقة تكتب رسائل، أدرك وأنا متربّعة على العرش، عرش سنواتي الخمسين، أنه لا مجال لخداع نفسي وأنني لم أحبهم كفاية، ولم أحبهم لذاتهم، بل أحببت الحب، أحببت تلك الطاقة التي تتفجّر لغةً وأحاسيساً، أحببت حالة الهوى والشغف والوله، وكان علي أن أخلق النموذج لأهديه طوفان مشاعري المبدعة، وليساعدني في تفجير مخزون اللغة داخلي، ليست أيه لغة بل لغة الخلق والإبداع. وفي كل مرة كنت أجلس لأكتب لأحدهم رسالة حب كنت أشعر بما لا يقبل الشك أنّ ما يغويني هو اللغة وليس الحبيب. ألم أحب أياً منهم إذاً؟ هل هذا ما أريد التوصّل إليه؟ لا أظن، فأنا لست جاحدة ولا مُزوّرة، لقد أحببتهم لكن لم يبقَ منهم إلا افتتاني باللغة، وحين تحررت من وجع الغريزة وسلطة الهورمونات الجنسية أمكنني أن أرى علاقتي بهم على ضوء الحقيقة العارية. مهما كانت تلك الحقيقة قاسية، وللأمانة أعترف أنني ألوم نفسي أكثر

مما ألومهم لأنني كنت عارفة أن علاقتي بهم مغشوشة، وأنني كنت أستمر في ما أسمّيه "علاقة حب" كي أحسّ بنشوة أنني مرغوبة ومُشتهاة، وأنّ من غير المنصف أن يذوي جسدي الجميل الدافئ الذي يضجّ بالرغبات كما تذوي ثمرة ناضجة تنتظر من يقطفها ويمصّ عصيرها. أظنني كنت إحدى ضحايا جيل تقديس الحرية الجنسية وتكريسها كعلامة على الصحة النفسية والجسدية، وقد أقنعت نفسي أن من لا تعيش علاقة حب هي مُعاقة جسدياً ونفسياً وأن عمرها يضيع هدراً. لم أكن أجرؤ على التشكيك بهذه الأفكار، فهي تحاصرني في الإعلام وقصص المشاهير وفي علاقات الحب بين معارفي. كانت العلاقة مع الرجل أشبه بالضريبة، ضريبة عيش الأنثى والرجل أيضاً، كما أن من واجبهما أن يشتبكا بعلاقة رغبا أم لم يرغبا، كانت إلى حد ما كالشرّ الذي لا بدّ منه.

والآن وبعد أن تحررت من عبودية الغريزة، وبعد أن صار معظم الرجال الذين يماثلونني في العمر ينظرون إلي بشيء من شفقة كما لو أنني كائن لاجنسي، صار بإمكاني أن أحدّق في وجه الحقيقة دون أن يرفّ لي جفن. لا غاية لي سوى أن أرى حقيقتي، إلى أي حد عشت في ضلال؟ ولماذا انجرفت إلى ممارسات لست مقتنعة بها؟ بل في كثير من الأحيان أكون نافرة منها،

أكنت أبحث عن مكامن السحر في الحياة؟ السحر الذي اعتقدت أنه في الرجل، فإذا هو في اللغة.

لم يعد الماضي يثقل على روحي، ولم أعد مُضطرة كالسابق أن أبني حياتي بنسيج مشاعري، أن أحيك من حرير روحي عباءة أدثّر بها الحبيب، الرجل الذي أعشقه دون أن أدقق بهذا العشق. كنت أملك طوفاناً من المشاعر الجياشة التي تحتاج متنفساً، وكان علي أن أجد المُتنفس أي الرجل، كنت أؤمن أن الحب هو ترف الحياة ورونقها وأنظر بشفقة وبشيء من التعالي إلى هؤلاء الذين يعيشون بلا حب، ولكنني كنت أتخبّط في مشاعري، وتأتيني لحظات كاشفة وموجعة من الحقيقة بأنني أختلق الحب وأفتعل المشاعر.

يا للسلاسة التي يتنقل بها خيالي في استحضار صورهم، صور رجال حياتي – أقولها وأنا أتقصّف من الضحك – من يبالي برأيي إذا قلت إنني أعتقد أن جزءاً كبيراً من قصص الحب العظيمة في تاريخ الأدب زائفة، أو مُطعَّمة بقدر كبير من الغش والنفاق. كنت أشعر أن روحي تشبه الشمس لا تمل من الاحتراق عشقاً كل يوم، وتطفئ لهيب أشواقها في الليل، لتعاود التأجّج عشقاً في النهار دون أن تتعظ من ألم يومٍ سابق. كنت كالشمس أقع في المطبّ ذاته: غاية الحياة الحب، لا معنى لحياة دون حب، لا إثبات على أنني أنثى طبيعية

ومرغوبة دون رجل أتبادل معه الحب. الحب، الحب، الحب... ألم أنتبه أنه كالسوط مسلط على رقبتي، وأنه يطبق علي كصخرة ثقيلة تجثم على صدري. ربما أكبر خطأ ارتكبته بحق نفسي كوني آمنت أن الحب قدر لا مفر منه، كما لو أننا جئنا إلى الحياة كي نعشق ونُعشق، وأعرف أن الكثيرين يؤمنون بتلك الفكرة، لكن مُشكلتي أن هذه الفكرة لم تكن تنبع بعفوية من روحي، بل كانت متسلطة علي، كانت تأمرني أن أؤمن بها، وتهددني أن أشكك بها، كنت عبدة لتلك الفكرة ولا أجرؤ على الفكاك منها، وأظن أن إصراري على كتابة رسائل إلى الرجال الذي أحببتهم كان نوعاً من تلطيف تلك العبودية التي تمارسها علي فكرة أو مفهوم ضرورة الحب وضرورة العلاقة بين المرأة والرجل كي يثبت كل منهما لنفسه وللآخرين ولله – ربما – أنه طبيعي. كانت الكتابة أو اللغة هي فسحة الحرية الوحيدة لي في علاقاتي، كانت الشيء الوحيد الذي أملكه، وحدها الكلمات كانت حريتي، أصوغها وأشكّلها كما أريد، لأقنع نفسي أنني حرة وأنني اخترت حبيبي بكل رغبه وحب. كنت أخاف أن أتخيل الحياة بدون حب، كما لو أن الحب وحده هو حكم القيمة على حياة طبيعية وأنثى طبيعية، ولم أكن أعي الفعل المُدمّر للخوف في لاوعيي، وفي خياراتي، وأولها زواجي وأنا في التاسعة والعشرين من عمري،

وكل من ينظر إلي تُفصح نظرته عن تحذير: ما بك، يكاد قطار الزواج يفوتك، أسرعي بالزواج وأنجبي طفلاً، ماذا تنتظرين؟! كنت أرتعد خوفاً وإحساساً بالفشل من تلك النظرات، التي صارت المرآة تذكّرني بها كل يوم وأنا أتفحص وجهي وجسدي فيها، وأرى تلك المرأة الحائرة المُعذبة العانس، وتصفعني صور صديقاتي بفستان الزفاف الأبيض متأبطات ذراع العريس. أطرق خجلةً من نفسي الوحيدة، كما لو أن الوحدة عار، وأحس بالدونية والإعاقة وأنا أقارن نفسي بصديقاتي المتزوجات. وأكثر ما كان يؤلمني تعليق البعض: هل يُعقل أنك لم تلتقِ بنصفك الآخر بعد؟ ألا يوجد رجال حولك؟ انصبي شباكك حول أحدهم، ماذا تنتظرين؟

لم أكن أملك أي ردّ على هذا الكلام، وكنت أتساءل: ألا يُدرك هؤلاء أي ألم يسببونه لي؟ لكنني كنت أعترف بيني وبين نفسي أنني أضعف من أن أقاوم هكذا مفهوم عن الحياة، كنت في قرارة نفسي أتوق للمساكنة، أن أسكن مع رجل أحبه لكن لا تربطني به قيود، لا زواج مقدس أو غير مقدس، كنت أحب أن أبقى حرة، وخفيفة، أطير ساعة أشاء، وأعود ساعة أشاء إلى رجل أريده أن يشعر أنني لا أقيّده بشيء. ولطالما تساءلت: لماذا يُثقل الحب بالوعود الأبدية؟ وإذا كنا نحن كجنس بشري عابرين في هذه الحياة، فلم لا يكون الحب عابراً

أيضاً؟ كنت أحسد الرجال والنساء في المجتمعات الغربية الذين يعيشون مُساكنةً دون أية ارتباطات ثقيلة، دون تملّك، وبدأت عذريتي تثقل علي، بل كنت أبتلع التعليقات الساخرة أو التشكيك: هل ما زلت عذراء وأنا على أعتاب الثلاثين أم أنني تخلصت من ختم الشرف الوحيد المُعترف به في عالمنا العربي؟ ولا أنسى تلك الهمسات التي كانت بعض الصديقات يهمسنها في أذني: يمكنك أن تمارسي الجنس مع الاحتفاظ بالعذرية، ولا تخافي، لكل مشكلة حل، الله يعطيهم العافية هؤلاء المبدعين في الصين الذين ابتكروا غشاء البكارة الاصطناعي، ولا تتخيلين كم هو زهيد الثمن. لم أكن أعلّق على تلك الأفكار الأشبه بنصائح، بل كنت أتأمل كم أن الغش والخداع أساس علاقاتنا، خاصةً العلاقة بين المرأة والرجل. وتزوجت أخيراً لأنني يجب أن أدفع تلك الضريبة تجاه مُجتمعي، وأظن زوجي تزوجني للسبب ذاته، كان قد بلغ الخامسة والثلاثين ولم يتزوج، وتم تدبير زواجنا كما تُدبَّر صفقة من قبل بعض الأصدقاء المشتركين، ومن الأيام الأولى لشهر العسل أدركت أنني لم أعد أشبه نفسي، وأنني أكبت صراعاً قوياً في نفسي، صراع بين ذاتي الحرة التي لم تقتنع بهذا الارتباط وبين الابنة المُطيعة للمجتمع والتي أثبتت أخيراً أنها ابنة بارّة وطبيعية. ولم يعني لي الجنس أي شيء، لم أجد فيه

تلك الإثارة الهائلة التي تزلزل الأجساد والحواس، كان فعلاً ميكانيكياً غريزياً ينتهي برعشة ميكانيكية آلية، كما لو أنك تشغل آلة وتطلب منها تنفيذ أمر معين. واتّهمني زوجي بالبرود الجنسي، وبأنني لا أعرف طرق الإثارة التي تعرفها المرأة بغريزتها، وكنت أبتسم كي لا أقول حقيقة ما أفكر فيه، بأن الحب وحده يعطي السحر لكل لمسة. وأكثر ما كان يعذبني حين أجدني وأنا أمارس الجنس معه أفكّر بالعاهرات، وأحاول تقمّص مشاعرهن، وأفكّر أن أسهل شيء هو وهب جسد، مجرد جسد، بدون حب، الجسد بدون حب هو جثة. كنت أتفرج عليه كيف يُثار ويطلب مني وضعيات معينة، وغالباً ما كنت أرفض لأنني أشعر أنه يأمرني ليس لأنه يحبني بل لشعوره أن جسدي من حقه وملكيته، لم أعد أشعر أنني أملك جسدي بل انتقلت الملكية للزوج، وكان هذا الإحساس يجلدني ويُهيننني في كل لحظة، حتى أنه من حين لآخر كان يرغب أن يُضاجعني من الخلف مؤكداً لي أن معظم الأزواج يمارسون الجنس أيضاً بتلك الطريقة، فالتنوع مُثير، وكنت أرفض باشمئزاز وشراسة وأقول له إنني أشمئز من تلك الطريقة، فيردّ بإصرار من يملك الحق: لكنه حقي، أنا زوجك ومن حقي أن أضاجعك كيفما أريد! فأتحداه وأقول له إن جسدي هو ملكي، وإنني لا أرغب بتلك الممارسة المُقرفة الشاذه.

فيردَ متحدياً ومصمماً أن يجعلني أذعن لرغبته بأنني أعاني من كبت بحكم التربية المتزمّته التي تُربّى عليها الفتاة العربية، وأؤكد له أنني أرفض تلك الممارسة لأنني أشمئز منها ولا علاقة للتربية المتزمته بذلك، فيغضب ويقول إن علي أن أهبه جسدي فهو زوجي ومن حقه أن يستمتع وينتشي، ثم ما الفرق بين طريقة وطريقة، فهذا ثقب وهذا ثقب.

لم أتوقع في حياتي أن يقول لي أحد هذه العبارة: هذا ثقب وهذا ثقب، وما أنت سوى ثقبين، فرج وشرج، وأنا زوجك – مالكك – أتنقل بينهما كما أريد، فهذا حقي. كنت في تلك الفترة متشنّجة حتى الحدود القصوى من التوتر ومن تلك النقاشات المُقرفة المُهينة بيننا، ووجدتني ألجأ لصديقتي المتزوجة منذ سنوات، أردت أن أعرف منها ما طبيعة الزواج، ماهية تلك المؤسسة المُباركة اجتماعياً، ولم أشأ أن أحكي معها صراحةً عن مشكلتي مع زوجي الذي أسمّيه في سري بالغريب، ظلت روحي موصدة ضده، كان أنانياً وبخيلاً بطريقة مُخجلة ويبرّر بخله بأن عليه أن يكون مُدبراً واقتصادياً. ولم يكن يشعر أن عليه أن يبذل أي جهد لاستمالتي، لم يكن يفهم معنى الحميمية والمودة ومتعة المشاركة، فالزواج بالنسبة إليه مثل عقد شراكة بين مُتعاقدين، بشروط معينة، ولم يكن للعاطفة أي وجود

في حياته بل كان يسخر من الأشخاص العاطفيين ويتّهمهم بالغباء لأنهم ينقادون إلى عواطفهم. المقدمة المُحكمة التي بدأت بها كلامي مع صديقتي انهارت بلحظة، ضحكت صديقتي المتزوجة منذ سنوات وقالت لي: يا عيني كوني صريحة ولا تلفي وتدوري، تريدين القول إن زوجك يطلب منك من وقت لآخر أن يمارس معك الجنس من الخلف أليس كذلك؟ هوى قلبي وتلعثمت، لم أستطع أن أرد بحرف، قالت: معظم الرجال هكذا، صدقيني. رفعت إليها عينين مذعورتين، لكنها ضحكت وقالت: لا أخفيك أنني جنّ جنوني حين طلب مني زوجي تلك الممارسة التي لا أطيقها، لكنني أذعنت بالنتيجة كي لا يحوّل حياتنا وحياة أطفالي إلى جحيم، واتفقنا أن فقط يومين في الشهر أسمح له بتلك الممارسة، والحمد لله قبل بشروطي. كنت أحدّق فيها مذهولة والغثيان يطوف من أعماقي ولا أعرف كيف استطعت أن أصوغ تلك العبارة: ولكنك لا تريدين، بل تشمئزين من تلك الممارسة، فكيف سمحت له!

ردّت ببساطة: أوف يا صديقتي، هيك الزواج، يحتاج لتنازلات حتى تستمر الحياة، جسدك لا يعود ملكاً لك بعد الزواج، صدقيني هذه هي الحقيقة، وكل من يتبجح ويقول غير هذا الكلام مُنافق، تصوري حين كنت أرفض الإذعان لطلبه كان يمنع المصروف عن أولاده ويستحيل

إلى شخص عدواني ويقاتل ذباب وجهه كما يُقال، فلم أعانده، أتركه يمارس تلك الممارسة المُقرفة لمدة ربع ساعة وبعدها أكسب راحة أسرتي لأسابيع. وضحكت كما لو أنها تريد أن تثبت لي بضحكتها بأنها امرأة حكيمة. ولكني سألتها كما لو أنني أسأل نفسي: ومشاعرك وأحاسيسك؟ ردّت بضحكةٍ مُجلجلة: مرحبا مشاعر، مرحبا أحاسيس، نصيحتي لك في الزواج هناك حقيقة واحدة مقدسة، الأولاد. أنا لا أريد لأولادي أن يعيشوا ممزقين بين أبوين مُطلقين. يبدو أنني لم أعد أتعرف نفسي حقيقةً، عصفت بي عاصفة ضحك مجنون، وبصعوبة تمكنت من وضع فنجان القهوة دون أن تندلق محتوياته على الطاولة، صار بطني يؤلمني من شدة الضحك ووجدتني آخذ نفساً عميقاً كي لا أختنق بلعابي بسبب عاصفة الضحك، كانت صديقتي المسكينة تتأملني مبهورة متعجبة من ضحكي بلا سبب، وأخيراً تمكنت من النطق بعبارة: ما في مشكلة حقاً، هذا ثقب وهذا ثقب. جاملتني بضحكة صفراوية، لم أعرف أنني طعنتها طعنة قاتلة في كرامتها، لكن عذري أن الجريح والمُتألم لا يستطيع مؤاساة من يملك جرحه.

خرجت من عند صديقتي وأنا أشعر أنني عمياء، وأن ثمة جرحاً طرياً نازفاً في روحي، كنت ً أحتاج إلى وسيط ليصالحني مع نفسي ويُنهي الصراع الدائم في

أعماقي، زواجي أزمة نفسية وجنسية تتفاقم، أخشى من مواجهة نفسي بأنني غير سعيدة وغير راضية مع هذا الرجل الذي اسمه زوجي، منذ زواجي به صرت أرمق نفسي طويلاً في المرآة كما لو أنني أتعرف إلى امرأة مجهولة.

مشيت كالهائمة في الشارع، أتسكّع، ترصد عيناي النساء... نساء، نساء في كل مكان، وأنا واحدة منهن، أجسادنا طرية، طيّعة، ناعمة، أجسادنا ليست لنا، وجدتني أفكّر بهؤلاء النسوة ترى هل يرضين أزواجهن؟ هل ينفّذن كل رغبات الزوج؟ ترى هل لديهن رغباتهن الخاصة؟ هل يعبّرن عنها؟ شعرتُ أن روحي لا تزال عذراء رغم افتضاض عذرية جسدي، أشعر أنني لم أهب زوجي روحي، لا أزال أعيش داخل شرنقة عذريتي، منيعة عن التواصل معه، هل كنتُ جاهلة بأعماقي ورغباتي؟ وأحس بقلق وتشوش كلما فكرت في سبر أعماق روحي، أشعر أن ثمة مناطق مُعتمة وغامضة في روحي لا أعرف كيف أضيؤها. لم تكن لي تجارب هامة في عالم الرجل، فقد تربيت تربية صارمة ومحافظة، وكنت كمعظم الفتيات أؤمن أن حياتنا الحقيقية ستبدأ بعد الزواج وأن كل ما نعيشه هو تهيئة للدخول إلى القفص الذهبي. وكنت أعيش صراعاً شرساً مع روحي: هل جسدي ملكي أم ملك زوجي؟ هل يحق له كزوج أن

يضاجعني كما يريد؟ وربما لكثرة تكراره عبارة: كل شيء مسموح بين الرجل وزوجته، ولا توجد أي تحفظات، فقد بدأت أوبّخ نفسي بأنه مُحق وأنني المتزمتة والمُعقّدة. كان يمارس علي هيمنة جنسية واستعباداً جنسياً منتفخاً كطاووس وهو يستعرض غرامياته أمامي، حتى أنه حدثني عن بعض عشيقاته كن يطلبن منه أن يُضاجعهن من الخلف. كنت أسمعه وأنا أحس باحتقار وقرف، وأسخر منه بيني وبين نفسي لاعتقاده أنه بهذا الكلام يثيرني جنسياً.

قبلت، الأصح أنني أذعنت لرغباته، وحين ولجني من الخلف صرخت من الألم الفظيع وأحسست كم انتهك روحي وجسدي، في تلك اللحظة تمزقت عذرية روحي وتشوهت، وعرفت رغم ألم الذل والمهانة أن تلك الحادثة ستترك ندبة لن تُمحى من ذاكرتي. كان لهاث شهوته يلفحني كبخارٍ حارق، وأنا أحاول أن أتملص منه كما تحاول فريسة النجاة من الفخ، وبدأت نوبة هيجان من الغضب تصيبني وأنا أصرخ: ماذا تفعل، لا أريد، ابتعد عني... لكنه لم يكن يسمعني، كان مثاراً بلذته، وحين انفصل عني شعرتُ أنني حطام من الألم والخزي وقرفت من نفسي لسماحي له بتلك الممارسة المقززة، وتركني في ذهولي وانهياري وسمعته يدندن بأغنية

وهو يستحمّ، ثم اتجه إلى المطبخ ليأكل، ليتوّج متعته بالطعام.

عشت أياماً متقززة من تلك الممارسة الشاذه، وشعور بالاتساخ والدنس يلازمني، كنت بحالة من الوهن والضياع لدرجة أن دموعي كانت تنهمر دون أي سبب كما لو أنها تنسكب، دون أن يرفّ لي جفن، وكنت أبكي وأنا أردّد كلمات مضطربة دون تفكير: كم أتوق للطهارة، كم أتوق للطهارة، ولم يكن لي من معين، ولا صديقة أفاتحها بألمي. وأكثر ما أشعرني بالإهانة أنه لم يهتم بي، لم يسألني حتى لماذا انزعجت، ولماذا تقززت، كان يؤمن أنه مارس حقه الطبيعي، ولكنني لم أستطع أن ألتزم الصمت فانفجرت به بعد أيام أعاتبه: ألا يخطر ببالك أن تسألني عن مشاعري؟ ألم تلمس قرفي واشمئزازي من تلك الممارسة؟ لكن – ولتكتمل دهشتي – ردّ علي ببرود بأنني ضحية تربية متزمته وصارمة وأنني، كمعظم النساء في عالمنا العربي، لدي خوف وإحساس بالإثم من الجنس، لذا فإنني مُعقّدة جنسياً وعلي أن أسترخي وأعيد النظر بتركيبتي النفسية والعاطفية، وأنني يتوجب علي أن أتحرر من مفهوم الإثم والخطيئة، وأن للّذة طرقاً عديدة ولا يوجد حلال وحرام في العلاقة الزوجية.

كنت أصغي إليه مدركةً تأثيره علي، أشعر أنني واقعة في قبضته، عارفة أنني لا أملك قوة حججه، بل كنت أميل إلى الاعتقاد بأنه على صواب وأنني معقّدة فعلاً، وأنه على حق، فأنا ليست لدي أية خبرة جنسية، إنه الرجل الأول الذي أمارس معه الجنس. كنت أشعر وأنا معه أنني مهددة في جوهر كياني، وأن هذا الرجل سيعيد تشكيلي كما يشتهي، وسيفكّكني قطعةً قطعة ويعيد تركيبي كما يريدني أن أكون. كنت أشعر وأنا معه أنه يُفرغني من طاقتي الحيوية كما يفرغ كيساً من محتواه، لقد أعماني عن رؤية أعماقي وجعلني أشكك بشخصيتي الهشة غير الناضجة والخام، لقد نجح في جعلي أرى نفسي بعينيه، استعبد روحي وجسدي وحوّلني إلى ما يريد أن أكون، لدرجة صرت حين أقف أمام المرآة لا أشعر أنني أنا، بل أشعر أنني زوجته. صار إحساسي بذاتي أنني الزوجة ولست نفسي.

ماذا حل بي؟ وما مقدار الخراب الذي حصل في أعماقي؟ كنت مشوشة وتائهة وضعيفة إلى درجة أنني لم أعرف تحديد حجم المشكلة أو الأذية، هل هي خطيرة أم بسيطة؟ أحس أنني أهوي دون أن أسقط وصوته الواثق يقول لي: حبيبتي، خذي الأمر ببساطة، هذا ثقب وهذا ثقب، وكل المتزوجين يمارسون الجنس بطرق عديدة، فلا تكوني متزمته. لقد كسر أناقة روحي،

واغتصبني، وأرغمني ألاّ أكون كما أريد، وصرت يوماً بعد يوم وأنا أعيش معه أشعر طوال الوقت بأنني أشبه الأرض المحروقة، ولا أعرف لماذا تشبثت بهذا الإحساس. ومع الوقت لم أعد أعي ذلك الصدع الكبير في أعماقي، أصابتني حالة عبثية، فلتستمر الحياة ولتمر الأيام كيفما اتفق. ونجحت في ابتكار حالة من الغيبوبة وهو يضاجعني، كنت أخدّر عقلي وأنأى بروحي بعيداً عنه، تاركةً له مجرد جسد، وثقبين، هكذا اختزلت نفسي في علاقتي معه، ثم بدأت أجري اختبارات وتجارب على نفسي إذ أجبرها أن تشعر باللذة، لكنني أدركت أنه لا يمكن لامرأة تشعر بالمهانة والاستعباد الجنسي أن تشعر بأية لذة. وبدأت مرحلة تأملية محاولةً سبر جوهر اللذة والغريزة، واعترفت أن الغريزة وحش لا يمكن مقاومته إذا انفلت من عقاله. لقد عشت مع زوجي وأنا أمارس أعلى درجات فن خداع الذات، وصرت أذكّر نفسي بأن قطار الزواج كاد يفوتني وأنه زوج صالح يحبني ورجل طموح، وأن من الطبيعي أن أؤسس أسرة وأنجب أطفالاً، أليس أفضل من أن أعيش عانساً؟

لم يكن فن خداعي لذاتي بقبول الممارسات الجنسية الشاذة من زوجي ليصمد دون دعم أقوى شعور تتوق إليه المرأة: الأمومة. كنت أتلهّف للحمل، لأعطي ذاتي

لطفل هو وحده قادر على أن يعيد لي طهارة ونقاء روحي التي عهّرها زوجي بدنس شهواته الشاذة. الطفل طهارة ونقاء وفرح، الطفل شفاء، شفاء، وحين عرفت أنني حامل بكيت بصمت وأنا أشعر أنني أستعيد روحي التي ضيّعتها أو خذلتها، كنت أهمس لنفسي: سوف أشفى، سوف أشفى.

***

حين أحاول حصر ذاكرتي في ذلك اليوم الذي ولدت فيه ابني وسام، أعجز عن تذكر شيء، كل شيء فيّ يصمت، حتى ذاكرتي الانفعالية تتعطل، أخجل من نفسي وأتعجب! ألا يُفترض أن يكون هذا اليوم أهم أيام حياتي، يوم تحولت إلى أم، يوم وُلدت ولادة ثانية، فما بالي كلما نزحت إلى ذلك اليوم كل شيء فيّ يستقر أو يغرق في الصمت. أشعر بصمت مقدس يستقر شيئاً فشيئاً في داخلي، كما لو أن الحياة ولدت من الصمت، وكما يستيقظ إنسان من التخدير ويستعيد وعيه بالتدريج، أجدني أشعر أنني لم ألد وسام في ذلك الصباح الخريفي في العاشر من تشرين الأول، بل أنا نفسي وُلدت من رحم كوني، ما أن سمعت صوته الموجوع الصارخ بقوة حتى أحسست أنني أعبر من ضفة إلى ضفة وأنني لم أعد أنا، وكنت أشعر بدفقات

النزيف المتدفق من رحمي تطهرني من كل الدنس الذي أحسسته وعشته مع زوجي. الولادة الحقيقية هي ولادة مزدوجة، الأم تلد الطفل، والرحم الكوني للوجود يلد الأم، يُحول المرأة من هيولى إلى منجم حب، وحين وضعوا كتلة اللحم الساخنة النابضة على صدري سالت دموعي من الوله، من الشغف، من تفجّر خزان هائل من الحب لهذا الصغير، أرهقني اصطخاب مشاعري، ومددت يدي ألمس رأسه الطري والزغب الناعم الذي يغطيه، أغمضت عيني فيما الدموع تنسكب منهما بسلاسة، وأردت أن أراه بروحي، تحسسته كما يتحسس مؤمن أيقونة يرجوها أن تخلصه من مأساة وجوده وآثامه، كان منطوياً على نفسه، دافئاً على نحو غريب، لم يكن دفؤه يشبه أي دفء عرفته، دفؤه جعل روحي الموحشة الفاترة تغلي بالمشاعر العاصفة من الحب والوجد، لم يكن زوجي حاضراً في خيالي أبداً ولم أشعر على الإطلاق أننا شركاء في الخلق، كان وسام ابني وحدي، وضحكت من كل قلبي وأنا أمازح نفسي بأنني أنجبته من الروح القدس، وحين أخذوه من أحضاني ليغسلوا جسده من الغلاف المخاطي اللزج الذي يغلّفه أحسست أن روحي تغادر صدري وتلحقه وتقف إلى جانبه كتعويذة، ورأيت ما ستكون عليه حياتي، عرفت تماماً أن قدري سيكون أن نعيش أنا وابني معاً، في لحمة لا

تنفصم، وأن ذكر النحل سيموت، فقد انتهى دوره. كنت قد صممت على الطلاق في اللحظة التي ولدت بها ابني، لأنني يستحيل أن أقبل أن أعهّر جسدي مع رجل حتى لو بارك المجتمع والدين علاقتي الشرعية به، حتى لوكان اسمه زوجي وبيننا عقد نكاح، نكاح مزدوج، ثقب من الأمام وثقب من الخلف، يا للقرف، يا للخزي، كيف! كيف قبلت! كيف قبلت أن أعهر نفسي؟! وكيف أقنعت نفسي أن للزوج الحق في استعمال جسد زوجته كما يشتهي؟ من غرس فينا هذه الأفكار والمفاهيم؟ من جعلنا – نحن النساء – نؤمن ونعتقد أن جلّ أهميتنا وجوهر وجودنا هو إرضاء الرجل، وأن المرأة التي لا ترضي زوجها يُعاقبها الله. حين أتذكر يوم ولدت وسام لا تحضرني صور واضحة ولا أحاسيس قوية، كل ما أعيه أن حياتي بدأت في تلك اللحظة. لا يُمكن للطهارة والدنس أن يجتمعا في شخص واحد، ابني طهّرني من دنس زوجي، ابني هو الطهر وزوجي هو الدنس، وأنا كنت غارقة في وحل الدنس إلى أن أتى ابني وطهّرني بنقاء الطفولة وقدسيتها، ولكنني عشت حالة من التشوش الذهني الشديد إذ أن أكثر شخص أعبده وأحبه هو ابني، وأكثر شخص أحتقره وأكرهه هو والده. بدت لي تلك الحقيقة مُعذّبة وغير مُحتملة، كما لو أنني ممسوسة بالشيطان ومُباركة من الله في الوقت ذاته.

كان ابني يجسّد لي أفضل ما فيّ، وزوجي يجسّد لي أحقر ما جرّني إليه، وأنا بين شخصين، أحدهما يجرّني إلى النقاء واحترام الذات والكرامة، والآخر يجرّني إلى وحل الدنس والكآبة واحتقار الذات. لم تكن رغبات زوجي الجنسية الشاذة هي ما نفرّني منه وجعلني أفكر بالانفصال عنه، بل لأنه كان لا يحس إلا بنفسه، كان نرجسياً بامتياز وأنانياً على نحو مقرف، وميت الروح، لم يكن يشعر بحزني وتعبي ولم يستطع يوماً أن يلامس روحي، كان يرى كيف أخرج أقراص البنادول من حقيبتي وأتناولها ولا يسألني ما الذي يؤلمك؟ ولماذا تكثرين من تناول الأدوية المُسكنة. كنت أتعجب من قلة إحساسه، لكنني أدركت فيما بعد سذاجتي، فمشكلته الحقيقية ليست مجرد قله إحساس بل سادية صريحة، كان رجلاً سادياً يتلذذ بآلامي وآلام الآخرين، وعرفت فيما بعد أنه كان يسكن مع أحد أصدقاء الدراسة في شقة يتقاسمان أجرتها، ولم يستطع صديقه تحمله أبداً، لقد هجّ ذات يوم تاركاً مبلغاً من المال هو ما يترتّب عليه دفعه من إيجار الشقة، لأنه لم يعد يتحمل الطريقة المُهينة والتحقير والسخرية المستمرين اللذين يعامَل بهما من قبل صديقه.

وبعد سنوات من طلاقي، وحين أمكنني أن أداوي تعهر روحي، أمكنني أن أدرك أن غايته الحقيقية من

ممارسته الجنسية الشاذة معي كانت على الأغلب بهدف سحق روحي وكسرها وتمريغها في ذلّ المهانة والاستعباد النفسي والجنسي اللذين لا ينفصلان عن بعضهما البعض. وأنا متأكدة أن تلك الممارسة الشاذة كانت بهدف سحقي ودفعي إلى الانهيار النفسي أكثر بكثير من متعته الجنسية الصرفة. لم يكن يمتلك سوى موهبة واحدة هي قدرته على إتعاس الآخرين وإشعارهم بالدونية عن طريق السخرية المُبطّنة منهم والتقليل من شأنهم، لم يكن يمتدح أحداً بل كان يقهقه ضاحكاً من أقوال وتصرفات المقربين منه ومن يسمّيهم أعزّ أصدقائه. لم أشعر يوماً أنه أعجب بتصرف قمت به أو بكلام قلته، وكنت أشعر طوال الوقت وأنا معه تحت سقف واحد أنني أبذل جهوداً جبارة لأحمي نفسي منه، لأعالج ذلك الخوف الغامض والمُبهم والمطمور – وقتها – في لا وعيي منه، إذ أنني لم أكن أدرك حقيقة الأذى النفسي الذي يسببه لي، كانت كل مشاعري مدفونة في الصمت والإنكار وأحاول تفسير أحاسيسي السلبية تجاهه بأننا ككل زوجين يحتاجان إلى وقت كي يتأقلم كل منهما مع شخصية شريكه. كنتُ أفكّر كما يُفترض بي أن أفكّر، كما قولبوني ووشموني بختم المجتمع والكيفية التي على الزوجة أن تفكر فيها.

ماذا يعني أن أتحول إلى أم؟ سؤال كنت أطرحه على نفسي كل يوم وأنا أرى تلك المرأة التي كُنتها كيف تتبدل، كنت أشعر أنني أتمدد كما لو أنني معدن يتمدد بالحرارة، أشعر أنني عثرت على مستوى أعلى لغاية وجودي في الحياة، وأحياناً أشعر أن كوني أم يعني أن لا شيء في العالم يمكنه أن يهزمني، والغريب أنني كنت أحس – لا أعرف سبب هذا الإحساس – أنني منتصرة، وأحس بنوع غريب من الطاقة والنشاط والحيوية كما لو أنني مُحصّنة ضد التعب. لم يعد وجودي وحده مُكرساً لابني فقط، بل إحساسي بذاتي ما عاد ينفصل عن إحساسي به، ما عُدت قادرة أن أفكر بنفسي بمعزل عن حبيبي الصغير. وكثيراً ما كنت أنفجر بضحك بدون سبب لمجرد أن السعادة تطفح مني، لأنني ارتقيت إلى أعلى مستوى يمكن أن تحققه امرأة، نلت وسام الشرف، فأنا أم. كنت أضمه إلى صدري وأنصت إلى أنفاسه الخافتة فأشعر كيف أتحول إلى حب سائل كما لو أنني أذوب، وصارت حياتي قبله مُغلفة بضباب، صارت بعيدة وباردة ولا تأثير لها علي، لم أعد أخشى الاكتئاب ولا الوحدة، ولم أعد أفكر بالموت، كم كنت أرتعب من فكرة الموت وكيف سندفن في قبر ويأكلنا الدود، صرت أسخر من الموت فأنا أملك أقوى قوة في العالم، قوة قلب أم. كنت أعي بدقة ووضوح كيف أن حبي لصغيري أكبر

مني، كما لو أن نعمة إلهية انسكبت علي وجعلتني أكبر من طاقتي وحدودي ورسختني أكثر في الوجود، الوجود الذي ما كان ليكون لولا طاقة الحب الجبارة. كان ضعفه واعتماده الكلي علي يجعلني جبارة، لم يعد الرجل غايتي وهاجسي بل الطفل، وصرت أحب الحياة أكثر وأجدها رائعة من أجله ولأنني أراها من خلاله. أحياناً كنت أبكي وأنا أتأمله نائماً وخيط من لعابه الشفاف يسيل من فمه، وحين يفتح أصابعه الصغيرة ويُعيد إطباقها أشعر أنه نجح في الإمساك بقلبي، وأستمتع إذ أتخيل أن قلبي أشبه بكرة صغيرة يمسكها بيده عارفاً بغريزته أنني أعبده. لكن ظلت تلك الحقيقة تؤلمني وتُشعرني بالفصام، فكيف أعبد طفلاً أكره أباه وأحتقره كل هذا الكره والاحتقار.

طفل صغير أعاد لي وجهي الحقيقي الذي شوهه رجل، طفل صغير يقدر من حيث لا يدري أن يبدع مُعجزات ويشفي روحي المُضطربة التعيسة. علي أن أتحدث بنزاهة تامة عن تلك المرحلة التي أعقبت ولادتي لابني. في الواقع لم أكن أفكر بالطلاق جدياً، كنت آمل أن يستطيع الصغير أن يغير في روح والده الأناني البخيل والسادي، كنت آمل أن يتغير زوجي ويتأنسن وتُعجن روحه بالمحبة والحنان والرأفة، أن لا يصرخ بي مُعنفاً وموبخاً كما لو أنني خادمة تجاه أقل

هفوة أو تصرف أقوم به ولا يُعجبه، كنت آمل حتى أن يخجل من ميوله الجنسية الشاذة وإرغامي على تلك الممارسة مدعياً أنها عادية بين الأزواج وأنها حقه. لم أعد أقبل ولا بأي شكل من الأشكال أن يكون له حقوقاً على جسدي. جسدي ملكي. وما أن جهرت بتلك العبارة حتى تنمّر وغيّر الانشداه وجهه، ونطق ببساطة كلمة "طلاق". يومها نظرت إليه مذهولة ووجدني أهمس كأنني أخاطب نفسي: والطفل، ألا يجب أن يعيش آمناً في أسرة؟ ردّ باستخفاف وتعمّد أن يضرط كي تكون إهانته لي في أوجها وقال: لا يناسبني أن أعيش مع امرأة مُعقدة مثلك. كنت مصعوقة من هول قسوته، من روحه الميتة، أجل هذا ما اكتشفته في تلك اللحظة، فزوجي ميت الروح، ورجوته أن يفكر قبل أن يقرر الطلاق، كنت أحاول أن أدافع عن ابني، عن حقه بأن يعيش في بيت آمن، بأن يقول بابا وماما، ولكن زوجي لم يكن يبالي، بل أراد أن يستعمل ابنه كسلاح ليطوعني أكثر ويكسرني، لقد أدرك كم أعبد هذا الصغير فصار يساومني إما أن أقبل أن أكون عبدته أو يطلقني، وأظنه سيبقى مصدوماً حتى آخر يوم في عمره حين أعلمته بقراري: الطلاق. لا أنسى نظرته المذعورة وقتها، نظرة من يتوقع شيئاً ويحصل عكسه، مشكلته أنه لم يتوقع أبداً أنني قادرة على التحرر من وطأة سلطته علي،

طوال ثلاثة أعوام كان يستمتع بانتصاره علي، بأن يجعلني أذعن لما يقرر ويرغب، واعتقد أن وجود طفل سيربطني به أكثر وسيعزز من استعباده لي. لكنني حين صارحته أن قراري هو الطلاق لأنني أرفض أن أعيش معه كالسابق، نظر إلي بحقد جعلني أرتجف كما لو أنني تنشقتُ غازاً ساماً وقال: هل أنت بكامل قواك العقلية؟ هل تعنين ما تقولين وما الذي ينتظر مُطلقة في مجتمعنا. لم أجب. استفزّه صمتي، فاقترب مني وأمسكني من كتفي بقوة وهزني كما لو يرغب بخلع كتفي وقال: أتتحدينني؟ فلم أجب. كنت أعرف أن أية كلمة سوف أتفوه بها سيستخدمها لسحقي وإذلالي، لكنني لم أتوقع أن صمتي سوف يطيش صوابه، ولم أعرف كيف نبتت له مئة يد وكيف أخذت الصفعات الوحشية تنهال علي، في الغرفة التي تضم الصغير الذي أخذ يبكي مذعوراً حتى ازرقّ لونه من شدة البكاء. كان وحشاً جن جنونه، وبصعوبة تمكنت من التملص منه، من انقضاضه الوحشي علي بالضرب، كنت متأكدة أنه يتمنى لو يقتلني، لو يمتلك القليل من الشجاعة لخنقي، وجعلني خوفي على صغيري أسكت وأبتلع دموعي وأنا أتحول إلى صلاة، كنت في تلك اللحظات وصفعاته الوحشية تنهال علي أعي تلك الطاقة الروحية التي لا تُهزم والتي صرت أملكها. كنت أتبخر حباً كغمامة تحيط

بالصغير وأهمس في إذنه ألا يخاف وأنني أعبده وسأحميه وسأهديه عمري.

الطلاق

كم أجد متعة ومغزى أنني تحولت إلى امرأة مطلقة وأنا في الثالثة والثلاثين، وأصرّ على استعمال كلمة تحولت، لأن المجتمع يُصرّ أن يضع المُطلقة في خانة معينة، أهم ما يُميزها أنها في مرتبة أدنى من بقية النساء، وأنها فاشلة ومُعاقة، وربما سلوكها مُريب وإلا لما طلقها زوجها. وجدت نفسي امرأة وحيدة مع طفل عمره شهرين، مُطلقة ومنبوذة ويرشقني معظم الناس حولي بنظرات تحقيرية دونية، وبعض الرجال يغمزونني بكل حقارة ووقاحة كما لو أنهم يدعونني لممارسة الجنس لأن المطلقة لا تملك أية حصانة، ولأنها تعاني من حرمان عاطفي وجنسي وسوف يتصدق عليها بعض الرجال بإشباعها جنسياً. كنت أقرأ الأفكار من خلال النظرات، وبدا لي رقم ٣٣ رقماً بالغ الأهمية، هو عمر المسيح لمّا صُلب، وأنا كنت مصلوبة في تلك الخانة التي سجنني بها الناس حولي، اختزلوني في صفة امرأة مطلقة، حتى أنني لا أنسى ذلك اليوم وكنت أشتري حليباً لابني وسمعت رجلين يتهامسان بصوت أرادوا أن أسمعه: من تكون تلك المرأة؟ ردّ الآخر: إنها المُطلقة فلانة. كان طليقي قد سافر إلى الكويت بعد أن وُفّق بعقد عمل في

وُفّق بعقد عمل في بنك، كانت لديه خبرة في المحاسبة والتجارة، إذ يحمل شهادة في الاقتصاد، وقبل سفره أراد أن يلقنني درساً لا أنساه، وفعلاً نجح في جعل ذلك اليوم لا يُنسى. كنت أترك ابني عند خالتي الأرملة لتعتني به حتى أعود من عملي في الجريدة، إذ كنت موظفة في الجريدة الرسمية، وكنت أمر ظهراً لآخذ ابني ونعود إلى منزلنا الصغير الآمن، حيث أقضي كل وقتي مع الصغير أتحدث إليه كما لو أنه يفهم ما أقول، وكنت أحس أنه يفهم كل كلمة أقولها، كان ابني شفائي، وعالمي وسعادتي، ولكن كان يحرك في أحشائي ألماً حارقاً إذ أعي كل لحظة أنه بدون أب، وأتعجّب من قسوة قلب رجل يترك ابنه ويسافر ولا يكلف نفسه أن يسأل عنه أو يرسل له مالاً رغم أن المحكمة حكمت له بنفقة شهرية لابنه، لكنه سافر ولم يبالِ بقرارالمحكمة. في ذلك اليوم الذي أراده زوجي يوماً لا يُنسى، كنت أحمل صغيري، وأمسك عدة أكياس من المشتريات، وما أن وضعت المفتاح في القفل حتى ضعقت، كان قد غيّر القفل، واضطررت للجوء إلى الجيران الذين أبدوا دهشتهم، ولم يصدقوا في البداية أن طليقي قد اتفق مع رجل سافل مثله لتغيير القفل ولبيع غرفة النوم وأثاث الصالون وغرفة الطعام المكونة من طاولة وثمانية كراسٍ من خشب الزان، كنتُ قد اشتريتها من

صديقة لي رجعت من موسكو وأرادت أن تبيع الأثاث الذي جلبته معها. وجدت البيت فارغاً من كل شيء، الأثاث، السجاد، وحتى الستائر، ولم يترك لي سوى سرير الصغير، وصوفا عتيقة كنت أستعملها لوضع الأغراض والثياب غير اللازمة في صندوقها، وحين دخلت المطبخ فوجئت أنه باع الغسالة أيضاً، تاركاً لي البراد فقط، وحتى فرن الغاز بالرؤوس الستة قد باعه واستبدله بفرن من عينين فقط. وجدتني مصعوقة في هذا الفراغ الجحيمي الموحش، والشاب الذي فتح لي الباب ووضع قفلاً جديداً ينتظر أجرته، والجيران يتفرجون علي بشفقة وبالحد الأدنى من التعاطف، لعلهم فكروا بأنني امرأة عاقة وسيئة حتى انتقم مني زوجي بتلك الطريقة. كان تعاطف الجيران معي يُقززني إذ كنت أحتقر وأشمئزّ من الشفقة، لم أجد سوى الشفقة العفنة في عيونهم، حتى أن بعض الجارات صرن يقلن: مسكينة على حظك التعيس؟ اللّه يساعدك، كيف تتحملين كل هالمصائب؟ ورغم انهياري في ذلك اليوم أمكنني أن أحس بمتعتهم وهم يرون امرأة منهارة وقد عاقبها زوجها أحقر عقاب إذ باع أثاث المنزل وغيّر القفل. كنت أبكي وأصرخ وصغيري يبكي ويرتجف مذعوراً. في ذلك اليوم أيضاً جفّ حليبي تماماً ولم أعد قادرة على إرضاع طفلي حناني الممزوج بحليبي، ولكن

رغم انهياري وتلك الجمهرة من الجيران حولي، استطعت أن أتلمّس طريقاً جديداً، طريقاً أشبه بشعاع نور يشقّ الظلام نصفين رغم نحوله، أمكنني أن أرى واقعاً آخر غير الواقع الذي أعيشه والذي يذلني ويضطهدني، أمكنني أن أرى أنني أمتلك قوة عاتية في أعماقي سوف تطيح بكل هؤلاء الوضيعين القساة والسفلة، والذين يريدون تكريس دونيتي وتحقيري لأنني دخلت خانة المُطلقات. لم أكن وقتها أفهم لماذا يكره الناس المُطلقات ولماذا يصرّون أن يلصقوا بهن صفات تحقيرية، فالمرأة المُحترمة والمقدّسة هي الزوجة والأم التي تعيش في كنف زوج، أما المطلقة فهي المرأة الناشز، المتمردة، هي التي عصت الأوامر التي سنّها سيدها، أي زوجها، مدعوماً بسلطة القوانين الاجتماعية والدينية. لكن رغم انهياري في ذلك اليوم شعرت أنني أنفصل عن ذاتي وتطلع امرأة من أعماقي تقف وسط الحشد الذي يرمقني بشفقة وتلذذ كما لو أن لسان حالهم يقول: الحمد لله لسنا مثلها، لسنا في وضعها، الحمد لله نحن أفضل منها، الحمد لله أنها في مرتبة أدنى منا، سوف نرشقها بالقليل من شفقتنا فيما نتلذذ لمصابها. تلك المرأة التي طلعت من روحي ووقفت مع الحشد كانت ترنو إليّ بحب كبير، بإعجاب وتقدير، وتعدني بنظراتها المشعّة بالحب والتعاطف

والتي لا تحمل ذرة من شفقة، كانت نظرتها تعدني أنني سأتجاوز تلك المحنة، وأنني سأخلق نفسي بنفسي وأن روحي قوية وحرة ولن يهزمني هؤلاء السفلة الذين يدافع معظمهم عن زوجي بحجة: لو لم تكن سيئة لما طلّقها زوجها وهجرها. المرأة هي المُدانة دوماً. عشت لأيام لا أتوقف عن البكاء وأنا أشعر أن عالمي يتمزق، وروحي مسحوقة بسادية وأحقاد رجل لا يقيم أي اعتبار لابنه. كنت أتأمل البيت الفارغ من الأثاث الموحش والكئيب وأصرخ بصوت يزلزل الجدران: يا حيوان، يا سافل، كيف يمكنك أن تؤذي ابنك؟ يمكن أن أفهم أنك تكرهني وتحقد علي، لكن أن تبيع أثاث البيت لتحرم صغيرك من عيشٍ آمن، كيف تقدر على تلك القسوة الوحشية؟ لم أكن أعرف فظاعة أن يكون المرء سادياً، كان الحيوان – وهذا ما صار اسم طليقي بعد حادثة تغيير القفل وبيع الأثاث – السادي لا يجد مانعاً في أن يؤذي ابنه ويستعمله سلاحاً فقط لتدميري. كل رغبته كانت في تدميري ودفعي إلى الجنون والانهيار لأنني عصيت أوامره، كما لو أنني عصيت أوامر الذات الإلهية. كنت أشعر بالقهر الفظيع الأشبه بقرحة تأكل روحي، أشعر بالحزن يتراكم في أعماقي لأن ابني، الملاك الرائع الذي يبتسم لي كلما قربت وجهي من وجهه، لديه أب حيوان، وكنت أحياناً أشيح بنظراتي

عن نظرة ابني المندهشة دوماً إلى وجهي الذي هو عالمه كله، لاعتقادي أنه قد يفهم نظرتي الحزينة، وكنت أشعر كل لحظة أنني أطلب منه المغفرة لأن والده حيوان، إذ بطريقة ما كنت أعتبر نفسي مسؤولة عن قدره، أن يعيش بدون أب لأن والده حيوان وسادي ومنحط، لأن والده لا يحبه بل يريده سلاحاً لتدمير زوجة تجرأت وقالت لا، ولم تذعن لرغبات سيدها وتاج رأسها زوجها السافل. كنت أرزح تحت أعباء مادية كبيرة، وبدأت مرحلة مستمرة من سحب القروض من المصرف والدخول في جمعيات مع زميلاتي في العمل، وأكثر ما كان يؤلمني أن معظم أثاث المنزل قد اشتريته من مالي الخاص، السجاد والأدوات الكهربائية والغسالة، هو – الحيوان – لم يشترِ سوى غرفة النوم. ولم يعرض علي أحد من المقربين أية مساعدة، كان أبي قد انتقل للعيش مع أخي وأسرته بعد وفاة أمي بسرطان الرحم، المرأة الوحيدة التي كانت ستدعمني بحبها اللامحدود هي أمي، ولم يتعاطف معي أخي أبداً لأن زوجته أقنعته أنني امرأة متمردة ولم أحترم مؤسسة الزواج، وأنه كان علي أن أتنازل قليلاً وأتبدل لإنجاح زواجي، أما أبي فكان مسكيناً لا حول له ولا قوة، وأظنه كان يعرف بمدى الظلم الكبير الذي تعرضت له، لكنه كان يخشى التصريح بأفكاره لأنه يعيش تحت رحمة زوجه

أخي. وأكثر ما آلمني موقف صديقات اعتقدت أن صداقتنا قوية وراسخة كالصخرة، ابتعدن عني وأخذن يتحججن بمشاغل عائلية وانشغالات مع الأولاد والأسرة كي يتهربن من لقائي، لقد صرت امرأة موشومة بعار الطلاق، صرت مثل النعجة المريضة التي تُوسم باللون الكحلي لأنها مريضة، ولا أنسى حسن نيتي وتوقي إلى حدّ الوجع وشوقي العارم لصديقاتي، حين تجاهلت قسوتهن وأرغمت نفسي أن أصدق أنهن فعلاً منشغلات، رتبت البيت بعد أن اشتريت أثاثاً أنيقاً بالتقسيط، وحضّرت مأكولات لذيذة ودعوت كل صديقاتي وأكدت عليهن أن يحضرن وألبست ابني أجمل ثيابه وكنت طوال الوقت أغني مُبتهجةً أنني أبدأ حياةً جديدة وأنني تحررت من سموم الحيوان، وبأننا أسرة رائعة: ابني وأنا، ولبست أجمل فساتيني وسرحت شعري على شكل تموجات عريضة ومازحت نفسي وأنا أتأمل صورتي في المرآة: واللّه أنت امرأة جميلة! لكن في ذلك اليوم، ورغم أن كل صديقاتي أكدن لي أنهن سيلبّين دعوتي، لم تأتِ أيٌّ منهن، ولم تكلّف أيٌّ منهن نفسها بالاعتذار لي، وجدتني أجلس مع صغيري حول مائدة شهية، ولم أستطع أن أبكي لأن القهر قد تصلب في حنجرتي كحصوة كبيرة، ولكن في تلك اللحظة دخلت امرأة جميلة تحمل في يدها كتباً، كتباً ثقيلة،

تنهّدت من التعب ووضعت الكتب على الطاولة، ثم اقتربت مني وقبّلتني بحنان جعل الدموع تنهمر حارقةً من عيني، وقالت لي: أكاد أموت من الجوع، هيا صبّي لي تبولة ويلانجي ورقائق الجبن واللحم، ثم قامت وحملت ابني وأخذت تمطره بقبلات نهمة وتقول بمرح: هذه القبلات اسمها كاسات هوا، حتى أخذ الصغير يبكي من شدة القبلات، فمسحت على رأسه بحنان وأعادته إلى كرسيه الهزاز، في تلك اللحظة حانت مني التفاتة إلى الكتب، كانت المجموعة الكاملة لدوستويفسكي، وحده دوستويفسكي لبّى دعوتي وكان صديقي ومنقذي لسنوات، أعترف بدون مبالغة أن أهم حدث في حياتي في تلك الفترة كانت قراءتي لدوستويفسكي، وحين انشغلت بصبّ المأكولات اللذيذة للزائرة التي هي صورة طبق الأصل عني كانت قد اختفت، ولأول مرة تشعّ ابتسامة النصر من روحي، وعرفت أنني تجاوزت مرحلة الأزمة التي كادت تدمّرني. وضعت ابني في حضني وتأملته بعينين دامعتين من الوله كيف يمصّ الحليب من الزجاجة، وتركته يغفو في حضني، كنت أحتاج أن أبقيه ملتصقاً بي أستمدّ من دفئه وطهره شجاعة مواجهة عالم ظالم جاهل ومُشبع بالأحقاد تجاه المطلقات، ولم أنتبه كيف طلع الفجر وابني غافٍ في حضني وأنا قد قرأت مئتي صفحة من رائعة

دوستويفسكي **الأبله**. تأملت شعاع الفجر المُزرقّ النحيل، ضحكت، ضحكة الشفاء، بل ضحكت لأنني كنت أشعر أن شعاع الفجر طلع من قلبي ولم يأتِ عبر النافذة.

كنا ننمو معاً في المحبة، ابني وأنا، وكنت أشعر تماماً كيف أتغير وأتجدد، كنت أمازحه وأقول له أنت مضاد الاكتئاب، فمهما كنت حزينة ومكتئبة يكفي أن أتأمّله وأن يبتسم لي حتى ينقلب مزاجي من الحزن إلى الفرح، لكنني كنت أشعر دوماً بطعنة في قلبي كون ابني سيعيش بدون أب، وحين بدأ ينطق الكلمات وينادديني ماما، أحسست أنني أنخمص من الخجل والألم وتمنيت لو أعلّمه أن ينطق كلمة بابا لكنني لم أنجح، لم أستطع ولا مرة واحدة أن أنجح في اختبار تحدي نفسي وأن أنطق كلمة بابا أمام صغيري. كنا أسرة وحيدة القطب، أم وابنها، وكنت حين أصطحبه إلى الحدائق العامة ليلعب مع أقرانه، ويراهم غالباً مع أب وأم، لم يكن قد انتبه بعد لغياب الأب، ماذا يمكنني أن أقول لطفل لم يكمل العام من عمره؟ لعله يفهم الدنيا كلها بأنها أم، كنت عالمه ودنياه، ولكن فرحي به ينمو طفلاً سعيداً وذكياً كان مشوباً دوماً بمرارة، وإصراري على أن أطرد صورة والده من ذهني أكبر محرّض على تذكره باستمرار، فحين بزغت سنّه الأولى فكرت بحزن أن

والده لن يراه، وحين أصيب بالنكاف وصار يبكي حين يأكل، غرق قلبي بالحزن وأنا أعي قدر ابني الذي ينمو بدون محبة أب، ولما احتفلت بعيد ميلاده الأول، حيث خطا أولى خطواته وكان محاطاً بالأقارب وأولادهم، والتقطت له عشرات الصور، لم أنم يومها رغم تعبي، كنت أبكي بصمت أنه أكمل العام من عمره ولا يعرف والده.

هل كنت أعاني من عقدة الذنب؟ هل أعتقد أنني مسؤولة إلى حد كبير أن ابني بدون أب، وأن والده من القسوة أنه لا يتصل للاطمئنان عنه، بل على العكس ربما يريد أن يؤذيه، ربما يكرهه كامتداد لكرهه لي. كان يمكن لهذا الوضع أن يكون كارثياً على ابني لولا رغبة أبي أن يسكن معي وأن يشاركني في دفع أجرة البيت، وأظن أن زوجة أخي هي من رتبت لانتقال أبي بحجة أنني مُطلقة ولا يجوز أن أسكن وحدي وأتعرض لأقاويل الناس والشبهات، لكنها في الحقيقة تريد أن تحتل غرفة أبي وتتحرر من خدمته ومسؤوليته. كان أبي رجلاً عطوفاً، لكنه لا يُحب المواجهة، يُفضل التزام الصمت على قول كلام قد يتسبب بمشاكل، كان يكبت كل الإساءات التي توجهها له زوجة أخي ويمتدحها أمام ابنه، وكنت أغضب منه على سلوكه الضعيف هذا وأتعجب من مُبالغته في التحمل، كنت أقول له: كل

الإهانات التي تتلقاها منها، وتقوم بامتداحها، يا أبي على الأقل اصمت. وكان يردّ وعيناه تلمعان بالدموع: لا أريد أن أتسبّب بمشاكل لأحد. لذا فإن انتقاله للعيش معي ومع ابني كان إنقاذاً لنا جميعاً، خاصةً أن صغيري قد بدأ يسأل أين والده؟ وهل لديه أب؟ وكنت أشير إلى صورة لوالده وأقول له: إنه مسافر، وإنني أعبده وأحبه بجنون وأكرّس حياتي له، لم أكن قادرة على أن أردّ على أي سؤال حول والده إلا وأعقّب كلامي بأنني أعبده. أصبح أبي أباً لطفلي بانتقاله للعيش معنا، ولم أتوقع أن يحبّا بعضهما لتلك الدرجة، ثم صرت – أبي وأنا – نخطئ عن غير قصد إذ أقول لابني: أعطِ هذا الغرض لأبيك، ثم أستدرك وأقول: لجدك، وأبي كان يحمل صغيري ويقبّله وهو يقول: يا عيون البابا، وأحياناً يستدرك ويصحح قوله، لكنه صار مع الوقت لا يصحّح زلات لسانه، امتزج مفهوم الأب بمفهوم الجد عند ابني، ونشأت بينهما علاقة متينة إذ صار وسام يُفضّل أن يصحبه جده إلى الحديقة وأن يحكي له القصص، وكان يبكي حين ندخل البيت ولا يراه.

كنت وحيدة، أتأمل حياتي كأنها شخص نحدّق في بعضنا، أشعر دوماً أنني أعيش حياتين أو مستويين من الواقع، ظاهر حياتي مُعافى، سليم، وسعيد، فابني هو فرحي وشعاع النور في حياة قاحلة فقيرة، كنت أغذّي

طموحي كصحفية وأفرض نفسي على مديري الذي كان يقلّل من احترامي لأنني مُطلقة، وكانت ساعات يومي زاخرة بالحركة والنشاط، وأقنعت نفسي أنني متوازنة وسعيدة بين أب عجوز وطفل، كلاهما نعمة وكلاهما بركة، وأنا أحتاجهما ويحتاجانني، واستطعت أن أنشئ صداقات في عملي، وصرت أشارك في نشاطات اجتماعية وثقافية، لكن لم يكن باستطاعة أحد ممن حولي أن يروا كم أنا حزينة في أعماقي، وكيف يترسّب الحزن داخلي يوماً بعد يوم كطبقات من غبار. كنت أحاول دفن شعوري بالفجيعة والألم الحارق أن ابني لا ينادي أباه بابا، وصارت هذه الكلمة كالحرق في ذاكرتي وقلبي معاً، إذ يكفي أن أسمعها من طفل في الشارع أو في مسلسل تلفزيوني حتى أنخمص من وجعٍ حارق يأكل أحشائي. تمرّ الأيام والأشهر والسنوات وابني بلا أب ولم ينطق أبداً كلمة بابا. كم من الليالي ركعت بجانب سريره أنتحب بصمت ووحيدة وأنا أصلي ألا يتأذى من غياب والده، من اختفاء الحيوان، وحين كان أبي وبعض الأقارب يسألونني: ما أخبار والده؟ ألا يتصل به؟ ألا يرسل له مالاً؟ كنت أحس بألمٍ فظيع وأنا أبرطم ببعض الكلمات كي أنهي الحديث بأسرع ما يمكن، كان علي أن أتعايش مع جرح أشبه بشرخ في روحي، فخلف كل حدث ألم. يوم اصطحبته إلى

الحضانة وتركته يبكي ويتعلّق بأذيال ثوبي ويقول: لا تتركيني ماما، لكنني طمأنته أنه سيكون سعيداً في الحضانة، يومها مشيت في شوارع وأزقة بدون هدف، أتسكّع والدموع تنهمر غزيرةً من عيني، كنت أفكر أن ابني بلغ الخامسة من عمره ولا يعرف أباه، وأنه بدأ مرحلةً جديدة في حياته ودخل الحضانة ولا أب. ولم أكن أسمح لأحد أن يرى أعماقي المشروخة، بل كنت أعطي انطباعاً عكسياً لحقيقة ما أشعر، إذ أبدو سعيدة بحياتي مع ابني، وكانت نوبات عاصفة من الحقد والغضب تسمّمني وأنا أفكر: أي قدر جمعني مع رجل سادي بلا قلب، لا يبالي أن له ابن؟ كنت أعصر عقلي وأستفزّه لأفهم نفسية هذا الرجل، وكيف لا يحنّ إلى ابنه من لحمه ودمه، كيف يتخلّى عنه ولا يشعر بمسؤولية تجاهه، وهل يكرهني لدرجة أنه يريد سحقي وتعذيبي بأحقر وسيلة في العالم، أن يظل قلبي محترقاً وحزيناً على ابني الذي بكبر سنةً تلو سنة بدون أب؟ هل هنالك أحقر من هكذا انتقام؟ الإنسانة الوحيدة التي كانت تملك قلباً وضميراً في عائلة طليقي هي أخته، كانت تحسّ بالخزي من موقف أخيها وتحدثني عن قسوته وشراسته، وباحت لي كم كان يعاملها بقسوة ويقاطعها لأشهر إذا تكلمت كلاماً لا يعجبه أو اعتبره يمسّ بكرامته، وحدها كانت تحس كم أتألم كون ابني

بلا أب، أب يؤذيه ويريد أن يدمّره بالتجاهل، وكانت تطمئنني أن ابني سعيد ولا خوف عليه من أي مرض نفسي لأنه أصلاً لا يعرف أباه، ولا توجد أية صلة بينهما، وبأن وجود أبي في حياتنا هو بمثابة أب، ثم تنظر إلي بحب وتقول لي: لم أجد أماً تعبد ابنها مثلك، لا تخافي، حبك له أكثر من كافٍ ليكون متوازناً وناجحاً.

كنتُ أتذوق طعم السمعة السيئة التي تحوم حول المُطلّقة، أحسّها كرائحة خفيفة ممتزجة بالهواء، أحسها في نظرة العيون المُتفحصة لكل ابتسامة أو ضحكة أو نظرة تصدر عني، وأكثر ما كنت أحس بالقرف والإهانة عبارات مُبطّنة بنصائح عديدة لكن يُمكن اختصارها جميعها بأنني يجب أن أتصرف كامرأة مُحترمة، ولم أكن أعرف كيف تتصرف المرأة المحترمة التي يتحدثون عنها! نصائحهم بأن أتصرف كامرأة مُحترمة تعني أنني غير مُحترمة ومشبوهة، وأنني يجب أن أركّز كل جهدي من أجل انتزاع احترام الناس، وبدأت حالة غريبة من التفكير بجسدي، كما لو أنني أكتشف أن كياني في جهة وجسدي في الجهة الأخرى، لم أكن أعي أن ثمة فصاماً حادّاً بيني وبين جسدي، لكم أرّقني ذلك التفكير الضبابي المُوجع وأنا أعصر ذهني لأعرف حقيقة جسدي، وكم كنت أئنّ من الكراهية والقرف والاحتقار لزوجي الذي أرغمني على أن أمارس ممارسات جنسية

لا أطيقها لأنني أوهمت نفسي أن جسد المرأة ملك لزوجها، ولأنني تنفست تلك العقلية التي صرت أحتقرها، وأستمتع باحتقارها، لطالما شعرت بدوار من الوهن وأنا أحاول أن أتصالح مع نفسي وجسدي وأن أخلّصه من سموم الزواج، لم أتوقّع أن دنس ذلك الزواج سيظل عالقاً بي لسنوات طويلة وسيلجم رغبتي بالرجل ويحوّلها إلى قرف وكراهية، ولكنني لم أستطع لجم تلك المشاعر العنيفة المصطخبة في أعماقي والتي تريدني أن أحتفي بجسدي وأن أعشق وأمارس الحب مع رجل يجمعني به الحب والرغبة. وفي أعماقي كنت أتمنى لو أمتلك الجرأة لأقوم بنزوات من حين لآخر، لأهب جسدي الملتهب بالرغبات والعواطف لرجل يتوق إلي كما أتوق إليه، ولكني كنت ألجم نفسي إذ يتوجب علي أن أتصرف كامرأة مُحترمة وأن أصون سمعتي من أجل ابني، لم أكن أتحمل مجرد التفكير أنني سأكون ساقطة وسيتغامز أصدقاء ابني ويسمعونه كلاماً مُوجعاً بأن أمه سيئة السمعة، كان علي أن أدفع ثمناً باهظاً وهو التضحية برغباتي الجنسية وعواطفي المكبوتة القوية والتي سبّبت لي الأرق والشقيقة من أجل سمعة ابني وسمعتي، وكم كان أبي يُغيظني حين يكرر الكلام ذاته كل مرة بأن ابني الرائع يساوي كل رجال الأرض، كنت أرمقه بقسوة لأفهمه أنني أعرف إلى ما يرمي بكلامه

وبأنه يقصد أن أصون نفسي ولا أسمح لرجل بلمسي. علي أن أعيش في هذا البلد كمن يقبل أن يُمارَس عليه تنويم مغناطيسي، وأن أتحول إلى إنسانة آلية يملون عليها تصرفاتها – كامرأة محترمة – ويتحكمون بعواطفها وغرائزها ومستوى هورموناتها في الدم، أدركت معادلة العيش في هذا البلد المستبد بأنني يجب أن أضحي بذاتي، بحريتي ورغباتي وأن يكونوا أوصياء على جسدي. وفي قلب الليل وأنا أتمدد وحيدة في الفراش أتحسس جسدي البضّ، الدافئ، التواق للاحتضان، وأعي أية قوة وفرح هي الرغبة، أدرك أن الرغبة أشبه بالنسغ في الشجرة، نسغ الحياة هو ذاته نسغ الرغبة، وأتخيل أن الشهوة وحدها تجعل الأغصان اليابسة تزهر وتتفجر براعمَ أشبه بآهاتٍ من النشوة. لا أعرف لمَ كنت أشعر كلّما تأملت أغصان الأشجار التي كانت يابسة وميتة حين تتفجر بعناقيد البراعم الملونة الملتمعة بالشمس، أشعر أنها تجلّ لآهات الرغبة. ما الحياة سوى رغبة، سوى توق للذوبان في آخر، أكتمل به ويكملني، في قلب الليل ووعيي ينشطر إلى قسمين، قسم يدرك أية طاقة هائلة أضمّ في جسدي الفتي، وأي توق يدفعني للانطلاق في عالم الحب والشهوة والفرح، أي توق يدفعني للحياة، والقسم الآخر من وعيي يدرك تلك القوة المُستبدّة السادية والوحشية القسوة والتي

تشبه وضع العصي في الدواليب لإعاقة أي حركة داخلية باتجاه الحياة. كيف علي أن أتعايش مع تلك اليافطة التي يريدون اختزالي فيها وهي أنني مُقدّسة كأم، ومرذولة ومُحتقرة كامرأة؟ علي أن أقدم لهم شهوتي ورغباتي وعواطفي كي أحصل على مُباركتهم لي كامرأة محترمة. طفلك يساوي كل رجال العالم! يُغنيك عن كل رجال العالم! تحوّلت إلى إنسانة عُصابية أقاوم هيمنتهم ورغبتهم في السيطرة علي، وصار تنفيسي الوحيد عن نقمتي تجاه تلك العقلية هو تلذذي باحتقاري للناس الذي كان يثور في داخلي ويدوم في دوامات أشبه برغبة مريضة حُرفت عن مسارها الطبيعي فصارت حقداً لذيذاً، لكنني كنت أدرك أن حالة السبات التي أعيش فيها سوف تنتهي ذات يوم، وسوف أطوح بكل تلك العقلية العفنة وأنطلق، لم أكن أعرف كيف سأنطلق، ما أحسّه أنني لن أقبل أن أعيش حياتي مُتفرجة على طاقة شبابي تُهدر وتضيع، وعلى عواطفي تحترق في أتون الرغبة، وعلى جلدي التواق للمس والقُبل، لا أريد أن يُهدر عمري وأنا أقف على ضفة نهر الحياة كمُتفرجة، بل أريد أن أكون ملاحة، أن أبحر وأضحك نشوةً من برودة الماء وأن أخاف لحدّ الذعر من احتمال أن يبلعني دوار الماء ويُغرقني إلى القاع. كنت أراقب نفسي كيف يتصاعد إحساسي بحريتي

حتى يمتلكني تماماً ويوحّدني روحاً وجسداً لأصبح بحالة وجد، لأصبح امرأة الوجد والهوى. كنت أدرك عمق حاجتي للذوبان في علاقة حب تشفيني وتساعدني على التخلص نهائياً من دنس زواج كاد يدمرني نفسياً، من سخام زوج لم يكن سوى سمّ في جسدي وروحي، وقد اتخذت قراري أن أكون كما أشتهي وأن أكون سيدة حياتي، لكن خطأي كان أنني لم أدرك أن المجتمع غالباً ما يكون سمّاً أيضاً، يدمّر طاقة الفرح في الروح، كان علي أن أتوازن كما تتوازن ملعقة على حافة كأس، أن أصون ابني وأكون ملاذاً وفخراً له، وأن أعيش طاقة الأنثى التي أؤمن أنها حقي ولا أحد يحقّ له أن يسلبني هذا الحق، وكم كنت أشعر بالألم وأنا أعي التناقض واستحالة تحقيق الانسجام بين الحالتين: الأمومة والأنوثة، كما لو أن الأمومة هي عكس الأنوثة في حالة المطلقة تحديداً، فلكي أكون أماً مثالية علي أن أضحّي برغبتي الجنسية وعواطفي وإلا أتحوّل إلى عار يلحق بابني إلى الأبد. كانت كل القيم مُزيفة في حياتنا، وهذه هي التعاسة عينها، هذا هو تعريف التعاسة: القيم المُزيفة. ووجدتني يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر أغرق في تساؤلات وجودية: لماذا يريد المجتمع قمع الأفراد وخاصةً المرأة؟ لماذا يريد الناس إيلام الناس؟ من أين تأتي تلك السلطة المستبدة

المتكئة على الدين لإتعاسنا وتشويه علاقتنا بأجسادنا وتزوير مشاعرنا وسحق رغباتنا، ولم أكن أعرف كيف أحقق ما أتوق إليه، فالحل الوحيد المقبول اجتماعياً هو أن أتزوج، لا حل وسط كي أكون مقبوله اجتماعياً، إما زواج وعيش الرغبة والجنس والحب، أو تحنيط وانعتاق! الجنس خارج الزواج زنا، والحب الذي لا يُكلَّل بالزواج دنس، ولم يكن الزواج وارداً في حالتي.

كنت مسكونة بهاجس مؤلم بشدة كما لو أنه قرحة في معدتي، هاجس لئيم لا يرحمني لحظةً واحدة وهو أن ابني يعيش بلا أب، وكانت نوبات من الغضب الأعمى تكتسحني كي أتّصل بالأب الحيوان أو أهله وأصبّ جام غضبي عليهم، وكم أمعنت في طبيعة حبي لابني، إذ كنت أعي أن حبي له لا يشبه حب الأهل لأولادهم، فهو حب ممزوج بألم خفي وبشعور غامض أحاول التنصّل منه بالذنب، كنت أشعر أنني مُذنبة بحق ابني لأنني أسأت الاختيار أو لأنني لم أرضَ بالظلم والاستعباد من قبل زوج سادي، فحرمته من أن يقول بابا. ولم أكن أطيق الأعياد ولا المناسبات التي تجتمع فيها العائلة، وتجد الأطفال بين أمهاتهم وآبائهم، أسرة متكاملة طبيعية وسعيدة، كنت أشكّل أسرة مع وحيدي، وكنا ننتظر عند باب المصوّرين كي يلتقطوا لنا صوراً بملابس العيد، وذات مرة سألنا المصور أين الأب هل

سيتأخر؟ فقلت له وأنا أداري غصّة قهر: باشر التصوير. كنا نتبادل الأوضاع، ابني وأنا، عند المصورين، فتارةً أجلس وهو يقف أو بالعكس، ولكنني كنت ألحّ دوماً أن نتصور ونحن ننظر إلى بعضنا البعض، كانت تلك اللقطة تعني لي الكثير وبأن لُحمة المحبة بيننا لا يُمكن أن تنفصم، كان وجودي رغم غناه الظاهري وقوة حبي لابني وعطائي اللامحدود له، لكن خلف وجودي الظاهري كان يختبئ حزنٌ ناعم مُستمر كما لو أنه بطانة كياني، ولم تكن عواطفي هادئة ومنسابة تجاه إبني بل كانت أشبه بدفق من الحب، بنافورة من العواطف، مع إحساس عالي بواجب أن أهديه حياتي.

***

لا يُمكنني أن أقاوم الابتسام حين أفكر بفابيولا، التي منذ اللحظة الأولى لتعارفنا وسماعي قصتها وجدتني أنطوي من الضحك وأقول لها: أتعرفين، ألا يقولون يُخلق من الشبه أربعين، وأنا أقول لك يُخلق من المصيبة أربعين. لم أصدق أن فابيولا التي سمّاها والدها فابيولا لأنه كان يعشق امرأةً أجنبية تحمل اسمها، ورضيت زوجته أن تسمّي ابنتها على اسم العشيقة، تشاركني مأساتي نفسها. كانت قصة فابيولا نسخة من مأساتي، مُطلّقة ولديها ابن بعمر ابني تماماً

ووالده لا يبالي به ولا يسأل عنه، حتى أنها حكت لي أن ابنها تعرض ذات يوم إلى حادث أدى إلى تمزق طحاله وكاد أن يموت من النزيف لولا أنه أسعف بسرعة، وتمكنوا من نقل عدة أكياس دم إليه، والا كان ليموت، كانت ترتجف وسيل من الشتائم الفاحشة تنهمر على طليقها وتحدق بي قائلةً: تصوري الحيوان، اتصلوا به وقالوا له ابنك في المشفى وهو بين الحياة والموت ولم يبالِ! يومها ضحكت من السعادة ومن أكبر نعمة في العالم نعمة المشاركة ليس لأن قصتي وجدت نسخة طبق الأصل لها بل لأن فابيولا تسمي طليقها الحيوان، وسرعان ما توطدت صداقتنا وتحول ولدانا إلى صديقين حميمين. كانت فابيولا من أسرة ثرية، والدها يملك عدة محلات للأزياء النسائية، وأمها تملك دكاناً لبيع الحلي التقليدية، لم تكن تعرف الاعتدال، فهي إما في قمة الحب أو قمة الكره، وتزوجت رغم اعتراض أهلها على الشاب الذي – حسب رأيهم – ليس من بيئتهم الاجتماعية لأن فابيولا معتادة على نمط مُعين من الحياة والترف، لكنها أحبته بجنون وفرّت معه لتكتشف بعد أقل من عام أنه لا يناسبها وأن كل غايته ابتزازها وابتزاز أهلها، فمنذ الأيام الأولى لشهر العسل حدّثها صراحةً أنه يريد أن يكتب والدها باسمه أكبر محل للأزياء يملكه، صعقها بوقاحته وجرأته، وسألته:

يبدو أنك لم تتزوجني عن حب كما كنت أعتقد، بل كنت طامعاً بثروة أهلي؟ في البداية كان ينكر اتهامها له ويؤكد لها أنه يعشقها ولكن كي تكتمل سعادتهما فيجب على والدها أن يهبه محل الأزياء الأساسي وأن يُسجّله باسمه؟ مصعوقة ومجروحة الكرامة وخائبة الأمل وهي تعي أنها عصت إرادة أهلها من أجل الحب، من أجل رجل عبدته ووهبته روحها وجسدها لتكتشف وجهه الآخر منذ الأيام الأولى للزواج، أرادت أن تغالط نفسها وأن تُفسّر كلامه بأنه نوع من الحرص على مستقبلهما وسعادتهما، فأخذت تطمئنه أن كل ثروة والديها ستؤول إليها وإلى أختها، وأنها على الأغلب ستكون لها الحصة الأكبر لأنها موهوبة في الإدارة ووالدها يعتمد عليها في اختيار الموظفات العاملات في الدكاكين، لكن إصراره كان يزداد شراسةً بوجوب الطلب من والدها أن يكتب الدكان باسمه، ثم أن تضغط على والدتها لتكتب محل المجوهرات التقليدية باسمها, مرّ شهر العسل وهي في دوامة لا ترحم من إصراره على قنص ثروة أهلها ومن تكريسه لجهوده في إرضائها عاطفياً وجنسياً، مُعتقداً أنه كلما أمتعها وأشبعها جنسياً وعاطفياً سيصل إلى مُبتغاه، لا شيء مجاني لديه حتى الحب، حتى مضاجعته لها كانت مدروسة، أراد أن يجعلها مُدمنة عليه، على تفننه في ممارسة الجنس معه، مُعتمداً على

وسامته وخبراته مع عشيقاته، والأهم على إدراكه نقطة ضعف فابيولا وهي أنها بركان من المشاعر الملتهبة. عاشت صراعاً كاد يُدمرها بين حبها المجنون له وشغفها بجسده وممارسة الجنس معه، إذ كان يصرّ أن تبلغ النشوة عدة مرات، حتى أنها كانت تسمّي وصالهما بحفلة الجماع، وبين عقلها الذي يصفعها بالحقيقة القاسية بأنه لا يحبها بل هو طامع بها، واعتقدت أنها حين ستحمل منه سيتغير ويشعر بالأمان وأن الطفل سيوحّدهما ويكون ضمانة لعيشهما المرفّه، خاصةً أن طفلها سيكون الحفيد الأول للعائلة، لكن حدث عكس توقعاتها، إذ صار يضغط عليها أكثر لأنها حامل، حتى أن صبره نفد سريعاً حين صفعها ذات يوم بحقيقة ما يريد: إما الطلاق أو يكتب والدك الدكان باسمي. كان واثقاً أن فابيولا المتيمة به والمدمنة على ممارسة الحب معه والتي تنتظر طفلها الأول ستلبّي طلبه، لكن عاصفة من الجنون والغضب الأعمى هبّت من أعماقها كإعصار أطاح به خارج حياتها، كانت تلهث والكلمات تتسارع وتتدفق من حنجرتها كما لو أنها تقذف بحصى صغيرة كادت تخنقها وصرخت: هل تظن أنني عبدتك يا حيوان؟ أنا من تريد الطلاق الآن بعد أن عرفت أي خسيس أنت. طلّقها وهو ينظر إليها نظرة جمّدها الحقد وقال عبارة واحدة هي آخر ما سمعته منه: سأحرق

قلبك. ولم تتوقع أنه ينوي كي يحرق قلبها أن يتنكر لابنه، ولدته في المشفى وهي تبكي ونظرها يرنو إلى الباب متوقعةً دخول والده نادماً ويتوسّل إليها أن تسامحه، ليربّيا الطفل معاً، ولكن الأيام مرت، وحاول العديد من الأقارب والأصدقاء أن يتحدثوا إليه ليرى ابنه الذي لا ذنب له، ليعترف به، ليحمله بين ذراعيه عسى وحش الطمع وسرطان الحقد يتراجع قليلاً، ويتمكن هذا الطفل المسكين أن يولد شيئاً من الحنان والحب في قلب والده المُتحجّر بالأحقاد والأطماع، لكن السنوات مرت وسافر الأب وتزوج وأنجب ثلاثة أطفال وهو مُصرّ ألاّ يعترف بابنه الذي أنجبه من فابيولا. لم تستطع فابيولا تحمّل الزلزال الذي حلّ بحياتها، صحيح أن والديها أشفقا عليها ولم يتفوها مرة واحدة بعبارة: ألم نقل لك إنه لا يناسبك وإنه طامع بثروتك؟ وجدت نفسها بمواجهة ألم مُعقّد، فهي من جهة مصعوقة من نذالة الرجل الذي تزوجته ومن حقارته، لكن جسدها يئنّ ألماً من الحرمان الجنسي والعاطفي، بعد أن اختفى وهي في ذروة تعلقها به، لم تفكر بردود فعلها، كانت كمن اتخذت قراراً بأنها ستضاجع كل رجال العالم، ولم تتنقل فقط من عشيق لعشيق، بل صار يحلو لها أن تجمع عدة عشاق في الوقت نفسه، لكن هذا السلوك لم يمنعها من أن تكون أماً عظيمة تعبد ابنها وحريصة على

أن تغمره بحبها وحنانها وتهديه وقتها، ولم تخفِ عنه حقيقة والده، ويبدو أنها كانت تستلذّ بسوء السمعة، فلم تكن تبالي بكلام الناس وفضائحها، ولم يستطع أحد من المُقربين منها أن يثنيها عن جنون مغامراتها ونزواتها، بل بدت هي من يتعالى ويحتقر من يتحدث عنها بسوء ويتهمها بالانحلال الأخلاقي، واستطاعت بعبقريتها في إدارة محلات الثياب التي صارت علامة الجودة والأناقة الراقية، لدرجة ارتبط اسم فابيولا باسم الأناقة والذوق والرقي، أن تخفّف من استهجان الناس لسلوكها في حياتها الخاصة، بل إن العديد من زبوناتها صرن لا شعورياً يدافعن عنها ويؤكّدن أن كل ما يُقال عن نزواتها وعشاقها هو بسبب الغيرة ولأنها امرأة ناجحة وتفوقت على والدها في التجارة. تتمتع فابيولا بشخصية آسرة، تملك سحراً غريزياً يشعّ منها في كل حركة تقوم بها، كل من حولها يشعر بغنى شخصيتها وتفرّدها، كانت قادرة من نظرة متفحصة واحدة أن تحلل شخصية الزبونة التي تقصد محلات الأزياء التي صارت تديرها كلها، والكثيرات من زوجات المسؤولين كن يطلبن نصائحها لتختار لهن الأزياء المناسبة، لم تخطئ أبداً في سبر غور كل امرأة التقتها أو دخلت محلاتها، كانت تتفحص الزبونة ثم تطلب من إحدى الموظفات لديها أن تعرض أمام المرأة نوعاً معيناً من الملابس، كانت مولعة

بالقراءة وتقيم حفلات في بيتها الفخم مصرةً أن تدعو دوماً أدباء وشعراء، ضاجعت معظمهم، لكن علاقتها بهم كانت تستمر لأنها تعشق الشعر وتحب أحاديث المثقفين، لم تشعر أبداً بتأنيب الضمير، لأنها تؤمن أن حياتها الشخصية وجسدها ملك لها. وحين توطدت علاقتي بها بسبب تطابق قصتينا، وسألتها: كيف يحتمل ضميرها كل هذا الكم من العشاق؟ بحلقت بي مستخفةً بسؤالي وابتسمت، أسرعت أعتذر منها وأقول إنني لا أقصد أبداً تجريحها وأن كل غايتي أن أفهم كيف تُضاجع بهذه السهولة؟ ضحكت وهي تؤكد لي أنها لم تزعل من سؤالي أبداً، وأن الأمر سخيف جداً، وأن امتلاك جسد لبرهة واستنزاف المتعة منه شيء طبيعي كالأكل والشرب، وأنها لو لم تتصرف بتلك الطريقة لجنّت من الألم. فكرتُ بكلامها ووجدتني أتخيلها مجنونة من الألم والرجل الذي تولّهت به طعنها طعنة الغدر وتنصّل من طفلهما ليعاقبها.

اعترفت لي أن الجنس وحده مسكن لآلام الروح، وأنها تعلمت درس الحياة بأنها لا يجب أن تأخذ أي شيء على محمل الجد.

ذات مرة وكنا معاً نحتفل بمناسبة مرور اثنا عشر عاماً على طلاقنا، إذ كنا قد تطلقنا في العام ذاته، كان ولدانا يلعبان لعبةً مثيرة على الكمبيوتر, وكنت أعبّئ

رأسي الأركيلة بمعسّل التفاحتين الذي ندخّنه معاً بمتعة كبيرة منتشيتين بقرقرة الماء، كانت ترشف البيرة المثلجة وتبتسم لي فيما عقلها في مكان آخر، كنت أستطيع أن أقرأ أعماقها كما لو كانت كتاباً مفتوحاً. سألتها فجأةً: أين أنت؟ أربكها سؤالي فدارت ارتباكها بأن كررت سؤالي بمرح: أين أنا؟ هنا، معك. لكنني قلت لها: أعرف أنك معي بجسدك لكن روحك في مكان آخر، تبدين حزينة جداً اليوم، والحزن لا يناسبك، هيا أريد الآن أن أسمع ضحكتك المجلجلة. كانت فابيولا تنطوي من الضحك حين تضحك، وضحكتها ساحرة، تجعل كل من حولها يضحك كأن عدوى مسّته، ضحكت، وقالت لي: يا إلهي، لا أستطيع أن أخفي عنك شيئاً، وفجأةً انهمرت دموعها وتجعّد جبينها وتشنّج فكّاها، كانت تبكي، روحها كانت تبكي، مددتُ لها كومة مناديل ورقية ومسحت على شعرها بحنان وقلت لها: خير يا فابيولا، ما الذي يؤلمك هكذا؟ فردّت لتوها: وهل توقف الألم؟ هل توقف الألم؟ هل توقف؟ شعرتُ أنها تخاطب الحياة وتعتب على القدر وتسائله لماذا كان وحشي القسوة معها، كانت جمرات الأركيلة تتوهج كقلبها المتوهج بالألم، وضعت الأركيلة أمامها وأنا أفتعل المرح وأقول: معسّل تفاحتين بحريني فاخر لأحلى صديقة، وكأنها لم تسمعني، كانت روحها تنزف، قالت كأنها

تحدث نفسها: أي منحطّ وعاهر ذلك الرجل الذي لا يبالي بابنه، تصوّري لم يره أبداً، حتى عندما كاد أن يموت من نزيف طحاله بعد تعرضه للحادث لم يأتِ إلى المشفى؟! أي رجل منحطّ هذا؟ لو تعرفين كم أحببته، كم دافعت عنه أمام أهلي، مؤكدةً لهم أنه يناسبني ويستحقّ حبي، ربما مشكلتي أنني لا أستوعب أن بعض البشر يكونون منحطين هكذا؟ صدقيني، ألمي لا يتوقف، ابني لم يلفظ مرة واحدة كلمة بابا، البابا بالنسبة له جرح، لطالما عذّبني سؤال لم أجد له جواباً: كيف لا يؤثر الحب في نفوس الناس ويشفيها من الطمع والحسد والغيرة، لو تعرفين كم أحببته، كيف أحببته، كنا سنعيش سعداء، وكان سيحصل على مستوى من المعيشة كما يتمنى، لكنه لم يكن يريد سوى ابتزازي، لماذا لم يؤثر به حبي؟ لماذا لم يحبّني بل كان يلهث وراء ثروة أهلي؟ لم أكن مُعاقة، كنت جميلة يتنافس الشبان لكسب ودي، واخترته وعشقته حتى النخاع، وحاربت من أجل حبنا، لأكتشف أنني لم أكن سوى صيد بالنسبة له وبأنه كما قال: سأحرق قلبك، وقد حرقه، خلف مظهري امرأة قلبها محترق من الألم يا صديقتي. لم أستطع مؤاساتها، كانت تتحدث عني، صببت لها المزيد من البيرة ونفثت دخان الأركيلة بوجهها وقلت بلهجة ساخرة وعبثية: نفّخ عليها تنجلي،

ضحكنا من كل قلبينا المُترعين بالألم. كانت فابيولا مرآة روحي، وكنتُ مرآة روحها. ولا يوجد عزاء أكبر من أن تلتقي بشخص يحمل نفس وجعك، عندها يشعّ الحنان والألفة والمودة ويصبح الجرح لطيفاً بعد أن كان حارقاً.

لم تكن فابيولا مجرد صديقة، لكنني اعتبرتها نعمة من الله كي يخفّف إحساسي بالهزيمة والألم وجلد الذات لأن والد ابني رجل مُنحط وساقل، إذاً لم تكن مأساتي فريدة، ثمة مأساة طبق الأصل من مأساتي، حتى أنه يحلو لي اعتبار مأساة ابن فابيولا أشد قسوةً من مأساة ابني، فابنها شارف على الموت ولم يزره والده. حين ألتقيها كنت أحس بفرح من نوع خاص، كأنني أتحلل من أثقال ترهق جسدي، كما لو أن إحساسي الدائم بوطأة مأساتي يتوزع على اثنين، كنت أمازحها وأقول: حين ألتقيك أشعر بانعدام الوزن، أشعر بخفة رائعة ولذيذة، فتضحك من كلامي وتكمل: كما لو أنك على سطح القمر. كانت تشعر بالمثل، وكنا نشكّل ثنائياً مرتبطاً برابط قوي وحميم، يبدو أن المأساة توحّد الناس أكثر بما لا يُقاس من الفرح، كنا نقضي ساعات نناقش احتمال الآثار السلبية لغياب الأب على ولدينا، وكنتُ قلقة كون ابني يرفض رفضاً كلياً أن أتحدث عن والده، لا يريد أبداً أن نذكره حتى. ذات مرة أصررت أن

نحكي عنه فبكى وصرخ غاضباً قبل أن يغادر الغرفة مُسرعاً قائلاً: إنه غير موجود بالنسبة لي هل تفهمين، غير موجود فلماذا تعذبينني. طعنني كلامه وبكيت من القهر، وفكرت كيف عساي أتحقق أنه لا يُخفي جرحاً في أعماقه وأنه لا يُعاني من غياب الأب الحيوان الذي يعيش مع أبناء يهتم بهم، هؤلاء هم إخوة ابني، ما أردته أن نتمكن من التحدث ببساطة وبدون حواجز عن الحيوان لأعرف إلى أي حد يعاني ابني من هذا الموضوع، هل يشعر بألم التخلي والخيانة؟ هل يشعر بالنقص والدونية حين يجد رفاقه يتحدثون عن آبائهم، إلى أي حد ستؤثر هذه المشكلة على شخصيته في المستقبل؟ لكنه كان يوصد الباب بوجهي دوماً، كنت أحسد فابيولا وابنها، فهما يشتمان الأب الحيوان ببساطة ويتحدثان عنه ويسخران منه، لم يكن طوطماً ولا محظوراً، لكن فابيولا أقنعتني بأن ابني متوازن نفسياً تماماً وأن كرامته لا تسمح له بالتحدث عن أب تخلى عنه، وأنّ حالة غياب الأب، استناداً لقراءاتها في علم النفس واستشاراتها للعديد من الأطباء النفسانيين، لا تؤثر كثيراً على الطفل إن كان يعيش في جو مُشبع بالعاطفة والاهتمام، بل إنها على العكس قد تكون دافعاً للتفوق والتميز. كنتُ أتأمل ابني المتفوق في دراسته وأحد أهم لاعبي كرة السلة في المدينة، أتأمل ثقته

بنفسه وكرامته التي أحسّها كوشاح يغلّفه، كان سعيداً بذاته عارفاً بتميزه وواثقاً بالحياة، وكان مولعاً بجده – أبي – حتى أنه كثيراً ما كان يناديه بابا، وأكثر ما كان يُذهلني فيه أنه لا يغلي بالأحقاد على والده. أذكر ذات يوم ويبدو أن أراد أن يُسعدني إذ كان يعرف أنني أرغب بالاطمئنان عليه وأن غياب والده لا يُشكّل لديه عقدة نفسية، اقترب مني وطوّقني بذراعيه وقبّلني من رأسي كما يحب أن يقبّلني دوماً، وقال لي: أريد أن أقول لك بكل صدق يا أمي الحبيبة إنني لا أفكر به أبداً، كيف أفكر بشخص لا أعرفه، ولماذا أعكّر روحي بالحقد عليه، صدقيني إنه لا يعنيني، لا أريد منه شيئاً ولا أبالي به. دمعت عيناي من التأثر والامتنان، أية نعمة أن يكون لدي ابن عظيم وحكيم رغم حداثة سنّه، بل إنني تعلمت منه أن أكفّ عن لعن حظي والغليان من الغضب والحقد كلما تذكرت الحيوان، ابني لقنني درساً لن أنساه، بأن الكراهية الحقيقية هي اللامبالاة والنسيان، وطلب مني في ذلك اليوم ألاّ نعود لسيرة الأب، وأننا أسرة سعيدة، فعلاً كنّا سعداء، أبي وابني وأنا، هل كنت سعيدة؟ سؤال سطحي لا يعني شيئاً، من ناحية كنت سعيدة حقاً كوني أماً لشابٍّ رائع أحسّ بالفخر والاعتزاز به، وكنت راضية عن طموحي العنيد وتثقيف نفسي لأكون صحفية مميزة، وكنت محظوظة بأب يتمتع بحنان أكثر

الأمهات حناناً في الدنيا، كنت أشعر أنه قديس لا يطلب شيئاً لنفسه ولا يدين أحداً، ويعذر كل من يجرحه عن قصد أو غير قصد، كان أباً حقيقياً لابني، ويحلو له أن يردد دوماً بأنه يحبه أكثر من أولاده، لكن ثمة لحظات من الحزن العميق كانت تفاجئني، كما لو أن أشياء كنت أطمرها عميقاً داخلي قد ظهرت على سطح وعيي، تلك اللحظات من الزمن المُباغت والغدّار تُشعرني أن عمري يُسرَق مني وبأنني أريد تغيير مجرى حياتي، كنت أعي في تلك اللحظات ذلك الجزء المُغيّب من روحي والذي يرغب بحياة مغايرة، – رغم القرف والاشمئزاز كنتيجة لزواجي الكارثي – لم أكره الرجل في أعماقي، يبدو أنني أؤمن أن الحياة رجل وامرأة يجمعهما الحب، لأنني في تلك اللحظات كنت أتوق أن أحتضن وأن أكون مع رجل يحبني وأحبه، كنت أحس بالأسى والشفقة على نفسي كون شبابي يُهدَر دون حب، وأخاف أن أتخيل نفسي أنني بعد سنوات سأصير عجوزاً ووحيدة، لا شيء يعوّض هدر السنوات، أتكون ضريبة الزواج الفاشل باهظة لهذه الدرجة؟ لكن أين الرجل في حياتي؟ الرجال الذين التقيتهم لم يسمحوا لابتسامتي أن تكتمل، سرعان ما كان يصيبني الإحباط والقرف، لم يكن أيٌّ منهم يبالي بالحب، كانوا يريدون صيداً سريعاً وعدة مضاجعات لا أكثر، كنت أؤمن بالحب وأجد دوماً

الحماسة له والاستعداد لصيانته كما لو أنه وردة جميلة علينا سقايتها والاهتمام بها، كنت على استعداد أن أحبّ رجلاً وأسعده وأخلص له، وأكون سنداً له، أن نكمل مشوار الحياة معاً مستمتعين بأروع نعمة في الحياة: المشاركة، لكن يبدو أن الحب مُتعب ويتطلب جهداً ومسؤولية، ووعوداً، كنت أحس أن المشاعر ذبلت وضمرت وصار كلٌّ يبحث عن حبٍّ خفيف وسريع ولا يترك أثراً، حب يشبه الوجبات السريعة وعواطف دايت. أحد الرجال الذين التقيتهم، وكنت أعتقد أن شرارة حب ولدت بيننا وأنها ستستمر، قال لي صراحةً: حبك ثقيل. لا يمكن أن أنسى تلك العبارة التي لم أفهمها جيداً وقتها لأنني كنت أصارع شهوته المُلحّة. كنا قد التقينا في مؤتمر ضخم في مكتبة الإسكندرية لتغطية برنامج المؤتمر الذي يدور حول ضرورة تطوير أساليب التعليم في عالمنا العربي، كان يتمتع بحيوية وكاريزما لا تخفى، أحببت جرأته بالاعتراف لي أنني جذبته من أول نظرة وأنه ظل يتأملني طوال ساعات الندوات الصباحية، تحدثنا مطولاً عن حياتنا، وضحكنا ونحن نشرب نخب الطلاق، كان قد انفصل عن زوجته منذ سنوات واعترف لي أنه بعد الطلاق مرّ بفترة مُخزية من معاشرة العاهرات، ثم قرف من نفسه وأراد أن يطهّر روحه وجسده، ولم يلمس امرأةً طوال عامين، لديه

ثلاثة أولاد يعيشون معه لأن طليقته سرعان ما تزوجت من رجل أجبرها أن تتنازل عن أولادها كي يتزوجها فقبلت. أحببته لأنه يعبد أولاده، وترافقنا في المساء إلى دكاكين الإسكندرية الشهيرة ليشتري هدايا لأولاده ولأشتري هدية لابني ولأبي، شعرنا أننا نعرف بعضنا منذ دهر، سمحت له أن يداعب شعري وعنقي، لكنني لم أستطع أن ألبّي رغبته بتقبيلي، كنا نقف نعطي وجهينا لبحر الإسكندرية الملتمع بالأضواء، ولم أكن سعيدة يوماً كما ذلك المساء، أحسست بأنوثتي تستيقظ من سباتٍ طويل، الكيمياء بيننا قوية تكاد تلحمنا معاً فوق رمل الشاطئ الناعم كالحرير، لكنني كنت أحتاج وقتاً كي أهبه نفسي وجسدي، كنتُ أراقب شيئاً حميماً وجميلاً يولد بيننا ومستعدة للرأفة به والعناية به كي ينمو، لكنه كان يريد قطف الثمرة قبل أن تنضج. طلب مني أن آتي إلى غرفته، وعرفت أنه يريد مضاجعتي، فقلت له إنني لا أستطيع، كتم ضيقه وسأل بسخرية: لا تستطيعين ماذا؟ قلت متجاهلةً غضبه المكبوت: أظنك فهمت قصدي. ردّ بسخرية: لماذا، هل نحن مراهقين خجولين؟ قلت وقد بدأت أشعر أنني أتقوقع حول نفسي بعد أن كنت أفرد روحي وأشرعها باتجاهه: لا لسنا مراهقين لكننا تعارفنا اليوم و... قاطعني: ليكن، ألست منجذبة لي؟ هل أنا مُغفل حتى لا أشعر بتلك

الجاذبية الهائلة بيننا؟ أكدتُ له أنني أشعر بانجذاب كبير نحوه لكنني أحتاج وقتاً، أحتاج أن أثبت تلك المشاعر في روحي كما تثبت وردة جذورها في التربة، فصرخ لا إرادياً: لكننا لا نملك الوقت، المؤتمر ثلاثة أيام فقط، أي ليلتين، أي أننا لا نملك سوى هذه الليلة وليلة الغد. رغبت أن أركض وأركض وأرمي نفسي في البحر، لم أردّ لأنني شعرت أنني أنخمص داخل ذاتي كحلزونة تتقوقع داخل قوقعتها، وانطفأ للتو انجذابي إليه، شعرت أنني في حضرة قضيب منتصب أشبه برمح ولست في حضرة رجل تحدثت معه لساعات ونحن ننظر في عيون بعضنا بمودة تزداد حرارتها حتى تشارف تخوم حب يهمّ أن يولد، لكن يأتي إعصار شهوته ليمزّغ ذلك البرعم الطري من العاطفة الساحرة النقية في سخام الشهوة، أظنه فهم صمتي تردداً فأمسكني من يدي وقال: أرجوكِ تعالي معي أنا بشوق كبير لأضمك. صرتُ صنماً ووجدتني أحنّ لتلك اللحظات وأنا أستمتع بترف وحدتي أجلس في سريري أقرأ أو أحلم بالحب والمستقبل، لم يشعر أنني في ورطة، كيف يفكر بتلك الطريقة المُهينة! كيف يقول ببساطة تامة إننا لا نملك الكثير من الوقت لذا علينا أن نمارس الجنس. قلت له: لا أستطيع ولست مضطرة لأشرح لك طبيعتي، لكنني لا أستطيع، أحتاج أن أعرفك أكثر. قال

بإلحاح: ستعرفينني أكثر حين نكون معاً، أرغب أن أقبّل جسدك وأمطره بقبلاتي. شعرت بالقرف، كان يعتقد أنه يثيرني ويرشوني بمطر قبلاته، فكرث أنه يستند إلى فكرة يؤمن بها بأن امرأة على أعتاب الأربعين ومُطلقة تكون بحالة حرمان جنسي مزرية، ولم يكن شعوري خاطئاً لأنه قال لي هامساً: ألا ترغبين بممارسة الحب؟ كم مضى من زمن وجسدك الجميل لم يُقبَّل ولم يُلمَس؟ وجدتني أضحك، أهانته ضحكتي وأغضبته فسألني ما الذي يُضحكني؟ قلت له بسخرية مداريةً خيبة أملي: كما لو أنك ستهديني مضاجعة لأنك تشفق علي لأنني محرومة عاطفياً وجنسياً. قال وهو يطوّقني بذراعيه بحنان: لماذا تفكّرين بهذه الطريقة، والله أنت غريبة، خذي الأمور ببساطة، لا تثقليها بمفاهيم ما عادت تنفع في هذا الزمن، ألا ترين كيف يمرّ العمر وكيف يغدرنا الزمن، دعينا نلتقط السعادة كما تمتصّ الفراشات الرحيق من الأزهار، صدقيني لو لم أشعر بقوة الانجذاب بيننا لما طلبت منك أن ترافقيني إلى الغرفة، ألا نستحق لحظات سعادة؟ استسلمت لهدهدة حزن لطيف ووعيت كيف انطفأ انجذابي الشديد إليه وحماستي أن حباً سيولد بيننا، وغمرني تعبٌ شديد ورغبت بالانعتاق. سألني: ما بك؟ واقترب مني ليقبّلني من شفتي، تركته يفعل ليس لأنني كنت أشتهي تلك القبلة التي كنت

طوال الوقت ونحن نمشي معاً في شوارع الإسكندرية أتوق إليها وأتخيلها، بل لأنني شعرت باللامبالاة، وصدمني لسانه المتصلّب الذي حافظ على صلابته كرمح، أحسست بالتقزز لأنه لم يكن ينقل إلي حبه وحنانه في تلك اللحظة بل كان يمهّد للمضاجعة التي ينتظرها، كان لسانه مُصغّراً من قضيبه، انصبّت جهوده على إثارتي وليس على غمري بالحب، كان علي أن أزيح رأسي بقوة إلى الوراء كي أتحرر من غزو لسانه المتصلّب والثابت في مكانه كما لو أنه شقّ جوف فمي إلى نصفين، تمكنتُ أن أتملّص منه ووجدتني ألهث وأنا أعي الورطة التي لا أعرف كيف سأنجو منها، وكي أخفف من توتري وجدتني أخترع أفكاراً مسلية بأنني أحب البحر أكثر من الرجل، وأتخيل أنني سأركض هاربةً منه وأرمي نفسي في بحر الإسكندرية الساحر، كنت أتوق حقاً أن يغمرني الماء وأن أتذوق بمتعة ملوحة البحر، طوّقني من الخلف مُعتقداً أن قبّلته حققت انتصاراً وضغط جسده على ظهري ليُشعرني بانتصابه، انتفضت مجفلة وأنا أفكر أن شهوة الرجل حين تنطلق من عقالها فإنها أشبه بإعصار، لا شيء يوقفها، تحررت بجهد من أسر ذراعيه وصرخت بنفاذ صبر: كفى، لا أريد، لا أريد. عندها تحولت نظرته للتو من الحنو والحب والافتتان إلى منتهى القسوة وزمّ

شفتيه كما لو أنه ينوي أن يُعاقبني، أن يجعلني أدفع ثمن تخلّفي ورفضي نعمة ولوج قضيبه المنتصب فيّ، أنا المرأة الأربعينية المطلقة والمتعطشة للعاطفة والجنس، تركني وعاد إلى الفندق، جلست على الرمل الناعم محطّمة المشاعر أتخبّط في صورنا معاً، الألفة والانجذاب والمشاعر التي ترتفع حرارتها مع الحديث، وتجوالنا متشابكي الأيدي في شوارع الإسكندرية، والملامسات الخاطفة السريعة بيننا والتي نوهم أنفسنا بأنها عفوية، خاصةً ونحن نعبر الشارع، كل شيء كان جميلاً وحقيقياً إلى أن انفجرت شهوته وأرادت أن تطوح بكل ذلك الدفء الجميل والمشاعر المتفتحة كبراعم الربيع بيننا، الشهوة لا تسمح للبراعم أن تأخذ وقتها لتنمو، تريد أن تحوّلها للتو إلى ثمرة ناضجة تلتهمها وتمضغها وتبصق نواتها أرضاً. عدت إلى غرفتي وأحسست بشوق إليه ورغبت أن أتصل به، لكنني تراجعت، لأنني متأكدة أنه لا يريد مني سوى أن أقبل بممارسة الجنس. وفي اليوم التالي تجاهلني تماماً، ولم يخصّني بنظرة، وتعمّد أن يتحدث مطولاً مع صحفية شابة مصرية، لم أجد سوى السخرية لألطّف من ألمي ووجدتني أستعير كلماته: المؤتمر قصير ليس أمامنا سوى ليلتين، تمنيت أن يمر اليوم سريعاً. وحين اختليت بنفسي مهدودة من التعب فكّرت بالقسوة، يا

لهول القسوة التي يتعامل بها البشر مع بعضهم البعض، كيف استطاع أن يدوس على المشاعر الرقيقة الصادقة بيننا؟ كيف لم يجد الهمّة والصبر لإعطاء تلك المشاعر الوقت الذي تحتاجه لتنمو صحيحة مُعافاة؟ أية هوة تفصل بين المرأة والرجل؟ وهل علاقتهما بتلك البساطة؟ أم أنها بالغة التعقيد؟ أليس الحب أكبر خدعة يحتاجها الاثنان ليخفيا مقدار اختلافهما؟ هل يوجد رجل يهزم غريزته؟ هل يوجد رجل يبقى هو سيد نفسه حين ينتصب قضيبه؟ أم أن الشهوة وحدها تطغى وتستبدّ وتحوّل الرجل إلى عبد لها. في كل مرة كنت أعتقد أنني سأنمو بالحب وأزهر وتتفتح روحي شغفاً وعشقاً، أجد نفسي سرعان ما أتحطّم، وبدلاً من إحساسي بالتقدم في الفرح والبهجة أجد نفسي أهوي إلى هاوية من الإحباط، لم يستطع أيٌّ من هؤلاء الرجال الذين عبروا حياتي أن يخرجوني من عزلتي، كنت أتعجّب وأصعق من تلك السرعة والسهولة التي يسحقون بها مشاعري والتي يستخفون فيها بقيمة مشاعر رائعة وصادقة وتُغني الروح وتحررها من برودة الوحدة، وإذا كنت في البداية أصبّ جام غضبي عليهم وأشتمهم – بيني وبين نفسي – بأفظع الشتائم الفاحشة، فإنني مع الوقت ومع تكرار تجارب تكاد تكون متطابقة وجدتني أمام علامة استفهام كبيرة! ما الذي

يريده الرجل من المرأة؟ وما الذي تريده المرأة من الرجل؟ لم أكن أقبل ولا بأي شكل من الأشكال تلك العلاقات العابرة التي أسمّيها علاقات سياحية، كنت أشمئزّ وأقرف من تلك العلاقات السريعة العابرة التي يلتهم كل طرف جسد الآخر وينساه للتو، علاقات جنسية خاطفة وعابرة تفرضها ظروف الحياة المُعقدة والسريعة، لطالما تأملت كيف يضمحلّ مفهوم الحب ويضمر، بل أصبح الكثيرون يسخرون منه كما لو أنه موضة قديمة، ولم أقتنع أبداً أن المشكلة تكمن في نمط الحياة السريع والضاغط، فالمشكلة الأساسية في القلب، لم يعد القلب يجد الهمة والمتّسع للحب، أصبح الحب ثقيلاً والوعود سجناً والديمومة قفصاً يسجن الرجل والمرأة على السواء ويعيقهما من التنقل الحر الخفيف من جسد إلى جسد، وأكثر ما كان يدهشني وجود الكثير من المدافعين عن تلك العلاقات العابرة، والمقتنعين بها والمُروّجين لها، لم يكن الرجال وحدهم من يروّج ويعيش هكذا علاقات بل النساء أيضاً، انقرض ذلك الدفق العاطفي الذي يعبق بالحنان بين الرجل والمرأة، لم يعد أحد مستعداً أن ينتظر تفتّح البراعم، الكل يريد الثمار الناضجة بل المفرطة النضج، أصبح الجنس مجرد تفريج عن ضيق، وصفة طبية كوصفة دواء للحميّة أو مضاد اكتئاب، كل تجربة مع رجل وكل

محاولة لخرق عزلتي بالتوحد مع نصف آخر لا أزال أؤمن أنني سألتقيه كانت تنتهي نهاية كارثية، فأزداد انغلاقاً أكثر فأكثر وأدفن نفسي في الصمت المتأمل، لم تعد النظرة تشعّ بالحنان كما لو أن العاشق يدثّر حبيبته بوشاح من حنان ورقة، أصبحت النظرة ثاقبة بجوع الرغبة، وتعطش الشهوة للارتواء، أصبحت النظرة منتصبة كقضيب لا يرتاح إلاّ حين يطعن ويغزو. صار كل شيء في حياتنا مجبولاً بالقسوة، المشاعر والبشر والزمن، كنت غريبة وسط هذا العالم الجذّاب البرّاق اللاهث وراء المتع والإنجازات والإشباع، إشباع المعدة والغريزة، والاستمتاع حتى الحدود القصوى، ولطالما رغبت أن أدين نفسي وأتهمها بفشل قدرتي على التأقلم مع قيم العصر الحديثة، وبأنني– دقة قديمة – كما قال لي أحد الرجال الذين توهّمت أنه سيولد بيننا حب يدوم أكثر من الوقت الذي يتطلبه إشباع الغريزة. كان إعلامياً بارزاً شجاعاً ومتحمّساً لقضايا المرأة، وحقق برنامجه التلفزيوني الجريء شهرةً واسعة لجرأته في تناول المسكوت عنه، وحين قدّم حلقتين متتاليتين عن سفاح الأقارب وتمكّن بحنكته ودماثته من إقناع العديد من ضحايا سفاح الأقارب من الظهور على الشاشة، أثار زوبعةً من الاستنكار والذعر كما لو أنه أسقط ورقة التوت عن ملايين يتبجحون بالشرف والأخلاق في

عالمنا العربي الذي شعاره الحقيقي: إذا ارتكبتم المعاصي فاستتروا، واضطر مالك الفضائية أن يوقف برنامجه لشهرين، لكنه عاد بقوة أكبر لأن شعبيته الجماهيرية والأرباح التي كان يقدمها برنامجه للقناة كبيرة. كان ممسوساً بطموح لا يعرف حدوداً، وهذا ما جعله يرفض الارتباط لأنه لا يريد لأي شيء أن يعيقه عن طموحه. حين دعاني للمشاركة في برنامجه فرحت، وكان موضوع الحلقة "التحديات التي تواجه المرأة المُطلقة"، قال لي إنني أبدعت في الكلام وإنه فخور بوجود نساء يمتلكن شجاعة البوح مثلي، ودعاني للعشاء في اليوم التالي، وحرصت أن أكون أجمل ما يمكن. أسرتني شخصيته الغنية المرحة وأحببت حديثه والقصص الشيقة الطريفة التي عاشها في أسفاره الكثيرة، قال إنه يعشق النساء ولا يستطيع أن يعيش دون امرأة، لكنه يرفض الالتزام والزواج لأن طبيعة عمله تتطلب السفر الدائم، ولأنه يحب حريته أكثر مما يحب المرأة. بعد العشاء أخذني في جولة في أجمل شوارع بيروت، وبدأت أشعر بتصاعد رغبته كما لو أنها رائحة خفيفة منتشرة في الهواء، تجاهل طلبي أن يوصلني إلى الفندق، تظاهر أنه لم يسمعني مع أنني طلبت إليه مرتين وبصوتٍ عال أن يوصلني إلى الفندق، لكنه أراد أن يدعوني لشرب كوكتيل رائع من مزيج من

العصائر والكحول يحضره بنفسه، وأذعنت وكنت في سريره الرابعة فجراً أحاول التملّص من شهوته، ولم أفلح. ليس إصراره وعناده على ممارسة الجنس هو ما جعلني أستسلم، بل إحباطي ويأسي، إحساسي بأن ما أبحث عنه مجرد سراب، وبأن زمن الحب الذي يمدّ جذوره في الروح والقلب قد انتهى، الآن الحب أشبه بالفطر، فقاعة تنمو بلا جذور، شي يفرقع أمام عيوننا يبهرها للحظة ثم ينفجر ويغيب في العدم. كنت أفكّر طوال الوقت وأنا عارية وإحساس بالانكماش والذلّ يدثّرني بأن الجنس عقاب وإهانة، وبأنني يجب أن أعيد تقييم فهمي لنفسي وللحياة، فلأكن منبوذة – ودقة قديمة – أشرف لي ألف مرة من أن أزجّ نفسي في علاقات لا تورّثني إلا القرف واحتقار نفسي والكآبة، وكما توقعت تماماً، مستندةً إلى تجارب سابقة عشتها وسمعتها من صديقاتي ومن نساء كان لي الحظ أن ألتقيهن وأسمع اعترافاتهن، لم يتّصل بي أبداً بعد تلك الليلة، لم يطمئن علي كيف كان سفري، ولم يسألني كيف كانت ردود فعل الناس على الحلقة، وهممت مراراً أن أتصل به وأشتمه أو لو أرسل له رسالة بالموبايل أهينه وأحقّره، لكنني تراجعت، فما الفائدة؟ استعدت كلامه، حديثه عن امرأة ثرية جداً كان على علاقة معها وكان يوصلها للنشوة مراراً كل ليلة، لماذا بقيت صامتة

وأنا أستمع إلى تبجّحه الجنسي الذي لم أصدّق منه حرفاً، أي رجل في الستين من عمره مدخّن بشراهة ويشرب الكحول يملك تلك القوة الجنسية؟ هل يعتقد أنني أصدّق ما يدّعيه؟ ولماذا يشعر بضرورة التباهي بفحولته؟ هل يعتقد أنه يثيرني ويُغويني بهذا الكلام؟ وحين استسلمت له بسبب الإحباط واليأس وربما على أمل أن أقنع نفسي أنني مخطئة وأن العلاقات في هذا الزمن أصبحت خفيفة ومتحلله من كل القيم الأخلاقية المتوارثة السابقة، لماذا لم أنفجر بالضحك ساخرةً من عضوه الذي كان يستميت للانتصاب، عضو نحيل واهن أشبه بعقلة الأصبع، لماذا لم أمتلك وقاحة الجرأة لأقول له بكل سخرية وشماته: أبهذا العضو التافه كنت توصل عشيقتك للذروة عدة مرات كل ليلة؟ لماذا تصمت النساء؟ لماذا يعتبرن أن من اللباقة أن تصمت المرأة على تبجّح الرجال؟ لكن ألم أستسلم له وجزءٌ مني يتوق للحب، ينتظر حصول معجزة، وأن هذا الوصال سيكون حجر الأساس لعلاقة حب تدوم وتضرب جذورها في قلبينا؟ ألم أحاول أن ألفت انتباهه، فيما هو يستنزف المتعة من جسدي، أنني أبعد من هذا الجسد وأكثر منه وأنني امرأة غنية بالعواطف وفنانة في الحب؟ ألم ينتبه لدفقات الحنان التي تشعّ من عيني وتنطلق كشرارات كهربائية من أطراف أصابعي

التي داعبته برقة وحنان؟ ألم أتصارع مع نفسي وأنا في سريره وأطردها خارج روحي وأشتمها كي تتركني أصير امرأةً عصرية، امرأة تقبل أن تكون المضاجعة كوجبة تحلية بعد العشاء مع رجل تلتقيه لأول مرة؟ ألم تصبح العلاقة بين المرأة والرجل عابرة وسهلة وتافهة ومُتاحة وممكنة بالبساطة التي تشرب بها كأس ماء أو تطفئ لهيب الحر بتناول كوب من البوظة؟ وما الفرق بين إطفاء لهيب الحر أو لهيب الرغبة؟ عليك كي تكون عصرياً ألاّ تجد أي فرق بين الحالتين. لكن ما كان يطيش صوابي من الإحساس بالمهانة هو ذلك التعامل المهين الموغل في الاحتقار والإصرار على تحقير المرأة التي قبلت بممارسة الجنس مع الرجل، إصراره أن يهينها بالإهمال، بألا يتصل بها أبداً في اليوم التالي، بأن يشعرها كأنها لم تكن وكأنه لم يلتقِها وأنها لم تترك أي أثر في روحه، كنت أتعجب من هؤلاء الرجال الذين يحتلون مناصب رفيعة ويدافعون عن قضايا إنسانية بجرأة وحماسة، خاصةً القضايا المتعلقة بالمرأة، كيف يتعاملون مع امرأة مارست معهم الجنس، كما لو أن في أعماق كل رجل بدوي متخلف يحتقر –واعياً أو غير واع – المرأة التي تسلّمه جسدها. لم أستطع أن أجد أي تفسير أكثر دقةً وصدقاً من هذا التفسير، إذ إن الحد الأدنى من اللباقة يقتضي أن يتصل الرجل بامرأة قضت

الليل في فراشه، أما أن يُلغيها تماماً ويتجاهلها فهذا موقف يدلّ على مدى تخلفه واحتقاره للمرأة التي تساوى معها بالفعل نفسه، ويدل على ازدواجيته الأقرب للانفصام في الشخصية بين ما يدّعي وبين حقيقته، لطالما تساءلت وتأملت تلك التجارب المُتشابهة لحد التطابق وأنا أتساءل: لماذا يتصرف معظم الرجال بتلك الطريقة؟ ولماذا لا أفعل المثل وأقوم أنا بتجاهلهم ونبذهم وإشعارهم كأنهم لم يمروا على جسدي؟ لكنني، وبعد طول تأمل في هذا الخزي المُقرف تحت شعار الحرية الجنسية في عصر العولمة، وجدتني أرفض أن أتساوى مع ما أحتقره وأرفضه وأشمئزّ منه، ما زلت أؤمن أن الحب يقدّس الجنس وأنّ الجنس بدون حب دنس، ما زلت أؤمن أن الوصال بين رجل وامرأة يجب أن يكون إنسانياً وليس حيوانياً. لقد حاولت أن أروّض نفسي لأنتمي لعصر القسوة والعهر، لكنني كنت أخرج، بعد كل تجربة مع رجل ألبسه عباءة الرجولة التي أحلم بها والتي جوهرها احترام المرأة لا بل تقديسها، محطمة ومكسورة النفس وبحاجة لأسابيع كي أرمّم قرفي وشروخ روحي، وأن أنظّف ذاكرتي من قرف مُضاجعة داست على أنوثتي وكرامتي كإنسانة وامرأة. لكنني وبقوة ذاتية عفوية كامنة في روحي كنت أنجح في تضميد روحي الموجوعة بضماد من حنان ورأفة،

وأنجح في خلق مسافة مع هؤلاء الرجال القساة المتنمرين الذين يتباهون أنهم صاروا بلا قلب، وأن القلب ليس سوى مضخة لضخّ الدم إلى ما بين أفخاذهم حيث يقبع قلبهم الحقيقي المشوّه والعنين غالباً. لماذا أصبح البشر مجبولين بالقسوة كما لو أنها عنوان عصرنا؟ لماذا ارتشحت القسوة في خلايا الناس لدرجة صرت أشكّ أن جيناتهم الوراثية قد تغيرت؟ كان يمكن أن أظل أحوم وأدور حول هذه التساؤلات والإحباطات وحيدة في دوامة فشلي وقرفي من هذه التجارب الممسوخة مع رجال مروا في حياتي كعاصفة في فنجان تاركين طعم الرماد والخيبة، لولا أنني بدأت أخرج من ذاتي وأستمع بكثير من الانبهار وبمتعة لا تضاهيها متعة إلى تجارب نساء يقاربنني في العمر أو يماثلنني، كانت تجاربهن مع الرجل مطابقة إلى حد بعيد لتجاربي، ويعود الفضل لفابيولا التي انقطعت تماماً عن علاقتها بعشاقها وأصابتها حالة قرف من الجنس، حتى علاقتها بجسدها تبدلت، كانت تضحك وتقول لي: لقد أخصيت نفسي، ثم تأخذ نفساً عميقاً وتقول وهي تشدد على كل حرف: وأخيراً ارتحت، ارتحت. فأسألها: ارتحتِ من ماذا؟ فتجيبني ونظرة دهشة في عينيها كما لو أنها تؤنّبني كوني لا أعرف الجواب: يا صديقتي، ارتحت من إلحاح الغريزة، صرت أقرف من الجنس.

ولأنها امرأة مميزة لا تتوقف عن مفاجأتنا بأفكارها المجنونة والإبداعية، فقد قررت أن تشكّل جمعية من نساء أعمارهن بين الخمسين والستين، وكانت بحكم علاقاتها الواسعة وتجارتها كأشهر سيدة تمتلك محلات للأزياء النسائية، لديها علاقات متينة مع سيدات من مختلف البيئات الاجتماعية والدينية. اعتقدت للوهلة الأولى أن الفكرة نوعٌ من اللعب أو المزاح، لكنها حين طلبت مني حضور الاجتماع الأول الذي دعت إليه أكثر من عشرين سيدة أعمارهن تتراوح بين الخمسين والستين، وجدتني بحالة ترقّب وفضول وإثارة لأعرف ما غاية فابيولا من تأسيس هكذا جمعية؟

في صالون بيت فابيولا الأنيق الفسيح التقيت بالنساء الخمسينيات، ستة عشرة امرأة التقيتهن للمرة الأولى، ولم أفهم هذا القدر العالي من السعادة الذي انفجر في داخلي قبل أن نتعارف حتى! شعرت أننا نعرف بعضنا منذ دهر، وأننا التقينا في زمن سابق، وتملكني إحساس بالثقة بالنفس لدرجة الاعتزاز بنفسي، إحساس باليقين وأنني كنتُ على حق بكل ما شعرتُ وفكّرتُ به، وللحظة وحين طلبت منا فابيولا أن نتعارف وتعطي كل منا لمحة موجزة عن حياتها، أحسست بنشوة انتصار بلا سبب واضح، كنت أعي كيف تتفتح أرواحنا وتجاربنا وتلتقي في مستوى أعلى من مستوى

وجودنا، وعرفتُ من نظراتهن أنهن يشعرن بالمشاعر ذاتها، لم يكن كلهن مُطلّقات كما توقعت، كنّ سبع مطلقات، وأرملتين والباقيات مُتزوجات، ولكن كنا في القارب نفسه أو التصنيف ذاته – نساء تجاوزن الخمسين – كما لو أن يافطة معلّقة على جبين كل واحدة منا، وقد كُتب عليها امرأة في الخمسين. بدأت فابيولا الكلام كانت تملك سحراً مميزاً تجعل كل من حولها مشدوداً باتجاهها، قالت إنها فكرت أن تؤسس جمعية للنساء اللاتي تجاوزن الخمسين لأنها اكتشفت أنها لم تكن سعيدة في حياتها كما هي في الخمسين، وأنها تسمّي الخمسين عمر التحرر من الأوهام، وأنها تمكّنت من إفراغ ذاتها أخيراً وتقييم ما عاشته. قالت إن المرأة في هذا العمر تمتلك الحكمة ولا يمكن لشيء أن يخدعها، والأهم أنها لم تعد مضطرة لخداع ذاتها مهما كانت الأسباب، ففي هذا العمر يصبح من حق المرأة أن تعيش لذاتها، أن تتملص من الأدوار التي سُجنت بها تحت مسمّيات ومقدسات عديدة لا تجرؤ امرأة على التشكيك بها، وبأنها جادة بتأسيس جمعية الخمسين كما أسمتها، والانضمام إليها يشترط أن تكون المرأة قد تجاوزت الخمسين، وقالت إنها تشعر بأنها تمشي نحو ذاتها الحقيقية، بعد أن عاشت تخبطات عديدة ومتنوعة في حياتها، وأنها لم تعد تخشى

مواجهة ذاتها، فقد شفاها التأمل العميق في ما عاشته والشعور بالانعتاق الذي قدمته لها سنواتها الخمسين من كل الخيبات والمرارات التي خاضتها، إنه عمر المصالحة مع الذات، وعمر تدشين بداية جديدة للحياة. قالت إنها تشعر أنها تُقلع نحو حياة جديدة حقيقية بعد أن سخّرت كل تجاربها السابقة وما عاشته لتدشّن مرحلة جديدة من حياتها وتؤسّس جمعية الخمسين، وأنها تأمل أن نملك حماستها ونتفق معها بأن الخمسين بداية الحياة الحقة. طلبت فابيولا منا أن نقدم لها رؤيتنا الخاصة لمشروعها، وأن نكون صادقات في البوح بما عشناه وأحسسناه، وأن اعترافاتنا ستكون بمثابة حجر الأساس لتدشين رؤية شجاعة وجديدة للحياة، وستكون منارة للأجيال القادمة كي تتفادى أخطاءنا.

مع كؤوس العصير المنعش بدأنا نشعر أن ما قالته فابيولا ليس مُزاحاً ولا مجرد زيارة تعقبها لقاءات أخرى بهدف تبديد الوقت، ولن نشبه أبداً النساء اللاتي يجتمعن كل فترة للعب الورق ولقتل الوقت والحياة طوال ساعات. في كلام فابيولا ما يُقلق، ما يستفزّ، وما لا يُمكن تجاهله. نساء في الخمسين، عبارة أشبه بالصمغ تلتصق بتلافيف الدماغ، عبارة تدعونا للتوقف والتأمل وتجعل مشاعر متضاربة ومتناقضة تخضنا، الخمسون ذروة، قد يكون ما بعدها انحداراً أو ارتقاءً

إلى مستوى لا نتوقعه، وهذا ما آمنت به فابيولا، كيف نجعل من هذه الذروة وسيلة أو طريقة للارتقاء، في كل جلسة سوف نستمع لشهادة امرأة أو امرأتين وسنناقش ما عاشته، اعتمدت القرعة ومزجت الأوراق الصغيرة المطوية وقد كُتبت فيها أسماءنا، وطلبت مني أن أسحب ورقة، فكانت وفاء. تحلقت أنظارنا على سيدة أنيقة، ضحكت مداريةً مفاجأتها وقالت: يا لحظي! أن أكون أول من تبوح وتعترف، لكنها تململت وأشعلت سيجارة خفيفة النيكوتين وقدمت نفسها بأنها لا تزال متزوجة، وعمر زواجها ربع قرن.

وفاء

اسمي وفاء، كم صار هذا الاسم يثير في نفسي السخرية، لأنه – ويا للعجب – اسم على مُسمّى، إذ عشت عمري أو لأكن أكثر دقة عشت سنوات زواجي وأنا وفية لهذه المؤسسة، بلغت منذ أيام الثالثة والخمسين، وحين أنظر إلى حياتي أصاب بالذهول، صدقوني هذا الشعور جديد، يمكنني حصر ذهني وتحديد بداياته، إذ أنني وجدت نفسي فجأةً في حالة غريبة من الذهول والغرابة، كما أنني مُغلّفة بورق سيلوفان أو موضوعة في قفص زجاجي وقد عُزلت كلياً عن العالم الخارجي، انتابتني هذه الحالة الغريبة وأنا في أوج انهماكي بخطبة ابنتي جود، جود المهندسة الجميلة ذات الأربعة وعشرين عاماً والتي أحبت شاباً يكبرها بخمس سنوات، تاجراً ومن أسرة مرموقة، وكنا سعداء، كلنا كنا سعداء، والدها وأخوها وصديقاتها والأقارب والمعازيم، وسط مهرجان الفرح والحفاوة، وأنا الأم التي يُفترض أن تكون الأكثر سعادةً وأن أذرف دموع الفرح، وجدتني أنسحب من الجو الاحتفالي وأحس بضيق كما لو أنني أختنق، وفعلاً شعرت بالاختناق ولم أبالِ حين فككت حمّالة نهدَي عساي

أحس براحة أكبر في التنفس، لكن إحساسي بالضيق وبمشاعر غريبة انقضّت علي من الخوف والقلق والرغبة بالهروب، أكثر شعور هيمن علي وأنا في قلب الاحتفال بخطبة ابنتي هو الرغبة بالهروب، كنت أتخيل أنني أفرّ خارج هذا البيت الذي عشت فيه أكثر من ربع قرن، أركض وأركض وأظل بحالة ركض حتى أصل إلى اللانهاية، وعزوت اضطراب مشاعري وما أحسّه إلى التعب، فتنظيم حفلة الخطوبة والدعوات واختيار الألبسة الأنيقة لحفل الخطوبة مهمة مُرهقة، كنت أنظر إلى ابنتي فأراها سعيدة مُشرقة عاشقة، وأسقط عليها روحي، أتخيل أنها ستعيش ما عشته وستشعر بما شعرت به، كانت خطوبتها أشبه بصفعة مدوية لي كي أواجه حقيقة ما عشته، كي أتمكن من إجبار نفسي على الفهم الصحيح لمشاعري طوال هذه السنوات وأنا أعيش مع رجل اسمه زوجي واسمي زوجته، وما جمعه الله لا يُفرّقه إنسان، ربما هذه العبارة الواردة في الإنجيل حفرت عميقاً في روحي ووجداني. قرأت ذات مرة أن كثيراً من الناس تسيطر عليهم عبارة قرأوها ويعيشون كل عمرهم تحت تأثيرها، وأظن أنني من هذا النوع، إذ كان الزواج شيئاً أشبه بالأبدية، مؤسسةً لها أولوية الاستمرار من أجل الأولاد، رابطاً أزلياً وأبدياً بين امرأة ورجل تبادلا نذور الزواج أمام المذبح. تجرأت

وقلت لنفسي إن كلمة مذبح ربما مُشتقة من الذبح. عشت عمري مع زوجي تعيسةً لكنني أوهم نفسي أن تعاسة الزواج طبيعية، وأن تعاستي ما هي إلا ضريبة يجب أن أدفعها من أجل سعادة أولادي الذين أعبدهم، بل إنني في مراحل كثيرة من حياتي كنتُ أوهم نفسي أنني سعيدة. كان زوجي رجلاً ناجحاً وعاشقاً لنفسه وشديد الإعجاب بمزاياه، لم ألتقِ شخصاً مُعجباً بذاته ويعشقها مثله، وكنت أعتبر أن من واجبي أن أشاركه هذه المشاعر وأن أطريه دوماً، كان مستعراً بحب الظهور ويريد أن يكون محطّ الأنظار في كل مكان، وكان يؤمن أن كل شيء مُباح له. تصورن زوج يقول لزوجته: كل شيء مُباح لي! وهي تنصت إليه صامتة، دافنةً روحها وكرامتها في الصمت. كان يؤمن أن من حقه بعد يوم عمل شاق أن يسهر حتى الفجر أو حتى ساعة متأخرة من الليل مع شلّة الأنس – كما يسميها – ويجد أن دوري الطبيعي أن أبقى مع أولادي الصغار الثلاثة الذين أنجبتهم بفارق سنتين بين كل طفل وطفل. كان يملك مزرعة دواجن ومقلعاً للرخام، ويهب كل وقته واهتمامه لعمله والنجاح الكبير الذي يحققه والأرباح الطائلة التي يجنيها، وكنت أتفرج على نفسي كيف ينزلق بي الزمن يوماً بعد يوم وسنة تلو سنة والمشهد ذاته يتكرر أبداً: أنا في البيت مع أولادي

الثلاثة، أتحمّل مسؤوليتهم وحدي، أتابع معهم دروسهم وأعتني بهم وأصحبهم إلى الطبيب أو مدينه الملاهي أو السينما، نسافر من حين إلى آخر في رحلات سياحية نادراً ما يكون زوجي معنا بحجة العمل، مع أنه كان يسافر مراراً إلى أوكرانيا وماليزيا بحجة العمل، وكنت أعرف بحدسي أن هذه الأسفار ما هي إلا سياحة جنسية، وفي المرات القليلة التي ثرت فيها وقلت له إنه يجد الوقت ليسافر مع أصدقائه لغاية معاشرة العاهرات ولا يجد الوقت ليسافر مع أولاده أو يهديهم وقته واهتمامه كما يُفترض به كأب، جنّ من الغضب وأمسك نفسه بصعوبة عن ضربي وذكّرني بالحقيقة الوحيدة التي يؤمن بها والتي علي أنا بدوري أن أؤمن بها إن أردت لهذا الزواج الاستمرار وإن كنت حريصة على سعادة أولادي وألاّ يحصل طلاق بين أمهم وأبيهم: كل شيء مُباح لي، هل تفهمين؟ وفهمت، لأن كل كياني كان ككبش فداء على مذبح الأسرة، لقد غيّبث نفسي تماماً وأصبحت زوجة وأم، وكنت أتماهى مع أولادي وأغرق في تفاصيل حياتهم كي أنسى ذاتي، كي أفقد ذاكرتي وأنسى المرأة التي كنتها قبل الزواج، لكن لم أستطع أبداً أن أخنق شعوري بالتحسّر الدائم على نفسي القديمة، نفسي التي أتخيّلها شابة مُفعمة الحيوية واثقة بالحياة وسعيدة، لقد خذلت تلك الشابة وتركتها وحيدة

على رصيف الحياة، وبعت نفسي لرجل، لزوج شديد الفخر بتجاهله للأخلاق حين يتعلق الأمر به، وبأنه يسجنني في قفص جميل أنيق تخنقني تحفه الباهظة الثمن. لا أنكر أنني أتحمل جزءاً كبيراً من المسؤولية، فأنا مسؤولة عن تعاستي لأنني كنت أرتعب من فكرة الطلاق، إذ كنت شديدة الحرص على مهابة التقاليد، وكنتُ أبجّل نفسي لأنني أم، يكفيني هذا الشرف، يكفي أنّ أولادي ناجحون وسعداء. الآن أشك أنهم سعداء، لأنني أعتقد أن الطفل يشعر بتعاسة أمه مهما حاولت أن تتظاهر بالسعادة، ابني الأصغر كان يرنو إلي ويسألني: ماما تبدين حزينة! فأردّ عليه ضاحكة: يا حبيبي أنا متعبة فقط، مجرد تعب. هل كان يصدقني؟ لقد عشت أياماً من التوتر الشديد والاضطراب الذهني لدرجة أنني كنت أتخبّط في أفكاري فلا أعرف أن أميّز هل أنا في النعيم أم الجحيم، فمن زاوية تأمّل حياتي مع أولادي الذين أعبدهم كنت أشعر أنني في النعيم، وحين أتأمّل يباس روحي وتعاستي الزوجية أحس أنني في الجحيم، ربما كنت في النعيم والجحيم معاً. لم يكن زواجي سوى موتاً روحياً لي، سَحقاً لتميزي وخصوصيتي من أجل الواجب. رجل استبدّ بي تحت شعارات الحب والأسرة وقدسية الزواج، وهو لا يقدّس سوى نزواته ولا يُحب إلا نفسه، وأنا قبلت أن أدفع

الضريبة، أن أضحّي بنفسي. الزلزال الذي تفجّر في نفسي في حفل خطوبة ابنتي جعلني أعيد إحياء كل ما عشته، كنت أتأملها مذعورةً أن تعيش ما عشته، أن يدمّر الزواج روحها كما دمّر روحي. أن تُستعبَد وتضحّي بذاتها تحت شعارات مزدوجة المعايير، مُبطنة بغايات مدمرة للروح: الأمومة. كوني أماً وافتخري، كوني أماً وكفى، كوني أماً وموتي روحياً. بعد نهاية حفلة الخطوبة كنت بحالة مُريعة من التوتر، هربت إلى فندق وأقفلت تلفوني الخليوي، أخبرت أسرتي أن بي حنيناً مفاجئاً للنوم عند أمي، ولم أبالِ إن اكتشفوا كذبي. في غرفة الفندق كنت بحالة نصف صحو نصف نوم، عصفٌ من الصور تنهمر أمامي وتُدخلني في دوار، اشمئزاز فظيع من حياتي أخذ ينمو كفطيان يطفو ويعلو في روحي، كنت أريد أن أتقيأ حياتي الماضية، السنوات الطويلة الطويلة المُعفّرة بالتعاسة والتضحية بالذات، كنتُ عبدة ولم أكن زوجة ولا حبيبة، حتى علاقتنا الجنسية كانت مُريعة، فما أن تبدأ مشاعر لذتي بالتكون حتى تنتهي لذته ويتنهد مرتاحاً منتشياً ويتركني تحت ذلّ لذة تُجهض كل مرة. وكنت أخجل أن أصارحه بما أشعر بل أتركه يعتقد أنني سعيدة ومنتشية مثله، لم أكن أولي أهمية لعلاقتي الحميمة به لأن كل شيء في حياتي معطوب، لم تكن بيننا متعة المشاركة، كان في

عالمه وتجارته وعاهراته وأنا في عالمي مع أولادي الذين أردت أن أعوّض خسائري من خلال نجاحاتهم، لكن خسارة الروح لا يمكن تعويضها، ولا يمكن لأحد أن يعوّض أحداً عن خسائره، الأمر أشد تعقيداً من مجرد خسائر، ثمة موت روحي أصابني، إحساس بالقهر والمهانة والاستعباد، كان كل كياني في دوامة، ورغم اختلاط مشاعري وتخبّطها فإن الشعور الذي طغى أخيراً هو الاشمئزاز، ومع طلوع أول شعاع للفجر كان قراري قد تشكّل: الطلاق. ستتزوج ابنتي بعد شهرين، سأنتظر حتى تتزوج وأطلب الطلاق، ابني البكر يدرس في ألمانيا والصغير سيسافر إلى السعودية ليعمل في شركة نفط، انتهى دوري كأم، انتهت مرحلة استعبادي من قبل سيد اسمه الزوج. حين اتصلت بي فابيولا وقالت إنها تريد أن تؤسّس جمعية لنساء في الخمسين أو تجاوزنها بسنوات، شعرت بحماسة كما لو أنني أمسكت طرف الخيط الذي سيقودني إلى ذاتي الحقيقية التي خذلتها ذات يوم وتركتها وحيدة على قارعة رصيف الحياة، الآن معكن صديقاتي سأعاود البحث عنها، أتمنى أن أجدها، لا أعرف ماذا سأقول لها وكيف سأعوّضها، المهم أن أجدها. هذا هو المهم...

اختنق صوت وفاء بالدموع التي سالت من عينيها العسليتين الجميلتين، كانت عيون نساء خمسينيات

تذرف الدموع، ومن كل الحناجر تعالت أصوات: رائع يا وفاء!

وجدتني أكتب في تلك الليلة، بعد سماعي شهادة وفاء، أن كل كياننا كنساء يتألق ويتحقق بأروع صورة حين نتجاوز رعب القفزة. شهادة وفاء ليست مجرد اعتراف لما عاشته وأحسته، ليست مجرد قصة ترويها امرأة لأصدقاء، شهادتها أشبه بمن ظلّ طويلاً يرنو إلى البحر ويخشى أن يرمي نفسه فيه، بقي طويلاً على الشاطئ يُصارع خوفاً ويُذكّر نفسه بأن الشاطئ أكثر أماناً من بحرٍ غامض يضمّ في أعماقه أسماكاً مُفترسة، وأنّ مياهه الغدارة قد تتحول إلى دوار تبتلع من تريد، ولكنه في الوقت ذاته يحس بإغواء أن يرمي نفسه في بحر الحياة، ما قيمة حياة دون مغامرة، دون قفزات في المجهول، تجاوزت وفاء مخاوفها ورعب القفزة الأولى في بحر الحياة، جمعت سنوات حياتها الزوجية التي تزيد عن ربع قرن في كيس كبير وألقته خلفها، وقررت – وهي في عقدها الخامس – أن تبحث عن ذاتها وأن تعوّض تلك الفتاة التي كانتها عما خسرته، شعورها بأنها قدمت ذاتها وتميزها قرباناً على مذبح الزواج. لم أنم تلك الليلة، بقيت أخربش على الورق وأكتب عبارات غير مترابطة، وكتبت عدة مرات ما قالته: المذبح من الذبح. فكرتُ أن إحساس النساء بعجزهن عن فعل ما

يرغبن قد يكون أكبر محرّض لهن على كسر تلك الحواجز، عاشت وفاء عمرها تحاول تجاهل إحساسها بالعجز عن أن تكون ذاتها، لكن هذا الإحساس الدائم والذي يعمل في لاوعيها جعلها تنفجر بثورة حقيقية في يوم كانت تتوقع فيه كل شيء عدا تفجّر ثورة أعماقها، يوم خطوبة ابنتها، ابنتها التي جسّدت لها بطريقة ما ذاتها قبل أن تتلو نذورها على المذبح، قبل أن تقبل أن تلبس شخصية الأم والزوجة المُفصّلة للنساء كما تُفصّل الثياب. وعت في ذلك اليوم هول اليقظة، رأت النور المُبهر للحقيقة، وكيف عاشت عمرها وهي تثابر على تجاهل كآبتها، عاشت سنواتٍ طويلة في مؤسسة الزواج المقدسة تحت وطأة عبارة: ما جمعه الله لا يفرّقه إنسان، والزواج سرٌّ مُقدس، في حفل خطوبة ابنتها تفجّر من أعماقها إحساس مُرعب بأنها امرأة من سراب، وتجمّعت كل أحاسيسها وأفكارها في بؤرة واحدة وهي أنها امرأة من سراب رغم كونها تفانت في تربية ثلاثة أبناء، رغم أنها تزهو وهي بكامل أناقة كآبتها بأن الجنة تحت أقدام الأمهات، كانت تخشى الاعتراف بأنها لا تريد هذه الجنة، بل تهفو روحها إلى جنّةٍ أخرى لا تعرفها بدقة لكنها تتوق إليها، وشغفها بتلك الجنّة الغامضة والتي لا تزال مجهولة بالنسبة لها أكبر دليل على وجودها. وسط الأضواء المُبهرة

والأغاني الصاخبة والنور المُبهر لعدسات المصورين، وسط حشد من رجال ونساء متأنقين يرقصون ويضحكون، كانت وفاء تدشّن ثورة أعماقها التي تأخرت أكثر من ربع قرن، ووجدت صعوبة في لجم شعور جديد تماماً عليها، شعور مُخيف يُعريها طبقةً تلو طبقة وسنةً تلو سنة، لتجد نفسها في مواجهة نواة أعماقها، تلك النواة التي تكمن فيها صفاتها الحقيقية وليست الصفات المُكتسبة من مؤسسة الزواج وقدسية الأمومة كما زرعوها في دماغها، وسط الحفل المترف الصاخب كانت في ذروة الإحساس بالوحدة، وكانت تحس بصمت جليل ومُقدّس في أعماق كيانها، صمت المخاض، فكرت أن المخاض الحقيقي الذي ستولد منه حرةً وسيدة نفسها ما هو إلا الصمت العميق المتأمل، تأملت زوجها، وأمكنها لأول مرة الاعتراف أنها عاشت معه وهي تكرهه كرهاً له كل علامات الحب، كرهاً يشبه الحب في الظاهر، كيف أمكنها أن تصمت وهو يقول لها: يحقّ لي كل شيء؟!! كيف أمكنها أن تمارس معه الجنس أو فعل الحب المُزيف وهو يُعلمها أنه السيد الذي يحق له كل شيء وهي العبدة التي ليس لها إلا الطاعة والولاء لسيدها؟ لماذا ظلت تغذّي شعورها بأنها تحبه لأنه أب لأولادها، لأنه زرع بذوره في رحمها، ولأنه زوجها الذي تربطها به رابطة مُقدسة؟ يا للغثيان الذي

يعصف بروحها وهي تتأمله يدخن سيجاره الكوبي من أفخر الأنواع ويتباهى ببذلته من الحرير التي اشتراها خصيصاً لحفل خطوبة ابنته، قماش يلتمع بالأضواء لونه يميل إلى الأخضر كلون عفن أعماقه، كيف أمكنها طوال سنوات أن تزيّف نظرتها وأن توهمه أنها مستمتعة وهي تهبه جسداً ميتاً، جسداً من سراب لأنها امرأة من سراب؟ بذلت جهداً جباراً لكبح جماح روحها، رغبت بقوة أن تذهب إليه، إلى الغريب، إلى الزوج لتقول له إنها تكرهه، وإنها عاشت معه مع إحساس دائم بأنه يمسك بتلابيبها يضغط بقوة غير كافية لخنقها تماماً، لكنها كافية لتشعرها أنه سيدها وموجود في حياتها كل لحظة، وأنه القائد. لقد عاشت معه وثمة حياة أخرى تهرب إليها، حياة صنعتها وفبركتها بقوة خيالاتها الجامحة، إذ كانت طوال الوقت تسلي نفسها وتخفف من توترها بأن تتخيل أشكالاً مختلفة واحتمالات كثيرة لما يمكن أن تكون عليه حياتها. لكم تكره تلك الطيبة التي تميزت بها، تلك الصفة الوحيدة التي كان زوجها يمتدحها بها، لم يقل لها شيئاً صادقاً سوى إعجابه بطيبتها، طيبه قلبها الكبير، لقد وعت تماماً معنى تلك الطيبة، إنها تعني تحديداً أن تكون كالإسفنجة تمتص وتمتص كل شيء، أن تصمت ولا تعترض بل تواجه كل شيء بابتسامة، ابتسامة أبعد ما

تكون عن السعادة، بل ابتسامة العاجز الذي يعرف أنه سيخسر معركة المواجهة مع خصم أقوى منه. احتاجت وفاء كل تلك السنوات كي تحلّ لغز وجهها الذي تتبدل ملامحه تماماً حين تكون وحدها، تشعر كيف تهبط غمامة من الأسى على وجهها وتُغلّفه كقناع، وجهها الحقيقي هو الأسى، حزن إنسانة ضيّعت ذاتها وأهملت نواة أعماقها التي كانت يُمكن أن تتفتح على نبته فريدة متأنقة بجمالها الخاص وشذاها المميز.

وفاء أجبرتني على أن أواجه ما لا أجرؤ حتى بيني وبين نفسي على مواجهته، صدقها وشجاعتها أصاباني بالعدوى وحرّضا في رغبة البوح بالحقيقة، لأن لا قيمة لما عشناه وخبرناه إن لم يتعمّد بالحقيقة، كم من أحداث دفنتها في قاع روحي واعتقدت أنني تحررت منها، وأنّ لا قيمة لها، ألم أكن أنا أيضاً امرأة من سراب؟ هل أجرؤ وأعترف بتلك التجارب التي مررت بها؟ لكنني أرغب – كما رغبت وفاء – وكما ترغب كل النساء اللاتي التقيتهن في جمعية الخمسين أن نقشر أنفسنا طبقةً طبقة لنصل إلى حقيقتنا المطمورة تحت ألف حجاب وحجاب. ترى هل سأتمكن من البوح بحقيقة تجاربي حين يحين دوري في جمعية الخمسين.

إبتهال

تأخذ إبتهال نفساً عميقاً قبل أن تبدأ كلامها، وفي كل محطة تتوقف عندها غارقةً في صمت متأمل، تستأنف كلامها من جديد بسحب شهيق عميق من أعماق رئتيها، كما لو أنها تحرك أحاسيسها وأفكارها الدفينة. بدأت شهادتها بأن رفعت يديها وباعدت بين أصابعها وقالت وهي تضحك هازّةً يديها إلى الأمام والخلف: خمس وخمسون سنة، ضحكت وأردفت: ٥٥ سنة بعيون الشيطان. تعلقت العيون بإبتهال لأنها سيدة مشهورة، كانت إحدى أشهر الممثلات وأدت أدواراً مميزة، لكنها انطفأت فجأةً وغابت عن الساحة الفنية، لذا شكّل حضورها في جمعية الخمسين حدثاً مثيراً. لا تزال إبتهال جميلة وتوحي أنها في الخامسة والثلاثين، وبدت تحاول جاهدةً إخفاء حزن دفين يرتشح في ملامحها وصوتها، لم تشأ أن نلاحظ حزنها ولكنها ما أن بدأت بالبوح حتى فاجأت نفسها كيف بدأت كلامها: الحزن يجذب الحزن، هذا ما أحسّه، من لقائي الأول بكنّ أحسست بذلك الجاذب الخفي الذي يجمعنا، أعرف أنكن جميعاً متلهفات لتسمعن اعترافي ولماذا اختفيت فجأةً من عالم التمثيل! تاخذ إبتهال نفساً عميقاً وتقول

كأنها تغوص في أعماقها: في الواقع الحقيقة مُحزنة إلى حد كبير، لكنني اتخذت القرار الصائب، إذ أنني قررت أنني في النصف الثاني من حياتي أريد أن أكون ذاتي، هذا إذا افترضت أن الخمسين هو بداية النصف الثاني من الحياة، على كلٍّ الجميع متفق على تسميته منتصف العمر، لأنني عشت النصف الأول من حياتي كما يريدونني أن أكون، كما ينظرون إلي، لقد عشتُ حياة إنسانة أخرى وليس حياتي، لا يمكنكن التصور كم أنا نادمة على السنوات التي لم أكن فيها ذاتي، وكنت سجينة ذعر يسيطر على قلبي بأن أخيّب أملهم وتوقعاتهم مني، وأقنعت نفسي أنهم على حق وأنني مُعقّدة ومدللة لأني أحس بوحدة قاتلة، ولأنه يبدو لي أن من المستحيل أن يفهم رجل أعماق امرأة. لقد نجحوا في إحداث صدع كبير في روحي وصرت أقنع نفسي طوال الوقت أنني تلك المرأة النجمة المتألقة، أنني امرأة أخرى، كم أشفق على نفسي الآن وأنا أستعيد تلك الجهود الجبارة لإقناع نفسي أنني امرأة أخرى! كنت أنظر إلى حياتي وإلى ذاتي بعيون الآخرين، وأذكّر نفسي مئة مرة في اليوم بأنني بخير، بينما أنا في الحضيض مهدودة القوى روحياً ومعنوياً، وأظن أن الطنين المُزعج الذي عانيت منه لسنوات في حياتي سببه ليس إلتهاباً في الأذن الداخلية كما شخّص الأطباء

بل لأنني لم أرغب بسماع صوت الحق. لكن تبيّن لي أن صوت الحق لا يُمكن إسكاته مهما بلغ منا الضلال، كنت أعرف طوال الوقت أن نجاحي مُزيّف لأنني لم أكن أنا، وأدمنت على الكحول والأدوية المهدئة كي أتمكن من التعايش مع هذا الفصام الرهيب بين ما أعيشه وأتظاهر به وبين حقيقتي، لقد نجحوا في جعلي مهووسة بذاتي، وأكّدوا لي أن الهوس بالذات هو طريق النجاح، زجّوني في منافسات ونمائم قذرة مع زميلات وزملاء من الممثلين، وببساطة حوّلت نفسي إلى عاهرة، فلكي أحصل على البطولة يجب أن أضاجع المُخرج أو المنتج وأحياناً كليهما، وارتبط بذهني مُنعكس أشبه بالمنعكس الشرطي لبافلوف بأنّ نجاحي كممثلة والعهر وجهان لعملة واحدة، وفي اللحظات التي كانت الصحافة تلاحقني وتلتقط لي الصور كممثلة ناجحة، كنت أسمع صوتاً أشبه بالنحيب في أعماقي، صوتاً يرثيني. وكنت أشمّ رائحة العهر حولي، مرّغت جسدي في وحل العهر مزورةً مشاعري بأنني أعيش نجوميتي وبأنني عاشقة ومعشوقة. تعرّضت للاغتصاب ولم أشأ أن أعترف بيني وبين نفسي أنه كان اغتصاباً. كان مُنتجاً فاحش الثراء، في عقده السادس، ومن أكثر المنتجين شهرةً في عالم السينما، وكنت أطمح للعب دور البطولة، وأثق بموهبتي في تجسيد الأدوار بنجاح وتميّز. سوف أحكي لكم

بالتفصيل حادثة الاغتصاب، لكن المُريع في القصة أنني زوّرت مشاعري وبرّأت رجلاً اغتصبني، لم أصرخ في وجهه وأقول له: أنت سافل وقد اغتصبتني، إذ أنني أكّدت لنفسي أن العين لا يمكن أن تقاوم المخرز، وأنا كنت مجرد شابة فقيرة في الثالثة والعشرين تبحث عن فرصة في الحياة وعن نجاح تؤمن أنها تستحقه، وهو كان المالك، الرجل الذي يملك المال ويتحكّم بمن حوله ويلهو بهم كما يريد، يرفع من يشاء ويُحطّم من يشاء. أول مرة التقيته كنت ألبس تنورة كحلية وقميصاً ورديا أزراره ذهبية، وكنت مسعورة ألهث للحصول على بطولة فيلم "حياة ريتا". كنت قد قرأت السيناريو وآمنت أنني سأبدع في تجسيد شخصية ريتا. المُخرج الذي كانت أصابعه تلامس جسدي بحرية المالك قال لي: الأمر ليس بيدي، إنه يفرض دوماً بطلة الفيلم. مسّني هوى المغامرة وأردت مقابلة المُنتج. تصورن من اللحظة الأولى للقائي به في مكتبه الفخم قام من وراء مكتبه وضمّني بقوة بين ذراعيه قائلاً ولفح أنفاسه الساخنة يحرق أذني: ما أجملك! شعرتُ أنني أغوص في كرشه وصدره العريض، وأمرت نفسي ألاّ أتملص من ذراعيه لأن الأمر يستحق التنازل فأنا أسعى وراء طموح كبير وسأصير نجمة، ممثلة صف أول. تحسس نهدَي وأردافي ومؤخرتي، انتفضت وقلت له وأنا أتهاوى من

المفاجأة والمهانة التي امتصصتها بابتسامة: ألن تسمح لي بالجلوس؟ قال وقد حررني من أسر ذراعيه: طبعاً طبعاً. نظر في ساعته وقال إن لديه موعداً هاماً ولكنه ينتظرني في جناحه الخاص بالفندق لنتعشى معاً. وجدتني ألهث وأقذف سؤالي كما لو أنني أركع عند قدميه متوسلةً: أردت أن أحدثك عن الفيلم، عن دور ريتا. ضحك وقال: اعتبري نفسك منذ اللحظة ريتا، هل تحبين أن أناديك ريتا؟ خفق قلبي بقوة وقمت ألثم يده، قرفت من نفسي، قرفت من تلك الإنسانة الوضيعة التي ارتضت أن تكون عبدة وتعهّر روحها كي تتألق على الشاشة، وفي اللحظة التي لثمت فيها يده امتدت أصابعه التي أحسستها كشبكة عنكبوت لتندسّ في حمالة نهدي وعصر ثديي بقوة. ارتجفت وأنا أسمع صوت ارتطام أزرار قميصي على الأرض، ولولا صوت ارتطامها لما عرفت أنها تقطّعت. إذاً إنه ينتظرني أهديه جسدي ويهديني البطولة، ثمة وقت للتراجع، ثمة وقت لأنجو بنفسي من عالم العهر والشهرة الزائفة، لكنني سأذهب إليه، أعرف أنني سأذهب مطوحةً بصوت ضميري اللجوج الذي لم يتوقف عن التوسّل إلي بأنّ كرامتي أهم من شهرة زائفة يكون ثمنها تعهير جسدي. كنت أعي أنني صرت كحيوانٍ مسعور يلهث وراء الشهرة، ولا أبالي بالأهوال التي تنتظرني ولا بالآثار

المُدمّرة على روحي، أخرست صوت ضميري كما لو أنني أركل بوحشية كائناً لطيفاً مُسالماً يُحبني ويحرص علي، وحين وقفت عند باب جناحه الفخم في الفندق سمعت عويل أعماقي التي بدأت تندبني عارفةً أي موتٍ روحي ينتظرني، ومحاوِلةً محاوَلةً أخيرة يائسة أن تنقذني من نفسي، طرقت الباب فاختفى للتو صوت العويل. كان يرتدي روباً حريرياً لم يُحكِم وضع حزامه، تعمّد أن يكون الحزام رخواً، افترس شفتي فابتلعت لعابه المُقرف المشبع برائحة وطعم كحول مُتخمّر، وتهاويت على الأريكة ألهث، طلبت كأس نبيذ وأشرت بيدٍ مُرتجفة إلى زجاجة النبيذ على الطاولة، كنتُ بحاجة لدعم خدر الكحول، ووعيت بلحظة عبرت ذهني كالبرق أي هاوية أرمي نفسي فيها. قال منتشياً من القبلة المفترسة: ما أشهاك! شعرتُ أنني تفاحة سيقضمها، أحضر لي كأساً من النبيذ فجرعته على دفعتين وأحسست بارتخاء ركبتي، سألني إن كان النبيذ قد أعجبني فقلت له: رائع، صب لي المزيد. وجدتني مترددة هل أسأله متى نوقّع عقد بطولة الفيلم أم أتريث؟ كنت مستعدة أن أفعل كل شيء من أجل الحصول على البطولة، بدت كل حياتي أشبه بسهم يتّجه نحو هذا الدور. قرفص أمامي وأخذت أصابعه التخينة تفكّ أزرار قميصي، انكمشت وغصت في خدر

الكحول، كطريقة وحيدة للهروب، وبدأ يلعق حلمتَي ويعضُهما، فصرخت: ألن نوقّع عقد البطولة؟ قال: قلت لك البطولة لك، لكنني أصررت أن نوقّع العقد، لن أدفع الثمن مُقدَماً، أبعدته عن نهدي بإصرار وببذل جهد خارق، أحسسته كالجبل، كصخرة ثقيلة ترزح على صدري، قام ووضع قرصين في فمه ففاحت رائحة النعناع في الغرفة ممتزجة مع رائحة شهوته الزنخة، أحضر العقد فقرأت أنه يُسند دور البطولة لي وطلب إلي أن أوقّع. كان القلم لا يزال في يدي حين امتدت يداه بإصرار لنزع تنورتي، كان ينخر وهو يبرطم بكلمات ميزتها بصعوبة: سحرتني يا شيطانة، أموت عشقاً بامرأة مثلك، أنت النوع المُفضّل لدي من النساء. اشتبكنا في عناق أو لعبة، تذكرت ألعاب الطفولة حين كنا نشتبك بعراك بالأيدي، كان الاغتصاب قد بدأ ولكني، لسذاجتي وذهولي وإحساسي بوجوب دفع ثمن توقيعي لعقد البطولة، زوّرت مشاعري واعتبرت أن ما يحصل مجرد غزل، وأن كثيرات سبقنني لدفع هذا الثمن. كان قد شحذ قواه واعتمد خطة الهجوم الكاسح الذي يُباغت الفريسة ويشلّها ويجعلها غير قادرة على المقاومة، يمناه تهرس مؤخرتي ويسراه تطوق خصري وتمتد كأخطبوط يهرس نهدي، كان يفترسني، وكل حركة يقوم بها تُشعرني بألم الانتهاك والقرف، كانت

شهوته كإعصار من المستحيل مقاومته، شهوة تكتسحني كطوفان، ولم أجد وسيلة لمقاومته سوى الإغراق في الذهول وأنا أهذي كببغاء: ما هذا، ما هذا... كنت أحدّق مذعورةً في عينيه، أحسستُ نظراته تحفر أثلاماً في وجهي، عينان ميتتان لا تحملان أي تعبير، مُعتمتان بعماء الشهوة، وجدتني أنفصل عن ذاتي وعن المشهد، أقف وسط الصالون أتفرج على جسدي المُستباح وقد أطبق عليه كوحش ليفترسه، اعتقدت أنني لا أزال قادرة على صدّ الغزو، وأن تكراري لعبارة: ما هذا، أشبه بتعويذه ستقيني منه. كان يريد الإسراع في التهامه لي قبل أن أجد وسيلة لأتملص من ذراعيه، يبدو أنه مُعجب بأسلوب المُباغتة والصدمة، فهي الطريقة الأنجح في شلّ الفريسة، مُدججاً بنفوذه وسطوته صرخ بي بصوتٍ مزلزل حين أخذت أقاومه: كفى، كفى تمنّعاً، وزجرني فيما يعرّيني بإصرار أن أتوقف عن مقاومته، وبدأ إحساس غريب من الوهن والشلل يسيطر علي، ولم أفلح في مقاومته لأنه يمارس سلطة علي، سلطة سيد اشترى عبدة وعليها أن تدفع الثمن وتقدّم الخدمات المطلوبة منها. هل نجح في أن يهيمن علي ويجعلني أؤمن بأنه الرجل الذي لا يُرفض؟ انهمرت حوادث كثيرة في حياتي تذكّرني أنني عشت أحداثاً كثيرة مقموعة ومُغتصبة دون اغتصاب،

وموجوعة دون صفعات، ومُعنّفة دون كلمات، ومسلوبه الحرية والكرامة تحت ستار من أرقّ الكلمات. بدت لي علاقتي به تتويجاً لسنوات من القهر والذلّ والظلم، لذا فحين حاول أن يدسّ عضوه بين فخذي تهاويت، أحسستُ بوهن عجيب أشبه بالموت، وكدت أسقط، ربما من خدر الكحول والصدمة معاً، سحبني إلى السرير العريض عارية، وثمة رعشات هلع تعبر جسدي كقشعريرة ناعمة، ولم أنتبه لاصطكاك أسناني، لكن – ورغم بؤس حالتي – برقت بذهني فكرة، سوف أنتقم منه بأن أتركه يُضاجع جثة، حوّلتُ نفسي إلى جثة هامدة، وتجمّدت عيناي على نظرة فارغة خاوية تبثّ احتقاراً صامتاً، وللحال انكمش عضوه وصار بحالة مزرية، فأمرني أن أنعشه بشفتي، رفضت فيما دموع لزجة تنهمر من عيني، فأخذ يتوسّل إلي ويؤكّد لي بأن عضوه نظيف! وأخذ يشتم عضوه لأنه خذله، ولكنه استمر في استعاطفي والتوسّل إلي أن أساعده على إيقاظ عضوه المشلول، لم يعد غازياً ولم أعد مُستباحة، قصد الحمام لينعش سيّده بالمار البارد وتركني مشلولة على السرير، وعجبتُ كيف لم أستغل اللحظة وأهرب كأنني كنت أريد أن أدفع المهانة والانتهاك إلى النهاية، لا يُمكن إيقاف فعل في مُنتصفه، عاد من الحمام راسماً وجهاً جديداً، تركته يداعب فخذي وما بينهما، كنت

أتأمله كم هو مُقرف وعجوز، وفكرت كم هو باهظ ثمن الشهرة والحصول على دور البطولة، بدت ملامحه متهدّلة ومُرهقة، عجوز بجسد ضخم وشبق رهيب، يتمتع بسلطة ونفوذ، أمكنني أن أتخيله في شبابه، وخمنت أنه كان رجلاً جميلاً، أثلج صدري إحساس المهانة الذي يحسه بسبب شلل عضوه، ووجدتني أتعجب من تلك الإنسانة التي صرتها أداعب شعر صدره الكثيف بحنان مقاومةً رغبةً بالتقيؤ، وأنا أواسيه وأقول له: بسيطة، السهر والتعب والكحول كلها تؤثر على القدرة الجنسية. كنت أتحدث إليه وأنا عارية ومُستباحة، وامتدت يدي إلى عضوه الرخو الميت وربتُ عليه كما لو أنني أرأف بحيوان يلفظ أنفاسه، ووجدتني أتماهى في تقمص دور العاهرة حين سمعت صوتي كيف تبدّل إلى صوت مغناج وأنا أسأله: ما رأيك بفنجان قهوة، وثمة شوكولا لذيذه في البراد. جلسنا متقابلين نرشف القهوة ونأكل الشوكولا المرّة، تمدد على السرير مُتعباً وعجبت كيف أخذ صوت شخيره يعلو، نام الوحش. فكرت أن الطعم المرّ للشوكولا هو طعم مرارتي، وغرقت شيئاً فشيئاً في ذهولي: لقد انتهى اغتصابي بمواساتي للمُغتصب!

هل علي أن أجنّد الأطباء النفسانيين وعلم النفس لتفسير ما حدث. كان علي أن أزوّر فعل الاغتصاب كي

أحافظ على الحد الأدنى لاحترامي لنفسي وأنا أمثّل الفيلم، وارتضيت أن أكون عشيقته، وأن أهنّئ نفسي أنه صريع حبي، ومولع بي ولعاً أشبه بالإدمان. أعدتُ تفسير حادثة الاغتصاب واعتبرته حباً جامحاً، بل وجدتني أفكّر بطريقة منحرفة بأنني يجب أن أفخر بنفسي لأنني استطعت أن أهيمن على أهم رجل في صناعة السينما، وحين وقّعت عقد بطولة فيلم آخر عشقت نفسي وآمنت أن أبواب الحظ انفتحت لي على مصراعيها، وكنت أدور منتشيةً في بيتي الجديد الأنيق الذي اشتريته بعد أن قبضت الكثير من المال، وأقول لنفسي فيما ذراعاي مرفوعتان حتى السماء: سأصير فوق فوق فوق. لم أكن أعرف دلالة هذا الحلم الغريب الذي أحلم به كل يوم، حلم لم أستطع ليلة واحدة أن أتملّص منه، أفيق مُجفلة وحلقي جاف وقلبي يخفق في صدري مُتسرعاً من الذعر المختبئ في الحلم، أجد نفسي عالقة في حقل من الأعشاب اللزجة كريهة الرائحة والدبقة، وكلما حاولت التملص منها التفّت حوالي كسرطان البحر الذي يملك ألف ذراع، وازدادت لزوجتها ورائحتها الكريهة، ومع تتالي هذا الحلم وجدتني أغوص في دلالاته وأحاول معرفة الذعر الكامن فيه، وانكشفت لي دلالته فجأةً، فالأعشاب اللزجة الطويلة كريهة الرائحة التي تلتف حول عنقي

تكاد تخنقني ترمز لشعر صدره الكثيف الشاحب الدبق، كان يتعرق كثيراً، ويحمل منشفة دوماً لتجفيف عرقه الغزير، وتذكرت أنه حين انقضّ علي أول مرة وأراد أن يفترسني حاولت إبعاده بأن أدفعه بقوة في صدره، وكيف اشتبكت أصابعي بشعر صدره الكثيف الشاحب المبلل بالعرق، أدركتُ أن فعل الاغتصاب يتجسّد في أحلامي كل ليلة وأنني لن أتمكن من الهروب منه ومن تأثيره الكارثي، لطالما اعتقدتُ أنني طمرت في لاوعيي حادثة الاغتصاب، وأنني وهبت كياني لطموحي كممثلة ونجمة متجاهلةً البداية والثمن الذي دفعته، لقد عهّرتُ نفسي لأصل إلى طموحي، وكل نجاح على حساب الكرامة لا معنى له، بل هو عار. مشكلتي تكمن في اعتقادي أنني تحررتُ من تأثير تلك الحادثة وأنني تجاوزتها، لكني فجأةً أجد نفسي كالممسوسة أنتفض من مكاني وأرمي أوراق السيناريو الذي أقرأه جانباً، وأشعر أن أعماقي تتقصف من مشاعر فظيعة تهزّني كما لو أن صخوراً تتحرك في باطني ويحدث تحركها زلازل، وإلا كيف أفسر ذلك التقصّف المباغت الذي يفاجئني كما لو أنني جبل يتصدع، وكيف أنتفض فجأةً كما لو أن مسّاً كهربائياً أصابني، وأهرع إلى سريري أتكوّر من الألم. في تلك اللحظات أعي في أي وحل من العهر يعوم نجاحي وشهرتي، كيف يمكنني إصلاح نفسي

المُخربة. وأحياناً يستمر زلزال روحي لأيام وأحس كياني يرتجف من حمى الرفض والكراهية للإنسانة التي صرتها، للنجمة المتألقة التي تكتب عنها الصحف كل يوم، وتلاحقها عدسات المصورين، وكيف أمثل بإتقان دور سيدة محترمة، وأحكي ببراعة عن مدى حزني على وجود شبكات تستغل الفتيات الفقيرات وتجرّهن إلى الدعارة، أقرف من نفسي، كل عطوري لا تغطي رائحة عفن أعماقي، أجنّ من الصراع بيني وبيني وأصرخ بكل طاقة حنجرتي: أريد أن أبرأ، أريد أن أبرأ. أهرب إلى الماضي، أقرأ التساؤل في عيونكن صديقاتي: كيف كانت طفولتي، أية تربية تلقيتها؟ ببساطة أجيب أنني لم أشعر أبداً بكرامتي في هذا البلد، وحين أحاول تجسيد طفولتي ومراهقتي بصورة تحضرني دوماً صورة واحدة: أم خرساء من هول المصيبة، أخي يصرخ ويرفس الأبواب والجدران ويضرب رأسه ويشتم، وأنا طفلة لم أتجاوز الرابعة من عمري أبكي وأتعلّق ببنطال بيجامة أبي الذي اعتقله بضعة رجال متجهمي الملامح الثالثة فجراً ولم يسمحوا له حتى أن يلبس ثيابه، غاب أبي وتحول إلى صورة على الجدار، وبقيت لأشهر أبكي وأنا أناديه. بعد اختفائه صارت تنتابني حالات من الذعر، فأقل ضجيج يجعلني أصرخ وأرتجف قائلةً: جاء الرجال، وإذا أرعدت

السماء أبكي فزعاً، وفي المدرسة عرفت مأساة غياب الأب، لم أرَ أبي أبداً، لأن تهمته كانت خطيرة، وبأنه خطر على الأمن القومي لسوريا، ومُتّهم بإضعاف الشعور القومي لملايين المواطنين. غرقت أمي في الصمت والشرود وأصرت أن يسافر أخي ليدرس في اليونان عند أخيها حال حصوله على شهادة البكالوريا، لا تريد لابنها أن يلقى مصير والده في وطن تنعدم فيه الكرامة والإنسانية، عليها أن تتحمل فراق ابنها على أن تراه ذليلاً مُعذَّباً في السجن. مات أبي تحت التعذيب كما علمت فيم بعد، وأصيبت أمي بالسكري بسبب القهر المديد، أثّر السكري على نظرها، وماتت بصمت، سكتة قلبية، دفنتها وحيدة ولم أسمح لأخي أن يحضر من أثينا، قلت له: لم أعد أتحمّل المصائب، إن اعتقلوك في المطار سأنتحر. فكّرتُ أنني عشت عمري في هذا البلد بدون كرامة، ولم أوفَّق بوظيفة رغم تخرجي من معهد التمريض، وعملت لأشهر في مخبر خاص لكن الدكتورة كانت بمنتهى البخل وتعاملني كعبدة، وبدأ حلم الطفولة بالتمثيل يراودني، وتذكّرت إبداعي في التمثيل على مسرح المدرسة، لن أغوص في التفاصيل، لكن السهولة التي سمحت بها للمنتج أن يغتصبني تعود إلى كوني عشت عمري في هذا البلد مع إحساس دائم بانعدام الكرامة.

العين لا تُقاوم المخرز، هذه هي حكمة العيش في سوريا في بلد تحكم قبضة الأمن فيه على رقابنا كما تمسك صوصاً من عنقه وتشلّه، حكمة جعلتني أسلّم نفسي للحياة كأنني أسلّمها للعدم. والله كنتُ أتعجّب من هؤلاء المثقفين والكُتّاب الذين يتغنّون بروعة الحياة في سوريا، فكل ما عشته كان مُمرّغاً بالذل والقهر والخوف، كنتُ أمرر الأيام كأنها ظل لغياب أب وقتله بعد سنوات طويلة من سجنه، كنت أتخيل طوال الوقت حياة أبي في السجن، وأحاول أن أجري مُطابقة بين حياتي وحياته، أخفف آلام روحي حين أتخيل أنني أتناول غدائي الآن وهو يتناول غداءه وأن كلاً منا يُفكر بالآخر. تحول غيابه إلى إحساس دائم بالمهانة والقهر بالنسبة لي، خاصةً بعد سفر أخي وغرق أمي في الصمت، لم تكن تريد أبداً أن نتحدث عنه، لكن صمتها كان أكبر دليل على حضوره، تحول وجودي إلى صدى لغيابه، لا أبرّر لنفسي تعهّرها، وأعرف أن نجاحي زائف كذلك شهرتي، لكن هل كان ثمة خيار آخر أمامي؟ ألا يعني قبولي اغتصابه لي ببساطة بل وبتزوير مشاعري أيضاً بأنه فعل حبّ وليس اغتصاباً؟ ألا يعني أن ثمة فصاماً بيني وبين نفسي، بيني وبين الواقع؟ فبعد أن استعدتُ هذا الاغتصاب بذهني مراراً وبحياد تام عرفتُ أنه ما كان ليحصل لولا إحساسي العميق بالذلّ، وبأن

ثمن العيش في سوريا هو أن تدوس على كرامتك وتبتسم في وجه من يذلونك، وأن التأقلم مع الواقع يعني تحديداً قبولي أن أعيش خاسرةً ومُنتهكة الكرامة، كنتُ تربة مثالية للاغتصاب، لأنني مهزومة سلفاً ولأنني وضعتُ نفسي في خانة المهزومين والمُنكسرين، وضعت نفسي في خانة الصامتين الخائفين، الذين قبلوا أن يتحكّم بحياتهم لصوص سفلة وأصحاب مناصب حساسة، نتظاهر أننا نحبهم ونقدّرهم ونقدم لهم ولاء الطاعة الزائفة بينما أعماقنا تضجّ بالكراهية والاحتقار لهم، أي حضيض وصلتُ إليه!؟ كيف يُقنع الإنسان نفسه أنّ ثمن العيش هو الذل، وهو أن يُضحّي بكرامته؟ العار الأكبر ليس أنني زوّرت فقط فعل الاغتصاب الذي تعرضتُ له، بل قبلتُ أن أقيم علاقة مع مُغتصبي! كان الاغتصاب أشبه بالخلية السرطانية التي غزت روحي وبدأت تتكاثر وتنتشر، أشعر أنني متسمّمة وصرت أقرف من نفسي وأكرهها وأحتقرها وأسخر من نجوميتي، لكنني طوال الوقت لم أكن أشعر أن رجلاً قد اغتصبني بل نظام. تذكّرت يوم استدعاني ضابط الأمن ليحقق معي بتهمة لا أعرف من فبركها لي، بحجة أن تقريراً وصله عني، تركني أنتظر خمس ساعات قي غرفة قذرة، وثمة مُسجّلة خفية تبثّ إلى ما لا نهاية خطاب الرئيس: الوطن غالٍ والوطن عزيز... إلخ. كان

صوت الرئيس المُستمر وبأعلى درجة الأقرب للصراخ يسوطني بلا رحمة، وكدتُ أنهار وأصرخ: كفى كفى. وحين استدعاني أخيراً إلى مكتبه، بعد انتظار خمس ساعات كانت كافية لانهيار أعصابي، وجدته مُبتسماً ابتسامة الشماتة والنصر، تأملت النسرين الملتمعين على كتفيه والنجوم حولهما، وعجبتُ من أمر خيالي المريض كيف أخذ يصوّر لي أشكالاً فظيعة للنسرين يلتهمان حلمتي! هل غطب خيالي؟ هل انتظار الساعات الخمس التي بدت لانهائية أدّى إلى جنوني وإفراز هكذا صور مُقززة ومجنونة؟ غاب وجه الضابط وحلّ مكانه وجه القاضي، الذي ساومني على شرفي كي أربح دعوى الأجار التي رفعتها ضد المؤجّر الذي أراد أن يطردني من البيت، ولم أقبل أن أهدي عذريتي للقاضي مقابل أن أبقى في البيت. خسرت الدعوى رُغم أنني صاحبة حق. لا يمكنني التحدث عن شهرتي التي دفعت ثمنها تعهّري دون التحدث عن خلفية حياتي، عن اعتقال أبي وموته في السجن تحت التعذيب بتهمة أنه يمسّ بهيبة الدولة – كما لو أن الدولة عذراء – ولا عن تجاهل صمت أمي وإصابتها بداء السكري والعمى، ولا عن فرار أخي إلى اليونان خوفَ أن يلقى مصير أبي، كنت وحيدة ومُهمّشة ومُنتهكة الكرامة وسط وطنٍ عهّر كل شيء.

أضحك من نفسي حين أحس أنني محظية للنظام وليس للرجل الذي قدم لي دور البطولة.

كان هوسي بالبطولة والشهرة قد صادرا كياني تماماً، وحين تخلى المُنتج عن إعطائي أدوار البطولة، مفضلاً ممثلة صاعدة عني، وجدتني أبحث مسعورةً عن بديل، كنت في السابعة والثلاثين من عمري، أجتهد كي يبقى مظهري مُغوياً ومثيراً، ولم يطل بحثي إذ تحولت إلى محظية لفنان الشعب، الرجل السبعيني الذي زُسِّخ بالقوة كأحد أهم الممثلين السينمائيين والمسرحيين في سوريا، منذ بداية الخمسينيات وطوال خمسة عقود كان مُكرسَاً كفنان الشعب، نجم سوريا الأول الذي يستحوذ على أدوار البطولة كلها في السينما والمسرح، وكان يتباهى بأنه يشبه قائد البلاد، والأهم كان أحد أهم المتعاونين مع أجهزة الأمن، ولطالما أدت التقارير التي كتبها بزملائه إلى طردهم من نقابة الفنانين، أو سجنهم، أو في أحسن الأحوال تمكّنهم من الهروب من سوريا، كان الممثل المُكرّس بقوة الأجهزة الأمنية، وموهبته تراكمية إن أمكنني استعمال هذا التعبير، وأظنه لكثرة أدائه أدواراً مُتشابهة صار مُتقناً لتلك الأدوار، حديثه المُفضّل هو التباهي بمنبته الفقير وبؤس طفولته ثم الثراء الفاحش الذي حققه، وصرت عشيقته، أنا في السابعة والثلاثين وهو في السبعين، نقلت هذا

الجسد المُنتهك المُتعهّر من مالك إلى مالك، لم يكن يدين بالاحترام والإعجاب إلا لمن ينافسونه قوةً وبطشاً ويثيرون الهلع في نفوس الناس، كان مُتغطرساً واعياً لسلطته وامتيازاته ومولعاً بالسخرية من الآخرين وإهانتهم، كما لو أن جوهر طبيعته هو دفع الناس للانهيار النفسي. لم يكن يؤمن بالحب ويعتقد أن كل النساء يستسلمن لإغواء المال، يحلو له دوماً أن يحدثني عن عشيقاته، بعض العشيقات من الممثلات الصاعدات أو العاملات في الوسط الفني أغدق عليهن المال والذهب، لكن أخريات أذلّهن بمضاجعات مجانية، ولم يُقدم لهن شيئاً. ولا يمكن تجاهل تلك الجريمة التي ارتكبها، حين اغتصب إحدى عاملات النظافة في فندق الشيراتون، كانت شابة فقيرة وحزينة ويبدو أنها كانت تعشق شاباً من طرف واحد، وتعجّب فنان الشعب كيف تقاوم سلطته مجرد خادمة تنظّف غرف الفندق، أذلّها واغتصبها ورمى لها عدة أوراق نقدية، في اليوم ذاته فوجئ النزلاء المتحلقين حول بركة السباحة الواسعة يستمعون للموسيقى التي يعزفها عازف شهير بسقوط جسم على الأرض، كانت الشابة المُغتصبة قد رمت نفسها من شرفة غرفته في الفندق وماتت منتحرة، لكنه جنّد كل من حوله ليشيعوا أن تلك الخادمة كانت

مُختلة عقلياً، ولم يجرؤ أحد على التساؤل: لماذا رمت بنفسها من شرفة غرفة فنان الشعب؟

بعد أن اشتبكت معه بعلاقة صار الزمن يُربكني، كما لو أنني أتعثر بساعات يومي، لم أفهم لماذا صرت أشعر بهوة عميقة بيني وبين نفسي، وبيني وبين طفولتي تحديداً، كنتُ أتأمل أسلوبه المُدمّر في إهانة الناس وتحقيرهم، ثم في مكافأتهم، كما لو أنه يكافئهم على تحمّل الذلّ والمهانة، فمن أعظم متعه إهانة العاملين معه، وكنت أقرف من الإنسانة التي صرتها، من النجمة التي تلعب دور البطولة مع فنان الشعب المُنحطّ أخلاقياً والذي يتعاون بشكل مُطلق مع أجهزة الأمن. لقد استمررتُ بعلاقتي معه ثلاث سنوات، أدرك الآن أن استمرار هذه العلاقة كان بسبب إحباطي وكآبتي، لقد نجح أن ينصب لي فخاً من يأسي نفسه.

رغم شهرتي ونجوميتي فإنني كنت أشعر طوال الوقت أنني أهوي إلى هاوية وأنني أترك نفسي تنقاد لحتفها. لنجاحي رائحة العفن، وكلما زاد بريق نجاحي وتألقي كلما أحسست بالموت يزحف إلى روحي، كما لو أن ثمة علاقة بين نجاحي وموتي الروحي، كنتُ أشعر أنني مؤلفة من طبقات، أو صناديق كاللعب الروسية، كما لو أنني أخفي امرأة أخرى داخلي، وكنتُ أتوق – وأخشى – في الوقت نفسه من معرفة ما في داخلي،

وكنت أشعر أن ثمة بوصلة مُعطلة في داخلي وأن هذه البوصلة قادرة على إرشادي إلى نفسي. ثمة فكرة وحيدة لم أتوقف عن الإيمان بها وهي أنني ذات يوم سأكتشف نفسي، وسأخلع جلد النجمة المشهورة كما تخلع الأفعى جلدها القديم، لم أكن أجرؤ على النطق بكل ما أفكر به، بتلك الأفكار التي تشقّ لنفسها طريقاً كما لو أنها تتسلل خلسةً وسط حشد من القناعات المُضللة الزائفة، بأنني لا أعهّر نفسي بل كل سلوكي يدلّ على ذكاء واقتناص للفرص وشطارة، يا للمرونة الهائلة التي تتمتع بها كلمة شطارة، كيف تخبّئ في طياتها كل هذا العهر وتُجمّله وتزيّنه ليصير شطارة، لم أكن أطيق الليل، أحسه يفترسني كالحقيقة التي تصفعني كل مساء حين أضع رأسي على المخدة، كما لو أن المخدة توشوشني بحقيقتي، يا لقسوة هذا العذاب الذي يدفعني لابتلاع حبوب منومة لأهرب من عذاب لا يرحم، من عذاب لا تستطيع أقوى المُسكنات تسكينه ولا أكثر الأضواء بريقاً تخفيفه، عذاب الضمير. كنت لا أزال أملك ضميراً.

فجأةً أصبت بحالة أو بمرض غريب، إذ صرت أرى كل شيء ميتاً، حتى حين أفكّر في نفسي أشعر أنني ميتة، لم تعد عيناي تريان سوى الموت، قللت من أهمية هذا العرض واعتبرته بسبب التعب من العمل أو موجة

اكتئاب تداهمني، وكل المشهورين والنجوم خاصةً يُصابون بالاكتئاب، ولكن تلك الحالة أخذت تترسّخ وتهيمن علي، ولأول مرة أتجرأ وأكشف جرح روحي. بدت سنوات شهرتي أشبه بجرح طويل، وبدأ توق قوي يولد من روحي للشفاء والسلام الداخلي، وتذكرت عبارة قرأتها: إن استطاعتك رؤية الزائف على أنه زائف هي البداية لرؤية الحقيقي على أنه حقيقي. كل ما عشته من بريق الشهرة والنجاح كان يتراكم داخلي كسموم يجب أن أتخلص منها وإلا قتلتني، ولم أعد قادرة على تحمّل حياتي، لأن الحياة ممكنة بالشرف وليس بالعهر. ووجدتني ودون سابق معرفة أو تصور أدشّن ولادتي الجديدة وأنا في الخمسين، لا يمكنني أن أصف ذلك اليوم، استيقظت مُبتسمة، ابتسامة الشفاء، ابتسامة إنسان كان ممسوساً أو مسكوناً بشيطان تمكّن من طرده، بوصلة روحي التي كانت مُعطّلة بدأت تعمل وتقودني إلى ذاتي، وصرت أدندن بأغنية ابتكرتها بنفسي: خمسون هلل يا ربيع، لم أكن مضطرة للاعتذار للشاعر أبي سلمى حين كتب لابنته التي بلغت العشرين: عشرون هلل يا ربيع. لم أعد أخشى وحدتي ولا أرتعد قلقاً حين أكتشف تجاعيداً جديدة في وجهي، ولا أبالي إن زاد وزني بضعة كيليات، وأعدت للمسمّيات أسماءها الحقيقية، فلم يعد العهر شطارة، ولا النجاح الزائف

شرفاً، والأهم لم أعد أخشى نفسي ولا أن أجلس ساعات طويلة وحيدة أتأمل ما عشته وأذرف دموع الشفاء. قدّمت لي سنواتي الخمسون هدية ثمينة، وهي أن أرى كل شيء بعين الحق، بعين جديدة، قدّمت لي حكمة منتصف العمر بأنه لا يُمكن تغيير أي شيء إلا بتغيير القلب، مركز كيان الإنسان قلبه، وكان قلبي مُتورّماً ومريضاً بسرطان الشهرة والمال والأضواء الزائفة، لم أكن أملك قلباً إنسانياً، بل أشبه بإسفنجة شرهة لا ترتوي، تمتص وتمتص ولا تشبع، لم يكن قلبي سوى دودة علق لا تتوقف عن امتصاص الدم والتورّم حتى تنفجر صريبعة شراهتها. كنت قد وصلت إلى التوتر والتورّم الذي يسبق الانفجار بلحظة، إلى أن مسّتني نعمة أو معجزة، إلى أن ظهر لي وحيّ سماوي كذلك الذي هبط على بولس الرسول وحوّله – بعد أن عانى صدمة الحقيقة والإيمان الحق – إلى أشدّ المدافعين والمؤمنين بالمسيحية، عصا سحرية مسّتني في ذلك الصباح حين أكملت نصف قرن من عمري، كانت مشاعر فائقة العذوبة تغمرني، وشعرتُ بقوة غريبة مُذهلة لا تشبه أي إحساس تزهر في قلبي وترمي بذورها فيه، وسرعان ما تتحول هذه البذور إلى زنابق تتباهى بجمالها تضاهي زنابق الملك سليمان في أناقتها، يا لروعة الشفاء، كم أتوق للطهارة، الطهارة الحقيقية

هي طهارة الروح، أصبحت ثورة دائمة، ثورة على كل ما كنته، كم كانت تمرمرني نجاحات الآخرين، وكم نهشت الغيرة والحسد أعماقي، كم لهثت ودفعت الثمن من كرامتي لمجرد الحصول على دور بطولة في فيلم أو مسلسل، كم قصدث أطباء نفسانيين وأطباء تجميل ليدعما الصورة التي يجب أن أكون عليها، احتجت أكثر من ربع قرن لأدرك أن أضواء الشهرة التي ألهث خلفها والتي عشت في قلبها لم تكن سوى ظُلمات، هبط علي هدوء شفيف أشبه بنسمة ربيعية مُعطرة بشذا البراعم لبستني كجلدي، هدوء ساحر يشبه الشفاء بعد معاناة شاقة مع مرض أكّال اسمه سرطان الشهرة، ولم أعد ضحية ثورات مزاجي المرعبة والتي لم أكن أعرف كيف ألجمها، لم أعد ملتاعة ومرعوبة من أن أعيش دوماً في قلق الخسارة، المهم ألاّ أخسر ذاتي، أن أنقذها من الضياع التام. كيف يُمكنني وصف إشراق الفرح في قلبي، كما لو أن حباً جديداً أشرق فيه، حبٌ حقيقي استولى على قلبي، حب الحياة المعمّدة بالكرامة.

***

للأمانة علي أن أعترف أن جمعية الخمسين، التي أطلقت فكرتها فابيولا، لم تكن أيٌ منا تأخذها على محمل الجد، اعتقدنا أنها نوع من كسر روتين الحياة، أو

إدخال شيء من طرافة ومرح على حياتنا المُملة، أو – بأحسن الأحوال – تجربة غريبة سنرى إلى أين توصلنا، وفي كل الأحوال ستكون لقاءاتنا وأحاديثنا مُسلّية، وسيكون فيها الكثير من الكذب وتلميع صورتنا عن حقيقتنا التي نطمرها عميقاً في قلوبنا، لكن لم تتوقع أيٌّ منا أن لقاءاتنا في جمعية الخمسين ستضرب توقعاتنا تماماً، وأننا سنتحدث بكل شفافية وصدق عن تجاربنا وأعماقنا، وأن الصدق يُعدي كما الشجاعة، لم تتوقع أيٌّ من النساء الخمسينيات مدى حاجتها وعمق تلك الحاجة للبوح الشفيف الصادق، وأنه لم يعد لدى أيّ منا الرغبة بالكذب التجميلي، بل على العكس صرنا نتنافس في كشف أسرارنا وآثامنا – كما يسميها المجتمع، لأن تجارب النساء هي إثم. وضعتنا جلسة الخمسين في مواجهة مع ذاتنا، مواجهة كنا نحتاجها كما يحتاج المريض الذي أضناه المرض إلى الدواء، أدركت كلٌّ منا – نحن النساء الخمسينيات – أن لا شفاء من جراح أرواحنا وندوبها إلا بالبوح، وحده سيجعلنا نتحرر من ثقل المكبوت الذي يشدّنا إلى الأسفل ويمنعنا من التحليق في فضاء الحرية، لا شفاء بلا بوح حميم، بل كنث ألحظ الدهشة الأقرب إلى الذهول حين تبدأ كل منا في سرد تجربتها الحياتية، وماذا يعني سنّ الخمسين لها، عمر الانعطاف، عمر الذروة التي إما أن

ننحدر بعدها إلى هاوية العدم والموت أو نحلق في فضاء الحرية وقد دشّنا ولادة جديدة. كل منا كانت تفاجئ نفسها من مخزون اللغة والقدرة على استنهاض أحداث عاشتها وتعريتها على ضوء الحقيقة وكما تراها هي بعينيها وليس بعيونهم، وكيف تفسّرها بعقلها وليس بعقولهم. لم تتوقّع أيٌّ منا أننا سندشّن ثورة حقيقية في هذا العمر، عمر الجدات الوديعات اللاتي يحكن الصوف للأحفاد ويجلسن هانئات بابتسامة شاحبة ترتسم دوماً على وجوههن بجانب بناتهن أو كنّاتهن الحوامل، كي يكنّ الساعد الأيمن لرعاية الطفل المُنتظر، وليشعرن بالامتنان لتكريمهن بأن يطلق على اسم المولودة اسم الجدة. كان هذا هو شكل الحياة التقليدي والمتعارف عليه والذي يباركه المجتمع بكل فئاته للنساء الخمسينيات، لذا وجدنا متنفساً في جمعية الخمسين، كما لو أن طاقة نجاة فُتحت في جدار عملاق يحدد عيشنا ويسجننا وفق مفاهيم وقيم وشخصية نمطية تُفصَّل لنا. أدركنا مدى حاجتنا لهذه الجمعية منذ اللقاء الأول، كل منا تتفحص الأخريات، نبدأ بتفحص بعضنا بحذر وبشيء من نفور، كما لو أن كلاً منا تريد أن تثبت تفوقها شكلياً وبمستواها الثقافي والاجتماعي على الأخريات، كل منا تريد أن تربح منافسة خفية مع زميلاتها بأنها تبدو أصغر منهن، وبأنها لا تُعطي عمرها

الحقيقي، لكن كل تلك التفاهات تبخرت وتلاشت ما إن بدأ البوح الصادق يلامس شغاف القلوب المُتعبة والحزينة، صرنا نشعر كم نحن مُتشابهات، وكم نحتاج لذلك التعاطف الناجم عن تفهمنا لبعضنا البعض، واكتشفنا تفاهة اعتقادنا وإيماننا بالاختلاف وبأن كل منا نسيج وحدها، كان جوهرنا واحد والاختلاف في الشكل فقط، في الثوب الذي ألبسه المجتمع لكل منا حسب ظروفها وبيئتها، لكن كان لنا القلب ذاته والإحساس ذاته، كنا نساء ندرك أننا صُنعن نساء، فُصِّلت لنا شخصيتنا وفق معايير ومقاييس معينة وقيم أخلاقية معينة أيضاً، ولكل عمر شكله وقواعده، والخمسون هو النهاية، حيث لا توضع بعدها أية قوانين، حال بلوغ المرأة الخمسين تُقدَّم لها الشخصية الجاهزة التي يجب أن تكونها، تتقمّص تلك الشخصية كما ترتدي قميصها. لذا كانت جمعية فابيولا – نساء في الخمسين – أشبه بالقشّة التي قصمت ظهر البعير أو بعود الثقاب الذي أشعل غابة تشقّق لحاها كما تشقّق جلدنا من الحرمان نحن النساء الخمسينيات. ورغم أن اعترافاتنا بدت مُختلفة جداً وتجاربنا متنوعة، رغم أن بيننا المُطلقات والعوانس والمتزوجات، رغم أن بعض النسوة عشن تجارب قليلة، وبعضهن خضن غمار الحياة لدرجة ما عدن يتذكرن تفاصيل تجاربهن الكثيرة، إلا أن

الجوهر كان واحداً ومشتركاً بين الجميع، كنا في المركب ذاته، والخندق ذاته: نساء في الخمسين.

كاتيا

ومع كل بوح كنا نزداد تقارباً وقوة، كنا نكتشف كم كانت ثقتنا بأنفسنا مضعضعة لأننا نرفض بصمت ما نحن عليه، بتعبير أدق ما أجبرنا أن نكونه، وكنا نضحك حين نردّد ما اكتشفناه: في الاتحاد قوة. قالت كاتيا وهي تهرس عقب سيجارتها في المنفضة: لا يوجد إنسان أقوى من امرأة في الخمسين، كاتيا التي أذهلتنا باعترافاتها الجريئة التي وضعت لها عنواناً: "مرة واحدة فقط". كاتيا التي بلغت الخامسة والخمسين ولا تزال فاتنة، فيها سحر غامض، رغم أنها تبدو للوهلة الأولى تشبه كل امرأة، لا شيء يميّزها، مربوعة القامة، شعرها مصبوغ بالأسود، ملامحها عادية، لكن حين تتمعن بنظرتها تشعر أنك أمام عالم من السحر والغواية، نظرة تسبر الأعماق، تشعر أنها تقرأ روحك بالبساطة التي ترى فيها وجهك، كاتيا شخصية مُحيرة، كما لو أنها تقوم على جمع التناقضات، تأسرك وهي تتكلم، كلامها بسيط وواضح لكنك تشعر في النهاية أنك في قلب التناقضات، تشعر أنك لم تُركّز كفايةً لتفهم ما أرادته وما تقصده، لا تعرف إن كانت تقدّس كل شيء أو لا تقدّس شيئاً، تشعر وهي تتكلم أنها تتحلل مما تسرده ومما

عاشته، تحسّ برشاقة روحها وقدرتها الزئبقية أن تفلت من كل من يستميت للإمساك بها، وفي اللحظات التي تشرد فيها وتتوقف عن الكلام لتستجمع ما تريد قوله تشعر أنها أسرتك في حالة تأملية عميقة ليس لما قالته بل لما عشناه وخبرناه لكننا لم نجرؤ أن نحلله بصراحة وجرأة مثل كاتيا. حين حان دور كاتيا في البوح تعلقت بها عيوننا، لم نتوقع أن تلك المرأة التي يبدو مظهرها عادياً جداً ستصعقنا من جملتها الأولى: لقد عاشرت عدداً لا أتذكره من الرجال ولمرة واحدة فقط. ابتسمت نصف ابتسامة دون أن تكلّف نفسها النظر إلى عيوننا التي اتّسعت دهشةً، وأظنها سمعت الهمس الذي قالته إحدى السيدات وهي توشوش صديقتها: أظنها عاهرة، ما كان ينقصنا إلا العاهرات في جلسة الخمسين. لم تبالِ كاتيا بقراءة رد فعل اعترافها المدوّي بأنها عاشرت عدداً لا يُحصى من الرجال ولمرة واحدة فقط لكل رجل، كانت ممتلئة ثقةً بنفسها لدرجة لم تجرؤ أيّ منا على التعليق بكلمة، أصبح لصمتنا دويٌّ وذبذبات كما لو أنه ينقل أفكارنا، أخذت نفساً عميقاً وقالت إن نقطة التحول في حياتها حين استطاعت أن تواجه أصعب سؤال يطرحه المرء على نفسه – هذا إذا تجرأ وطرحه أصلاً ولم يعش كل عمره محاولاً طمسه –: أنا مع من أعيش؟ حين قالت هذه العبارة مُفتتنة أنها قالتها كما لو

أنها أرخت عن كاهلها معظم حمولتها التي تُرهقها، مسحت وجوهنا المشدوهة باعترافها بنظرة شفقة وحنان، كررت عبارتها بالافتتان ذاته: يجب أن نتساءل دوماً: نحن مع من نعيش؟ كان يمكن أن أجنّ لو لم أطرح على نفسي هذا السؤال وأكتشف الجواب. بدأت كاتيا تتدفق بالكلام وإحساس بالفخر يغمرها: عادي، كل شيء كان يبدو عادياً، كنا ككل أسرة عادية، أم وأب وأطفال، والدي محامٍ لامع وأمي ربّة منزل تعيش كخادمة، وكنا ثلاث بنات وصبيين، وظلت أمي مُضطهدة ومرذولة من قبل أبي وأسرته إلى أن أنجبت الصبيين بعد ثلاث بنات، وكنت الطفلة الأقل رعايةً واهتماماً في الأسرة، ربما لأنني خيّبت أمل الجميع حين انتهى الحمل الثالث لأمي بإنجابي، وربما لأن الجميع انصبّ اهتمامهم على الصبيين اللذين أنجبتهما أمي بعدي، وأعطاني هذا النبذ حرية ما بعدها حرية، إذ كنت أشعر أنني أعيش متواريةً عن الأنظار وسطهم، أي وسط العائلة العادية، ولم تكن لدي تصرفات أستحقّ عليها التقريع، وكانت أمي تعتمد على شقيقتي في توجيهي والاعتناء بي لأنها وهبت كل وقتها للصبيين، ولم تكن شقيقتَي تحبّان تلك المهمة، إذ كانتا أنانيتين ودائمتَي الشجار فيما بينهما حول اللباس والسفر في رحلات مدرسية ثم جامعية، أما الصبيان فكان لهما

عالمهما الخاص الأشبه بإمبراطورية وعلي أن ألبّي طلباتهما، أحضري لي كأس ماء، رتّبي غرفتي، اكوِ قميصي، وحين كنت أعترض كنت أتلقّى التقريع من الجميع. كان يمكنني أن أعتبر أننا أسرة عادية، وتحت كلمة "عادي" تختبئ كل الجرائم، إلى أن بدأت أشعر بالاختناق والقرف والخوف أيضاً. كنت في العاشرة من عمري حين بدأت تلك المشاعر تكتسحني وتهرس طهارة طفولتي التي أحب أن أتخيلها كبراعم الأشجار الحالمة بالتفتح صحيحةً تفوح بالشذى. كان الصبيين في التاسعة والثامنة من عمريهما، أما أختي فكانتا في الرابعة عشرة والسادسة عشرة، كنت أتأرجح بين قوسين أختين تكبرانني، وأخين يصغرانني، وأنا الأخت الشبحية التي لا يعيرها أحد اهتماماً، بل كنت غالباً ما ألبس ثياب أختي العتيقة، بعد أن تقوم أمي بتعديلها على مقاسي. كان كل شيء في حياتنا عادياً، الأعياد وطقوس الاحتفال بها، أعياد ميلاد الصبيين التي تدعى كل العائلة للمشاركة في الاحتفال الباذخ للصبيين، وأتحمّل أنا مشقّة الجلي والترتيب والأصعب رسم الابتسامة الدائمة على وجهي، أما عيد ميلادي فلم تكن تذكره إلا أختي الكبرى وأحسَها كانت تتذكره وتحضر لي هدية تافهة كنوع من الشفقة. لم أكن أشعر بالأذى لأنني كنت أكتشف شيئاً فشيئاً أن النبذ والحرية

مفهومان مُتطابقان في عالمنا العادي – تضحك كاتيا، وتكمل بلهجة جدية – إلى أن بدأت تلك المشاعر تخنقني دون أن أعرف سببها، كان شعوري سابقاً لعقلي، بدأت ألاحظ خلف هذا العادي جرائم وانتهاكات رهيبة، واحتجت زمناً طويلاً كي أتمكّن من إزاحة أطنان الموروثات والأعراف والقيم المزروعة في عقلي كما تُدقّ المسامير في الجدران. كنت أتأمّل سلوك أبي – المحامي اللامع – الذي يقدّس الأخلاق والقيم ويعطينا من حين لآخر مواعظ أخلاقية أشعر أنه يقرأها من كتاب ولا يؤمن بها. كان أبي مولعاً باستعراض عضوه، يتبختر في البيت بسرواله فقط، وكانت السراويل في ذلك الزمن من القماش الرقيق جداً الشفاف مع فتحة أمامية كبيرة تُغلق بزرين صغيرين، لم أكن أستطيع على الإطلاق اعتبار سلوكه طبيعياً، كان يهرش عضوه أمامنا فأتأمل الحرج والألم وتضرّج وجه شقيقتي بالأحمر الداكن، وكان يجلس كما يحلو له مباعِداً ما بين فخذيه كي يستعرض ما يظهر من عضوه، كان سلوكه يُقابَل بالصمت التام من الجميع وبعدم التعليق، بل بدا لي أن الجميع متواطئ كي لا يتحدثوا عن سلوك أبي الشائن، ولكنني كدت أنفجر ذات يوم حين كنت جالسة وحدي في غرفة المعيشة الصغيرة أدرس، جلس مقابلي يقشّر الدراق وكان بسرواله الداخلي كعادته، حاولت تجاهله

لكنني كنت رغماً عني، كرهينة لقوة ساحقة سافلة تأسرني، أسترق النظر إلى عضوه وخصيتيه اللتين تشفّان من القماش الرقيق لسرواله، وأظنه أدرك ارتباكي ولا أنسى ما حييت نظرة النشوة والانتصار التي أحسّها وهو يعي كيف بلبلني، ثم غيّر من طريقة جلوسه وسألني إن كنت أريد دراقاً، قلت لا، ورفعت نظري لأرى حشفته خارجة من فتحة سرواله وعلامات النشوة الزنخة على وجهه. خرجت من الغرفة وأنا أرتجف وأتقصّف من مشاعر ألم، هدّني وأذلّني، كنت في العاشرة من عمري، برعم طاهر يتفتح على عالم البلوغ المؤلم المُربك، وأجد أبي المُصاب بمرض الاستعراض الجنسي لعضوه يذلّني ويمارس علي وعلى إخوتي الاستعباد الجنسي، كان سلوكه تحرشاً جنسياً فاضحاً لكن لم تكن هناك أدلة تدينه، وزاد من قرفي موقف أمي – الخادمة – التي تعيش من أفضاله علينا، بل صرت أفكّر حين أعلنت ثورتي عليه بأن أمي تعيش بفضل عضو أبي. ما كنت أملك الجرأة ولا الوعي ولا الفهم الكافي لأحلل سلوك أبي، كنت طفلة بريئة، وكنت – على العكس – ألوم نفسي لأنني أسيئ الظن بأبي، وأحاول أن أفسّر سلوكه بأنه رجل يأخذ راحته في أسرته وبين أولاده، وكي تزيد الأمور سوءاً فإن أخي الأكبر أخذ يُقلّد أبي فكنّا نراه يتبختر في البيت

بسرواله فقط، متباهياً بعضوه الذي يشفّ وفخوراً بحشفته الكبيرة، ولا أعرف أي جنون أصابني حين خرجت ذات مرة من غرفتي بسروالي فقط، واخترت سروالاً من الشيفون الشفاف وأخذت أتبختر في البيت، انصبّ الجميع عليّ بوابل من التقريع والشتائم البذيئة، ووصفني أخي الأكبر بالمُنحلّة، وكاد ينطق كلمة عاهرة لولا صراخ أمي أن كفى وأمرتني أن ألبس بنطال البيجاما وبأنه لا يجوز لفتاة تحترم نفسها وأسرتها أن تسلك هذا السلوك، صرخت يومها وأنا أبكي من الغيظ والإحساس بالظلم: لكن ألا ترينهم، لماذا يتبخترون بيننا بسراويلهم فقط. وكان الجواب الوحيد والقطعي: إخرسي.

وخرست لكن ظل إحساس دائم بالإهانة والألم والاستعباد الجنسي ومشاعر غامضة عدوانية لا أعرف طبيعتها تماماً تسيطر علي، وبدأت خيالات مريضة تغزو خيالي وتقضّ مضجعي وتلاحقني في أحلامي، صار كل العالم الذي أعيشه خاضعاً لسلطة قضيب، قضيب يتباهى بفحولته أينما تلفتّ، حين أقرأ في كتاب يتراءى لي قضيب أبي أو أخي، كيف يجلسان وكيف أرى جزءاً من خصيتيهما أو حشفتيهما، وكيف ذات يوم طلب مني أبي – وكنت في الخامسة عشرة – أن أثبّت له السلم الخشبي لأنه يريد أن يحضر غرضاً من السقيفة، يومها

رفضت وصرخت وأنا أقاوم دموعي: لا أريد، كنت أحدس غايته بأنه يريد أن يذلّني باستعراض عضوه وهو يتسلّق السلّم الخشبي ثم يفرشخ ليقفز إلى السقيفة. لم يعلّق على صراخي بل نادى أخي. لم أكن أفهم صمت أمي الذليل، صرتُ أكرهها كما أكرههم، بل أحسّها متواطئة معهم، وصرت أتعمّد تجريحها وتحقيرها بكل الطرق غير المباشرة المُمكنة، كأن أقول لها: يستحيل أن أعيش مثلك، يستحيل أن أتزوج، وكانت ترمقني بصمت وإحساس بالخزي يبللها، ولأن العالم بأسره أصبح بالنسبة لي أشبه بقضيب عملاق يتحكم بحياتنا، فقد قررت الانتقام من هذا العالم القضيبي، كان علي أن أجد طريقة لإذلاله والانتقام منه، كنت أريد أن أصغّره وأهمّشه وأن اكبر أنا وأتعملق وأتحكّم به وأخضعه لسطوتي. وحين تمكنت بعد عقود من التحدث صراحةً مع أختَي المتزوجتين عن سلوك أبي اعترفتا لي أنهما كانتا تتألمان وتشعران بالحرج، حتى أن أختي الوسطى باحت لي أنها كانت ترى كوابيساً، أن والدها يغتصبها وأن أمها تراقب هذا الاغتصاب وهي تبتسم، وحين صرخت بها: لماذا لم تعترضي؟ أجابت بأنها كانت تخاف، وأنه كان الكل بالكل، وأن أمنا كانت مسكينة تخشاه ومغلوبة على أمرها. صرت امرأة حاقدة لديها عدو شرس يجب أن

تكسره وتهزمه بالضربة القاضية، قضيب يتباهى باستعراض فحولته، ممثلاً لسلطة ذكورية تذلّ المرأة وتحدّد لها دورها وشخصيتها وكيانها، القوانين التي يسنّ بها الرجال المُحرّمات والممنوعات والمسموحات، كل قوانينهم وتشريعاتهم يكتبونها بقضيبهم، قلمهم هو القضيب، ووجدت نفسي أدشّن نفسي مُحاربةً شرسة لسلطة القضيب، وقررت أن أدرس الطب وأختصّ بالطب النسائي وأن أجري عمليات إعادة العذرية مجاناً، وحاربت فكرة الزواج، ولم أعاشر رجلاً إلا بهدف إهانته وإذلاله، كنت أتفنن في جعل الرجال يتيّمون بي، وما أن أستدرجهم إلى السرير تاركةً إياهم يعتقدون أنهم – هم – من استدرجني حتى أبدأ بانتقادهم والتذمّر من ضعفهم الجنسي وسوء أدائهم، وأتركهم حطاماً. كنت أشعر أنني أغتصبهم وأتلذّذ بتوسلهم لي كي أعيدهم إلى جنة أنوثتي، لم يفهموا لماذا كنت أطردهم كما أهشّ ذباباً، بل إن بعضهم حاول أن يهدّدني، كنت كمن يصرخ في وجه كل رجل أضاجعه مرةً واحدة فقط: ما أنت سوى قضيب، يجب كسر رأس غرورك، تؤمن أنّ من حقك أن تستلذّ وتستمتع وأن على شريكتك أن تكتفي باستمتاعك، أريد أن أسنّ لكم القوانين يا سفلة، يا قحاب. لكنني عشت في دوامة انتقام كاد يدمرني، ولا أعرف أين قرأت عبارة: من لا يعرف ممارسة الحب

فإنه يمارس الحرب. لقد عشت عمري أصارع هيمنة ذكورية ونظاماً ذكورياً مُتكاملاً يهيمن على حياتنا – نحن النساء. كنت أحارب وأسخّر كل طاقتي من أجل انتزاع السلطة القضيبية أو الذكورية، لكن لم يكن صراعاً من أجل قيم أكثر إنسانيةً وعدالةً ومحبة، بل كان صراعاً حقوداً شرساً من أجل استبدال استبداد باستبداد، استعباد باستعباد. كنت أتلذّذ بسمعتي كأشهر طبيبة نسائية تجري عملية إعادة العذرية مجاناً للفتيات، كنت أشعر أنني أوجّه ضربة قاضية لأبي الذي أذلّ وسحق براءة وطهارة مراهقتي بميله للتفاخر واستعراض عضوه، لقد حوّلت سنوات عمري إلى رهان، من سيكسر رأس من: هل المرأة المتجسدة بشخصي ستكسر رأس الرجل المتجسد بشخص أبي أم العكس؟ ولم أحبّ رجلاً، لا مكان للحب وسط الحقد والرغبة بالانتقام. ولم أكن أخشى شيئاً سوى الحب، سوى أن أقع في الحب، عندها سيضيع هدفي وتتغير أولوياتي وهي تصغير القضيب وتحقيره، كرمز للهيمنة الذكورية. لقد عشت سنوات شبابي دون عاطفة، دون حب، ولولا سنّ اليأس أو سنّ الرحمة والتعقل كنت لأستمر في مرض عهّرت نفسي بسببه وهو الانتقام من السلطة الذكورية المُتمثلة بقضيب. لا أخفيكن أنني لم أترحّم على أبي، نظرت ببرود إلى جثتة العارية وابتسمت

بشماتة كأنني أقول له: لقد مات ذكرك يا سافل. أنت أبٌ حقير. ورفضت أن ألبس الأسود، ولولا توسل أمي وأختي للبست الأحمر، لكنني إكراماً لهنّ لبست الرمادي والكحلي شهرين فقط. لم أتصالح مع نفسي ولم أشفَ من أحقادي إلا وأنا على أعتاب الخمسين، عمر الحكمة والمصالحة مع النفس. كم كنت مخطئة ومُضللة حين حاربت قوانين الطبيعة وليس قوانين الرجال، كل من يحارب قوانين الطبيعة يخسر، لأن الحياة رجل وامرأة وما بينهما حب، وأنا أعماني هوس الانتقام. تضحك كاتيا. لا أعرف إن كنتن تقبلنني عضوة في جمعية الخمسين بعد كل ما بحث به.

تصفيق قوي استمرّ طويلاً، رافقته دموع تأثر، لكن كاتيا وحدها من أخفت وجهها بين راحتيها وهي تبكي.

ثمة رابط قوي ومُميّز يجمع النساء في سن الخمسين، يتجلى ذلك في تلك المودّة المُرتشحة في الوجوه الغريبة، والتي تتلاشى غربتها ما أن تلتقي نظرات العيون. حاولتُ أن أسبر تلك الجاذبية الشفافة التي تجمع بين النساء الخمسينيات، فكرتُ أن أهم ما يوحدهن هو إحساسهن أنهن لم يعُدن بحاجة لأي نوع من أنواع خداع الذات، أو خداع الآخرين لهن، أو خداعهن للآخرين. الخمسون هو عمر التعفف ولكن تعفف مع كبرياء، هو عمر التحرر من ثقل الهورمونات

الجنسية وثقل الأكاذيب، كما لو أن الجنس والكذب وجهان لعملة واحدة، كما لو أن النساء الخمسينيات وعين دفعةً واحدة أنهن لا يردن استمرار ما تبقّى من عمرهن في الأكاذيب. كنت أنتبه لأدق التفاصيل في حوارهن مع بعضهن البعض وفي طريقة إصغاء كل منهن للأخريات، في ذلك الجو من المحبة حيث تشعر أن الكلمات تذوب، ويولد من ذوبانها شعور بديع يتجلى إشراقةً على الوجوه التي تجاهد ملامحها للتشبث بشبابٍ آفل، تذوب الكلمات لتتقطّر عبقاً في الهواء وفي القلوب. لا أنسى العبارة التي قالتها إحدى النساء: لكي تحس بقلوب الآخرين يجب أن تملك قلباً. كنا نحتاج لجلسات البوح هذه بين نساء تجاوزن الخمسين بسنوات كي تولد فكرة مشروع إنساني رائع، لم يخطر ببال أي منا – حتى فابيولا – أنه سيولد، وعلي أن أذكر أن بعض النساء فضّلن الكتابة على الكلام، فقمن بتوزيع عدة صفحات على زميلاتهن في جمعية الخمسين، كما فعلت فتون، طبيبة التخدير العانس الأكثر شهرةً في المدينة، فتون التي لا تملك شيئاً من الفتنة، بل تشعر بصدمة قبحها ما إن تراها، وأظن أن اسمها يتحمل جزءاً من سبب نقمتها الدائمة على الحياة، كانت تشعر بالظلم، ظلم لا تستطيع تحديد أسبابه، لكنه يتجلى بغضب مستعر دائم في أعماقها، كما لو أن الغضب

عنوان شخصيتها. فتون لم تستطع أن تتكلم، فضلت أن تكتب شهادتها وتوزّعها علينا، وعلي أن أعترف أن شهادتها أثّرت بي عميقاً وأنني غبطتها على جرأتها التي لم تنافسها عليها أيٌّ من النساء الخمسينيات.

فتون

عمري ٥٥ سنة، معظمكن تعرفن أنني طبيبة التخدير الأكثر شهرةً في المدينة المملّة، عشت عمري تحت وطأة رعب أن أبقى عانساً، كنت أدرك أنني قبيحة، وأرى الشفقة والسخرية أحياناً في عيون الناس حين ينظرون إلى وجهي، وكم أغاظني اسمي: فتون، ووجدتني أشعر أن حياتي كلها تدخل في معركة غريبة هي معركتي مع الزمن، كنت أريد الانتقام من قدرٍ أرادني بكل تلك الدمامة، ولم أعرف على من أصبّ نقمتي، على أمي أم أبي أم إخوتي، فلا يحمل أيٌّ منهم قبحي، كنت أشعر أن مورثاتي أخذت أقبح صفات كل من أمي وأبي وشكّلت سحنتي، كما ترين: وجه مثلث بذقن طويلة وشفاه غليظة بفجاجة، وبلا خدود تُذكر، بأنف كالجدار (قبل عملية التجميل التي أجريتها وأنا في الثلاثين) وبأسنان بارزة، وعيون صغيرة بأهداب قصيرة، وبشرة ترك حب الشباب ندوباً فيها... كيف على الإنسان أن يتآلف مع كل هذا القُبح! لم تكن النقمة وحدها على قدر أرادني أن أكون قبيحة لتلك الدرجة هو ما ميّزني، بل سيطرت علي حالة من الذعر، ذعرٌ يسيطر على قلبي خوفاً من أن أكره نفسي كرهاً

حقيقياً، خوفاً من ألاّ أتمكن من حب تلك الإنسانة التي هي أنا، لا ذنب لي في كل هذا القبح، يجب أن أكتشف نتفاً من جمال في شكلي، وكنت أفتتن بتصريحات وآراء مصممي الأزياء وأطباء التجميل حين يصرّحون: لا توجد امرأة قبيحة. لم يكن أمامي سوى التعويض بتفوقي المهني، وهبت نفسي للعمل، وكسبت المنافسة مع كل أطباء التخدير، لم يكن أي منهم يملك طاقتي وجلدي على العمل، وبدأت أستذوق الثروة، المال الكثير الذي أجنيه والثياب الفاخرة والأحذية التي تطفح منها خزانتي، وصار لدي هوس بالساعات، كنت أشتري الساعة بسعر ٥٠٠٠ دولار وأتباهى بساعاتي، ولا أفهم سبب افتتاني وإدماني على اقتناء الساعات الفاخرة تحديداً، ربما كنت أريد أن أدشّن من خلالها زمني الخاص، زمني الذي لا يُذكّرني كم أنا قبيحة، بل يُزيّن لي مرور الزمن من خلال تأمّل تحف بديعة من ساعات غوتشي وبيربيري ومون بلان وشانيل وديور وغيرها. لا أنسى الهمس الذي سمعته من مساعدتي في التخدير، كانت تهمس لزميلتها في غرفة العمليات فيما أنا أدخل أنبوب التخدير في حنجرة المريض: كل تلك الساعات الفاخرة لتغطّي قبحها قليلاً ولتتباهى أمامنا بثروتها ودخلها المرتفع. أحسست بطعنة الألم في قلبي، ورغم ذلك لم أستطع أن أؤنّبها بنظرة أو أعاتبها أو حتى أن

أعاقبها مفتعلةً أي سبب، بقيت أياماً أتألم من قولها لأن الحقيقة جارحة، كنت أعرف أنني أعوّض بكل تلك المُشتريات وبغرامي بالساعات الفاخرة عن قحط عاطفي شديد. كنت ناجحة في عملي وفاشلة في الحياة، كنت أعمل بين عشر ساعات وخمس عشرة ساعة يومياً وأعود إلى بيتي الفخم مهدودة من التعب مع إحساس ساحق بالعزلة، وإحساس قاتل بعدم الأمان، وشعور مُخيف بأن ذاتي تتحلل! لا أعرف ماهية هذا الشعور وكيف تقمّصني، وما معنى أن تشعر المرأة أن ذاتها تتحلل، ولكن محنتي الأكبر لم تكن في قبح وجهي فقط، بل في إحساسي بأن السعادة تتجنبني. لم يُحبني رجل، ولم يشتهيني، من حاول التقرب مني كان بهدف الطمع، وأنا لا أرضى أن أكون مطمعاً لأحد. كنت في أعماقي أؤمن أنني إنسانة جميلة الروح أستحق أن أحب لذاتي، وبدأت أجري العديد من عمليات التجميل، تجميل أنف وأسنان وتقشير بشرة ممتلئة بندوب حب الشباب، لكن ظلت روحي مُعذبة بأنني لا أستحق السعادة والحب كبقية النساء. وتقدم الطامعون لخطبتي، وحاولت أن أضلّل نفسي وأصدّق أنهم أحبوني لذاتي، وكان بإمكاني أن أتزوج أحدهم، لكنني لم أستطع، رغم أنني مررتُ بلحظات ضعف، وكان بإمكاني أن أتحرر من وصمة عانس، لكن كرامتي كانت

تنتصر كل مرة، إحساسي أنني أستحق أن يرغب بي الرجل لذاتي، من أجل روحي وذكائي وتفوقي المهني. صرت اسماً لامعاً في عالم التخدير له بريق كبريق ساعاتي التي تحمل الماركات العالمية وأمكنني أن أتجمّل ويصبح وجهي مقبولاً على الأقل.

علي أن أحكي عن علاقتي بهند، لا أقول عنها صديقتي لأنني بقدر ما كنت أحبها بالقدر ذاته كنت أكرهها، كانت غيرتي منها تُمرمرني وتذلّني وتحوّل دمي إلى سمّ بسبب الغيرة. التقيتها لأول مرة في المشفى، كانت حاملاً بابنها البكر، كانت امرأة جميلة بل ساحرة الجمال في الخامسة والعشرين من عمرها وأنا أزيدها بعشر سنوات، أمسكت يدي وبكت وقالت لي: دكتورة، أشعر أنني سأموت. ربتُّ على كتفها وطمأنتها أنها ستسخر من نفسها بعد نصف ساعة وحال انتهاء العملية القيصرية. كانت زوجة تاجر فاحش الثراء، يماثلها في العمر وقد ورث الكثير من أهله. خدّرتها وتأملت أهدابها الكثيفة التي تلقي ظلاً مُزرقّاً على قمة خديها البديعين، أحسست بعاطفة غامضة تجاهها، تمنيت أن أكونها، لأول مرة أرغب بقوة أن أكون تلك الإنسانة، أن أتمتع بهذا الجمال الملائكي وتلك الفتنة التي تشعّ منها، تمنيت أن يعشقني رجل كما يعشقها زوجها الذي هرع لتقبيلها واحتضانها في غرفتها قبل أن يطلب رؤية ابنه،

لم أجد رجلاً يعشق امرأةً كما يعشق زوج هند زوجته. هي أيضاً أحبتني بقوة ومن النظرة الأولى، كما قالت لي حين توطدت صداقتنا، اعترفت لي أنني حين طمأنتها بأنها ستكون بخير وحين طلبت منها أن تتنشق غاز التخدير بعمق أحست أنها تسلّمني روحها وأنها تضع حياتها بين يدي. كان يمكن لهند أن تكون كأية مريضة خدَرتها لولا تلك الهدية الرائعة التي قدّمتها لي عرفاناً وشكراً ليس لأنني خدرتها بسلام ولكن لأنني أدخلت الطمأنينة إلى قلبها، أهدتني ساعة ماركة شانيل رائعة، قبلت الهدية المفاجئة الفخمة وأهديت الوليد سلسلةً من الذهب مكتوب عليها اسمه (عمر). وللأسف دخلت هند حالة فظيعة من اكتئاب ما بعد الولادة، كانت تبكي باستمرار وترفض أن تكون وحدها مع وليدها، تشعر أنها تخاف عليه من نفسها وأن الشيطان لا يكفّ على وسوستها بأن تقتل ابنها، ورفضت مساعدة أشهر الأطباء النفسانيين وقالت لهم: لا أريد إلا الدكتورة فتون، ورغم مشاغلي وذلك الخوف الذي أثيره في نفوس من حولي بسبب صرامتي في العمل، فإنني قبلت رجاء زوجها بأن أزورها لأنها تطلبني شخصياً، رغم أنه – والعديد من الأقرباء – حاولوا إقناعها بأن طبيبة التخدير لا تستطيع علاج حالة اكتئاب ما بعد الولادة. علي أن أعترف أنني فرحت لما أصابها، ليس

لأنني شريرة أبداً فأنا أحببت هند من كل قلبي، لكن فرحي كان من نوع خاص، نوع من أن الحياة تنصفني، بأنها لا تظلمني لوحدي بل تنكّل بالآخرين، وبأن القدر لا يسمح لأي إنسان بأن تكون سعادته مُكتملة، هند الجميلة العاشقة الشابة والثرية التي يعشقها زوجها والتي رزقت بطفل جميل، تُصاب باكتئاب ما بعد الولادة، وتحتاجني، أنا العانس القبيحة لكن الناجحة جداً في عملي. شعرت أن مصابها وقوة اكتئابها يجعلان كفتَي الميزان تتعادلان، لا أحد محمي من غدر الزمن، وجلست بجانبها، وهي تبكي كطوفان، متأملةً حزن شابة لا تعرف أي شيطان يسكن روحها، تشكو لي حزنها الغامض ومخاوفها التي تقارب الذعر على حياة وليدها، لدرجة رفضت إرضاعه خوفاً أن يكون حليبها مسموماً، وأسعدني أنها تحتاجني شخصياً وأنها لا تثق إلا بي. تفجّر حبٌ هائل من قلبي تجاهها وفكّرت أن الحب الحقيقي لا جنس له، كان حبي لهند كبيراً وطاغياً كما لو أن مصيرينا ارتبطا معاً إلى الأبد، هي عشقتني كما كانت تقول، كل ما أقوله تؤمن به، استطعت أن أقنعها بضرورة استشارة طبيب نفساني، قبلت بشرط أن أكون معها، أرادتني أن أكون معها ولم تطلب زوجها، صرت أتسلّى بأفكار تداهمني متحللة وساخرة من سلطة وتابوهات الأخلاق، بأننا –هند وأنا – لو التقينا في مكان

آخر، وربما زمان آخر، لعشنا علاقة حب، لأن ما يربطنا حب وشغف، لكنها زوجة وأم وأنا طبيبة لدي سمعة لا يزلزلها زلزال. ترى ما الشغف سوى تلك الإثارة والهوى المُتفجّر الذي يحدثه ما هو غير متوقع،؟ منذ لقائي بهند لم نعد ننفصل، شُفيت من اكتئاب ما بعد الولادة بعد علاج استمر ثلاثة أشهر، انهارت خلالها نفسياً مراراً وكانت تصرخ راغبةً بالموت فأضمّها إلى صدري وأهدهدها تاركتين زوجها ينظر إلينا مصعوقاً كونها لا تهدأ إلا في حضني وترفضه كلياً. صرتُ عصباً أساسياً في حياتها، فحين حملت ثانيةً جنّ جنونها ورغبت أن تجهض نفسها خوفاً من اكتئاب ما بعد الولادة الذي أصابها في حملها الأول، ولجأ زوجها إلي لأقنعها أن تحافظ على الحمل، وأقنعتها مؤكدةً لها أن الاكتئاب لا يتكرر بالضرورة. في تلك الفترة كنت على أعتاب الأربعين، ولم أنتبه كيف هويت في قعر عاطفة هوجاء مُضطرة أن أسميها حبّاً. عشقت أنيس بجنون، كان يصغرني بأربع سنوات، مُطلّق ولديه طفلة تربيها أخته المتزوجة مع أولادها لأنه مشغول جداً ولأن زوجته تزوجت فور طلاقها وسافرت مع زوجها الذي اشترط عليها أن تتخلى عن ابنتها كي يتزوجها. كان أنيس مرآة روحي، المهندس الذي يعمل في تعهدات البناء وقد أوكل إليه بناء مُلحق بالمشفى وتجديد وصيانة البناء

القديم. كنت مسؤولة أيضاً عن ميزانية المشفى بما أنني أملك أسهماً فيها. عشقته من النظرة الأولى، وأثرت اهتمامه، قال لي إنه يعشق النساء الناجحات اللواتي ينافسن الرجل ويتفوقن في عملهن، وكان حديثه المفضّل احتقار الزواج كمؤسسة فاشلة. كنت أسعد بمنطقه كما لو أنه يمتدحني بطريقة خفية، وذاب كياني في كيانه، صرنا نبدأ يومنا باتصال وننهيه باتصال بيننا، وخلال اليوم نسرق لحظات لنشرب القهوة معاً في استراحة العمليات أو في مكتبي في المشفى، وصرنا نتبادل الهدايا، ويُطري أناقتي وجاذبيتي، وأحببت طفلته وأغرقتها بالهدايا، أحبتني بدورها وصارت تطلب من والدها أنها تريد أن تزور خالتو فتون، وبدا كل شيء يقرّبنا من الزواج. لم أكن قلقة من احتمال ألاّ أنجب ولداً، فأنس لديه طفلة يعبدها ويقول دوماً إنه لا يرغب بالأطفال، سنشكل إذاً – هو وأنا – ثنائياً رائعاً. كنت أقرأ الشوق واللهفة في عينيه لكنني لم أشعر يوماً بالرغبة، لم يُشعرني أبداً أنه يشتهيني، ولم يحاول أن يمسك يدي أو يُقبّلني، رغم تحرّشي غير المباشر به، ولم أجد ملاذاً لأشكو وجعي سوى هند، التي كرهته في البداية لأنه يعذبني ثم انصاعت لرغبتي بأن تلعب دور الوسيط بيننا، أي أن تساعده –وزوجها – على تخطّي عقدته من الزواج الفاشل الذي يبدو أنه أثّر عميقاً في روحه،

وصرنا نسهر باستمرار معاً، هند وزوجها وأنا وأنس، نبدو كثنائيٍ رائع، وكانت هند تلمّح أنني وأنس نبدو كعصافير الحب، وكل مرة كان يقابل مزاحها وكلامها بضحكة خجولة. مع الوقت صرت أتألم ألماً فظيعاً لأنني أرغب به وأشتهيه ولأنه لا يرغب بي، وبدلاً من أن أتراجع صرت أزداد إلحاحاً بأنني سأستميله وسأنجح، وبالغت في أناقتي وفي ارتدائي ثياباً مثيرة، بالغت في تدليل طفلته وتدليله، لكن لم أشعر أبداً أنه يشتهيني ويرغب بي. سألته ذات يوم: أتراني قبيحة؟ قال: على الإطلاق، أنت جذابة جداً ثم أنني أحب روحك. تجرأت وقذفت سؤالي: وجسدي ألا تحبه؟ كان قلبي يدقّ كالطبل لدرجة أنه التفت إليّ مذعوراً كأنه يسمع دقات قلبي وقال: لمَ تسألين هذا السؤال؟ قلت وقد قررت الاستسلام تماماً: لأنني أعشقك، لأنني أحبك. ضمّني إلى صدره ولم يتفوه بكلمة، ثم أبعدني برفق وانسلّ مُبتعداً محاذراً أن تلتقي عيوننا بنظرة. ومنذ بوحي له بحبي بدأ يبتعد، ليتركني مع إحساسٍ مُدمّر بالنبذ وبالاختناق الداخلي. فسّرت ابتعاده بأنه متردد، بأن علي أن أتحلى بالصبر وأمهله وقتاً لتقييم علاقتنا، ليتأكد كم أحبه، وبأن لا امرأة في العالم قادرة أن تحبه مثلي. هل تصدقن أن حبي له جعلني جميلة، أشعرني أنني أنثى، ومن أجله عملت حمية وأنقصت وزني

وأفرطت في ممارسة التمارين الرياضية، أردت أن أنحت جسداً مُتناسقاً جميلاً لأجله، وأسلمت وجهي لطبيب تجميل استطاع أن يحقن لي خدين، أن يعطي وجهي المثلثي شيئاً من امتلاء. كنت أكتفي منه بنظرة رضى، الجهد الكبير الذي أبذله من أجل نظرة إعجاب منه كان يُرضيني، وبدأ يعاود الاتصال بي كالسابق وكنا نقضي ساعة على التلفون نحكي كل شيء، واعتبرت عودته دليلاً على أنه يحبني وإلا لبقي مبتعداً، وانتظرت اللحظة التي سيقول فيها: هيا بنا لنتزوج. لكثرة ما تخَيلت هذه اللحظة آمنت أنها قادمة لا محالة. كنت ألوذ بهند التي تستمع إلي بتأثر، لم يحبني أحد مثل هند، لطالما بكت وأنا أشكو لها صدّ الحبيب وتوقي له وبرودته معي، كنت أحبها ولكن تمرمرني الغيرة منها، لقد حصلت على كل شيء: أولاد رائعين، زوج يعشقها، جمال وثراء، وعلاقات اجتماعية غنية، وأنا كنت مجرد نجاح، كنت وساماً معلقاً على جدار أو ياقة جاكيت، لم أكن امرأة رغم أطنان الملابس الداخلية المثيرة الحريرية وطفح الثياب والحلي الفاخرة وأنواع الساعات التي لو جمع ثمنها لشكل ثروة مُعتبرة. كنت أسخر من نفسي وأنا أقول: لستُ سوى فشلاً كامل الدسم، وهند نجاح كامل الدسم، ولطالما تخيّلت أن يعاودها الانهيار العصبي أو ذلك العصاب أو اكتئاب ما

بعد الولادة، عندها سنتعادل بطريقة ما، ستنكسر مثلي، عندها سأحبها بكل طاقتي لأنها ستحتاجني وستكون مكسورة، صعب أن نحب السعداء الذين وهبتهم الحياة كل شيء، كل شيء. أدخل إلى بيتي الموحش، حيث كل غرض في مكانه لا يتزحزح عنه قيد شعرة، حيث دوي الصمت يصم أذني، حيث الهاتف أخرس إلا حين يطلبون طبيبة التخدير الأكثر شهرةً في المدينة، أدخل غرفة ملابسي وأتأمل قمصان النوم المثيرة الحريرية ومن الساتان. أين هو؟ ألا يشتهيني؟ ألا يحبني؟ أتوق أن ألبس له كل يوم قميصاً حريرياً مثيراً وأن تمتد يده للمس الحرير وما تحته، جلدي مُشقق من الحرمان وهناك تعبير طبي دقيق: جوع الجلد، لأن الجلد يتوق للمس، ينتعش باللمس. لطاما تساءلت لماذا عشقته كل هذا العشق، لماذا صار محور وجودي وحياتي، كما لو أن الحياة مستحيلة من دونه، هل كان عشقي له مجرد عشق لرجل أم تعويضاً عن كل هزائمي وخسائري، تعويضاً عن قدر أجحف بحقي كأنثى، جعلني مثال للدمامة، وأوجع روحي بوجهي الذي كان يثير دهشة من يراه لأول مرة كما لو أنه يقول: مسكينة كم هي قبيحة! لكن روحي كانت جميلة، أرادت أن تسكب شيئاً من جمالها في ذلك الوجه المثلثي (وجهي). كنت وحيدة في زمنٍ لا يرحم، متألمة، وأغطّي ألم روحي

بفيض من العمليات الجراحية، بأن أختبئ خلف يافطة: أنا أشهر طبيبة تخدير في المدينة. وبدأت مرحلة نفاذ الصبر، كنت أشعر أنني لم أعد أحتمل هذا الحب مع وقف التنفيذ، حب مع علامة ممنوع اللمس وممنوع التقبيل، وصرت أخشى أن أهرع إليه أتوسل إليه أن يُقبّلني ويُضاجعني. كيف ينظر إلي بدفء وحنان ويبدأ يومه بسماع صوتي، ولا ينام إلا حين يطمئن علي ونحكي لبعضنا تفاصيل يومنا، أليس ما بيننا حباً؟ كيف يكون الحب إذاً؟ لا ينقصنا سوى تلامس الأجساد وأنا أنتظر وقد نفد صبري، لقد وصلت إلى مرحلة أن روحي اهترأت من الحب، كثمرة نضجت وصارت شهية وسال عسلها لكن لم يتذوقها أحد، الثمرة الناضجة تتوق لمن يعتصرها ويتلذذ بعسلها وطعمها وإلا تعفنت، وأنا خفت أن يتعفن الحب في قلبي، كان أشبه بطفل حان أوان ولادته لكن الولادة متعثرة، والجنين يتألم حتى الموت اختناقاً، هكذا صرتُ عاشقة حتى النخاع، كلّي بانتظار لحظة الإعلان، أن يفتح حبيبي ذراعيه ويقول تعالي أضمك إلى صدري، وصرت أخفف من ضيقي بأحلام يقظة لا تنقطع وكم كنت أحس بالخزي حين أضطر وأنا في الأربعينيات من عمري إلى الإدمان على العادة السرية لأن الرجل الذي أعشقه لا يزال متردداً بالارتباط بي. وحين أهداني في عيد ميلادي قلباً من قسمين،

مشطوراً بحاجز من حبات الفيروز، اعتبرت أن هذا تعبير أن قلبينا متحدين، وحين سألته إن كان يعني ما فهمته ضحك وقال إنني أهم امرأة في حياته، وإنني غيرت نظرته إلى النساء بشكل عام، فمن خلالي صار يؤمن بقوة المرأة وتفوقها وإبداعها، أمسكت يده وسألته: ألا تحبني؟ لم يكن يستطيع التهرب من الجواب فالسؤال صريح ومحدد، قال: لا أحب أن أراك متألمة، لكنني لن أتزوج ثانيةً، أريدك أن تفهمي هذا، لا أحب أن أراك تتألمين. قلت: يمكننا أن نعيش معاً بلا زواج، قال: مستحيل، لن أعرضك لكلام الناس. قلت له: لا أبالي، لا يهمني سواك.

لم يخطر ببالي ولا مرة أن أتساءل إن كانت له حياة سرية، إن كان على علاقات جنسية مع نساء، كنت ممسوسة بحبه لا أسمح لأية فكرة أن تشوش هذا الإحساس، أردته مسكناً وحياة، أردت أن أعوّض من خلاله حرمان سنوات شبابي التي ضاعت في إدمان العمل، أردت أن أنعش أنوثةً ذبلت حتى كادت تموت، أردته إلهاً أعبده في زمن عبادة الجسد، أردته تعويضاً عن حياة كانت خسارة، أردته ربحاً وجائزة ترضية لي أنا المرأة القبيحة التي لم يحبني رجل لذاتي، ولم أجرؤ يوماً أن أنظر في وجه الحقيقة، كنت أشعر طوال الوقت أنني أبذل جهوداً كي لا تلتقي عيناي بعيني

الحقيقة، خمس سنوات وأنا أتعبّد حباً وولهاً برجل! لم يخطر ببالي أن أتوقف لحظة وأتساءل ماذا أفعل؟ وهل يستحق كل هذه العبادة؟ لم أسمح لسؤال بديهي أن يتسلل إلى عقلي: إلى متى سيبقى هذا الحب أخرس ومُقعداً؟ لم أتساءل: أليس حباً من طرف واحد؟ كنت إعصاراً يدوم ولا يهدأ، كنت أحوم حوله أريد ابتلاعه كدوار البحر حين يدوّم حول جسد ويشلّه ويجرفه إلى القاع، كنت أعشقه بكل جموح روحي المتجففة من الحرمان العاطفي ومدججة بعشرين سنة من الحرمان، كان حبي له تتويجاً لسنوات الضياع وتبديد المشاعر والعواطف وإجبارها أن تتنحى لصالح العمل والتألق المهني، خمس سنوات من الهوى المتأجج أنهكت روحي، وأتتني الحقيقة كضربة صاعقة، ضجّ خبر زواجه من شابة مُطلّقة ولديها ولدان، لم أصدّق هذا الكابوس إلى حين نظرت في عيني هند التي كانت ترنو إليّ بشفقة وألم، وتحولت إلى مجنونة وكرهته بقوة حبي له، ولم أخجل من سيل الشتائم الفاحشة التي انهلت بها عليه وعلى زوجته التي أسميتها بالعاهرة، وبلغ جنوني حدّاً طالبته بكل هداياي الثمينة وأعدت له هداياه، ونزفت روحي ألماً وأنا أنزع السلسلة الذهبية بشكل قلب والتي تمثل قلبينا المشطورين بحجارة زرقاء، شعرتُ أن قلبي مطعون بحربة، كانت حالتي

تشبه حاله حيوان مذبوح بطريقة ناقصة، وقد تُرك على الرصيف يختلج ويتخبّط بدمه ولا أحد يبالي به، وأذعنت لما قررته هند بأن نسافر لأسبوع إلى اسطنبول، كي أهدأ، لكنني لم أتوقف عن الصراخ والبكاء طوال الرحلة، حتى شعرت أن هند بدأت تخافني، وقالت لي: اسمعيني، كما وافقتك ذات يوم وراجعت طبيباً نفسانياً، عليك أن تقبلي أن أصحبك إلى طبيب نفساني. وما أن نطقت هند هذه العبارة حتى شُفيت، لم أشفَ من ألمي وحبي بل من الجنون، وجدتني أهدأ، أعتذر لها وأسكن الصمت، وبدأت حياتي تمر أمامي: عقدة القبح التي سمّمت حياتي، الطريقة الهستيرية التي أحببته بها، الخوف لحد الذعر من أن يمر عمري ولا أتزوج، الفوبيا من كلمة عانس، نظرات الناس المُشفقة والساخرة من قبح وجهي، مرت سنوات طفولتي وشبابي أمامي كما لو أنها لا تخصني، ووجدتني فجأةً أخلع جلدي الممتلئ بالندوب وأكتشف جلداً جديداً نقياً حريري الملمس، هو جلد المرأة التي ولدت من رحم الألم وهي في الخامسة والأربعين من عمرها، وبدا أنس مجرد حلم، ولم أصدق أنني عشقته كل هذا العشق المجنون، كنت من خلال هذا العشق أحاول ابتداع حياة حقيقية، أن لا أكون مجرد آلة عمل ناجحة، وعدت من اسطنبول امرأةً أخرى كما لو أن

عصاً سحرية مسّتني، ولم أشعر بأي ألم حين لمحته للمرة الأولى مع زوجته، بدا غريباً، أحسست باضطرابه حين رآني، ربما خاف أن أنفلت بسيل من الشتائم أكيلها له ولزوجته، لكنني تأملته ببرود كما لو كان غريباً. صرت أسيرة حالة نورانية كما لو أنني أفرغت ذاتي من كل ما يعذبها، وأحسست أن هزيمتي هي فوزي الحقيقي، أجل أكسبتني الهزيمة إحساساً بالفوز، رأيت فراغ عقلي وفراغ أفكاري، وشعرت بلحظات بنشوة الانتصار بلا سبب، بل لأسباب عديدة، فقد انتصرت على كل المفاهيم الجاهزة التي تشربتها من بيئتي والمجتمع والتي كانت سبب تعاستي، قللت من عملي وساعات التخدير الطويلة، وبدأت أسافر، سافرت إلى شرم الشيخ وضاجعت نادلاً بعمر ابني فيما لو تزوجت، وأسعدتني تلك المغامرات الرشيقة، الخفيفة والتي لا تترك ندوباً في الروح، أسعدني أنني أختار عشاقاً كما يختار الرجل قحبة ليمارس معها الجنس، كان جوع جلدي مزمناً وشديداً وأردت إكرام هذا الجسد باختيار شبان جميلين، وكنت أقدم لهم المال أو أشتري لهم هدايا، وبدت الحياة سهلة ومُغوية على نحو بديع، ولم أعد أتذكر الشخصية التي كنتها، وحتى أنس نسيته، كما لو أنني مُصابة بفقدان ذاكرة، وحين أجبر نفسي على استحضار صور حبي له أنفجر بالضحك ساخرةً من تلك

الإنسانة التي أحبت بجنون حباً من طرف واحد وجعلت حبها عملاقاً. لكن بعد أشهر لم تعد تغويني تلك الممارسات الجنسية مع شبان يصغرنني بربع قرن، لم أتوقف عن ممارسة الجنس بسبب تأنيب الضمير أو الإحساس بالإثم أبداً، بل لأنني شعرتُ أنني أهبط إلى مستوى حيوان، وأن الجنس دون عاطفة واحترام ومودة ينتج عنه الاشمئزاز والاكتئاب، هل كنت أنتقم لأن أنس لم يرغبني، لأنه تزوج مطلقة لديها ولدان؟ ولأننا طوال تلك السنوات من الحميمية واللقاءات الطاهرة لم يفكّر بي كأنثى؟ لم تعد تهمني الأسئلة ولا الأجوبة فالحياة تسير كما تريد وليس كما نريد ونتوهم أننا نؤثر في مجرى الأمور، استسلمت للعيش البسيط، بدون قلق ولا أهداف، مجرد عيش مع عقل فارغ، وصرت أنام باكراً وأستيقظ مع إحساس بالخفة، كما لو أنني أرخي العنان لطبيعتي الأصلية، قبل أن يكبّلني المجتمع بقيوده، وبدت لي السعادة هي أن لا نتوقع شيئاً من الحياة وأن نكتفي بمجرد العيش، ومرت سنوات كأنها أيام، لا أتوق للحب ولا للجنس، ولا أندم على شيء، وبقيت صداقتي مع هند قوية، لكنني بدأت أحس بغربة، من أين لزوجها كل هذا الثراء الفاحش، صارت لديه قصور ولديه عدة سيارات فخمة، ولديه حراس شخصيون، وأمام بيته غرفة للحراسة تضمّ عدة

شبان يحملون بواريد، لم أستطع أن أمنع فضولي من سؤالها: ماذا يعمل زوجك؟ وردّت بغرابة: أتسألين يا فتون بعد هذه الصداقة المتينة والطويلة بيننا؟ أربكني جوابها لكنها قالت: تاجر، وماذا سيعمل غير التجارة. لكن كل أصدقائه كانوا ضباط أمن ومخابرات، وصرت أتحاشى أن أتحدث بحرية أمامها خاصةً حين يكون زوجها موجوداً، وكم كان يثير قرفي حين يبدأ بانتقاد مظاهر الفساد في البلد. كنت أسمع أنه يتاجر بالممنوعات، خاصةً بالمخدرات، وأن سياراته لا تُفتش على الحدود، وصرت أشعر أن حياتنا جميعاً معطوبة وأيامنا متصدعة ولا أحد يدرك ويشعر بهذا الصدع، وبدا لي الإنسان مسكيناً يتخبط في الوجود ومصنوعاً بثمن زهيد، وحين بلغت الخمسين رغبت أن أكون صاحبة رسالة في الحياة، كنت أقرب ما أكون إلى ذاتي الحقيقية، متصالحة مع نفسي ومع العالم وحرة من عبودية الغريزة، وبدت لي الحكمة التي تقدمها السنوات كنزاً لا يُقدَّر بثمن، وصرت ألتقي بفتيات وشبان يحكون لي مشاكلهم، وأجدني أستعيد من خلالهم كل تجاربي الشعورية والحياتية السابقة، لذا حين قرأت إعلان فابيولا أنها تريد تأسيس منتدى أو جمعية نساء في الخمسين، تفجّر بي حماس غريب كما لو أنني وجدت ضالتي، يجب أن نكون منارة للأجيال القادمة. كم

أتمنى أن يكون لي دور في تبديد الخوف من العنوسة، فليس هناك أخطر من أن تعيش في خوف، والخوف مرتبط دوماً بالإحساس بالدونية والإعاقة، هذا ما تشعر به العوانس بشكل عام، هذا ما كنت أحسه رغم نجاحي الباهر كطبيبة تخدير.

***

شكّلت لقاءاتنا، نحن النساء الخمسينيات، زخماً جديداً من حياة مُميزة وحيوية مفاجئة غير متوقعة، واتفقنا أن نلتقي عصر كل خميس، لسبب طريف أن كلمتَي خميس وخمسين شبه متطابقتين، كنوع من الدعابة، وربما لأن مساء الخميس يُشكّل نقطة نهاية الأسبوع، والمسؤوليات، كانت كل شهادة مميزة، وكل امرأة تبهر الأخريات بشهادتها، وقد قررت أن تكون شهادتي آخر شهادة، وقبلت صديقاتي لأنهن كن يحترمن مهنتي كصحافية حققت نجاحاً مهنياً مُلفتاً وكناشطة في الدفاع عن حقوق المرأة. لكن لم نستطع كبح تأثرنا العميق وانهمار دموعنا حين أدلت نجاة بشهادتها. كانت نجاة في الرابعة والخمسين من عمرها، ولمع اسمها مؤخراً في كتابة سيناريو المسلسلات، خاصةً المسلسل الذي كتبته من وحي تجربتها الحياتية وطرحت فيه قضية حساسة وشائكة هي التبني. إذ أن نجاة تبنت

طفلة وهي في الخمسين من عمرها، وعانت فيضاً من الإشكالات والمشاكل القانونية، لأن كل الجهات الرسمية رفضت الاعتراف بالطفلة كونها بلا أب، لأنه ممنوع على العازبين التبني. المُبهر في شهادة نجاة هو ذلك الدفق من المشاعر الهائلة شديدة العذوبة التي تكنّها لابنتها المُتبناة، لابنتها التي لم تحمل بها. لم أسمع طوال حياتي كلاماً أثر بي في العمق كشهادة نجاة.

للذكريات قابلية على منح الواقع صفة لا علاقة لها بالحقيقة، أقول هذا الكلام الذي هو خلاصة حكمة حياتي، أنا التي اعتقدت أنني عشت حياتي كما أرغب، أتمتع بحرية بلا حدود، خاصةً أنني درست الإخراج في باريس، وعشت هناك، لكنني لم أعمل كمخرجة بسبب الصعوبات الكثيرة للعمل هناك، خاصةً أنني من أصل عربي، لكنني وُفّقت بعمل في الصحافة الفنية، وأغرمت برجل مُتزوج، لم يكذب علي منذ بداية علاقتنا، صارحني أن لأولاده الثلاث الأولوية في حياته، وأنه لن يطلق زوجته رغم تعاسته في زواجه، وأنها تعاني من مرض نفسي هو العصاب ثنائي القطب، حيث تمر بفترات من فرط الهياج والبهجة تعقبها نكسات من فرط الكآبة. كان مسيحياً مورانياً، مُكبّلاً بقوانين الطائفة المورانية التي تمنع الطلاق، وخيّرني بين أن نعيش معاً علاقة حب أو أن أتركه وأتزوج. أظن أن صدقه ونبله وصراحته معي، كل تلك العوامل جعلتني أختار أن ينتصر الحب ونبقى معاً، دامت علاقتنا عشر سنوات، كنا نسكن معاً تقريباً إذ ساعده عمله كمراسل لإحدى أهم القنوات الفضائية على السفر لأسابيع والتغيب عن

أسرته، وكنت أرافقه في معظم أسفاره، ونعيش أجمل أيام حياتنا حباً لم يعرف الفتور أبداً، لكن طوال تلك الفترة كنت أتجاهل غريزتي وحاجتي لأكون أماً، وكنت أفكر لماذا لا أنجب طفلاً منه؟ لن أحمّله مسؤولية الطفل، وسيبقى الأمر سراً لأنني لا أريد أذية أسرته، لكنني حين صارحته ذات يوم برغبتي في أن أنجب طفلاً منه، لأنني أعشق الأطفال، جنّ جنونه، ضُعقت من ردة فعله وأحسست بالمهانة، وصرخ بي: لقد كنت صريحاً وواضحاً معك منذ البداية، أنا مُكبّل بثلاثة أولاد ولن أزيد من مشاكلي بأن يكون لي طفل ومن امرأة أخرى ليست زوجتي. يومها بكيت واتهمته بالأنانية ولأول مرة أكشف له عن عطش روحي لطفل، وقلت له إنني أعبد الأطفال. لم تمر تلك العاصفة بيننا بسلام بل تركت ندبة في الروح، أحسسنا – كلٌّ بطريقته – بأن صدعاً حصل في علاقتنا، صرنا نتعامل بطريقة تفتقد للشفافية والعفوية التي كانت بيننا، صار علينا كلما التقينا أن أغيّب ذلك الجانب في روحي التوّاق لطفل، وكان عليه أن يتجاهل إحساسي العميق التوّاق لطفل، واعتقدنا أن الخدش الذي أحدثه الحديث العنيف بيننا عن إنجاب طفل سوف يلتئم، لكنه صار أشبه بالدُمّل، أخذت فجوة تتسع بيني وبينه، وصرت أطيل التفكير بموضوع الطفل، كنتُ مستميتة لأكون أماً، لأزرع بذرة

حب في رحمي، لأتأمل بطني يكبر يوماً بعد يوم، كنت أشعر أن إنسانيتي ناقصة، وليست أنوثتي فقط، وصرت أشعر بالغيرة والنقمة أحياناً حين ألتقي بأم تحمل طفلها، أو بامرأة حامل، لكنني نجحت في تزوير مشاعري لأنني كنت أعبده، وكان يُحبني ويعترف لي أنني مكافأة من الله له، وأنني سعادته وملاذه والداعمة الوحيدة له كي يتحمل مسؤولية أولاده الثلاثة، وكي يتقبل المرض النفسي لزوجته ويحاول أن يُبعد أولاده عن التأثر بنوب اكتئابها وهياجها. كم من مرة عقدت النية أن أخبره أنني سأتركه وسأتزوج أي رجل كي أنجب طفلاً، حتى أنني كتبت رسائل وقررت إعطاءها له، لكنني ما أن ألتقيه ويضمّنا فراش واحد حتى أشعر أن الكلمات تضعضعت، وأن حالة من الخرس أصابتني، أدفن رأسي في صدره وأدرك استحالة ابتعادي عنه، كنت أتراجع فوراً ما أن يفتح ذراعيه ليضمّني ويتنشق رائحتي التي يعشقها ويقول: اشتقتلك. حاولت أن أقنع نفسي أن قدري أن أختار بين الرجل والطفل، إما أن أرضى أن أعيش حياتي مع رجل أحبه ويُحبني، أو أهجره وأتزوج أي رجل فقط ليزرع بذرة طفل في رحمي، واخترت الحب. بل كنت أحدث نفسي بأنني محظوظة بحب رجل يلائمني تماماً وبيننا تناغم وانسجام لا يوجدان إلا في الروايات، وفبركت منطقاً

غريباً بأن قدري أن أختار بين رجل وطفل، وأن الحياة لا تعطي كل شيء للإنسان وعليه أن يختار، وأنا اخترت الحب، بل وصل بي أمر خداع نفسي أنني اعتبرتُ نفسي محظوظة بالحب، فكم من نساء ورجال عبرن الحياة دون أن يعرفوا عظمة الحب، روعة أن تذوب في آخر، وأن يكون ملاذك ومرآة روحك، أن تعيش معه أعظم متعة في العالم: المُشاركة. كنت أشعر كأنني عقدت صفقة مع القدر بأنني اخترت الحب وضحّيت بالطفل، لكن كانت نوبة من الكآبة الشديدة تنتابني كل شهر حين ينزف رحمي ألماً على الطفل الذي يتوق إليه، ولم أعِ إلى أي حد كنت أمارس فن خداع الذات على نفسي إلاّ حين بلغت الثالثة والأربعين وبدأت دورتي الشهرية تشحّ وتتباعد، فجأةً انقلبت رأساً على عقب ولم أعد أشبه تلك المرأة التي كنتها في شيء، وأصبت بحالة نفسية من الهوس، الهوس بطفل، وأدركت والندم يعتصرني إلى أي حد زوّرت مشاعري وغيّبت توقي لطفل، وشعرت بالحقد على هذا الحبيب الذي حرمني نعمة الأمومة، وعجبت كيف اقتنعت بحججه ومنطقه، أي ضير كان سيلحق به لو أنجبت منه طفلاً، زلزال أصابني، وبدأت ألهث وراء كل ما يهديني طفلاً، وأنهيت علاقة حب كما لو أنني أشطب كلمة على ورقة، ولم يناقشني بقراري لأنني قرأت الفزع في عينيه، لم

يسألني شيئاً ولا توضيحاً ولم يطلب مني أن أعطي نفسي مهلة للتفكير، فقد رأى التعطش للأمومة في عيني، قرأ رغبتي الجامحة لأكون أماً بعد فوات الأوان، وبعد أن جفّ رحمي وتحوّلت إلى إنسانة ممسوسة بهوى أكال، كما لو أنني مع كل شهيق وزفير أتنهد وأقول أريد طفلاً. ولم أخفِ رغبتي عن أصدقائي الحميمين، بل إن بعضهم ابتكر عبارة تلخّص هوسي وهي: أنجدوا نجاة بطفل. ولم يعد لي من حديث أمام رفاقي وحتى مع الناس الذين ألتقيهم صدفةً سوى التحدث عن طفل أحبه سلفاً، أعبده سلفاً وأريده معي ما تبقى من عمري، لم يعد خياري الرجل، بل الطفل، وصرت أهتم بقراءة الأبراج، أنا التي سخرت منها طوال عمري، وصرت أطلب من أم غسان أن تقرأ لي الفنجان، أم غسان التي يقصدها الكثيرون لتقرأ لهم حياتهم في ثفل القهوة، وبشّرتني أم غسان أنني سأوفّق بتبنّي طفلة ساحرة الجمال، وآمنت بكلامها كما لو أنه مُنزل من السماء وبمباركة من الله، كما لو أن الله يتكلم من خلالها، وقاطعت أصدقاء نصحوني أنّ أتخلى عن فكرة التبني وأن التبنّي يخفي مشاكل عديدة، ولم أعد أقبل المساومة على فكرة الطفل، وصرت أشتري ألعاباً تخصّ طفلاً حديث الولادة، ولم تنفع مقاومة عقلي وقوة إرادتي في التخفيف من هذا الهوس الفظيع بتبنّي

طفل، كنت قد وصلت إلى حدود الوله التي لو تجاوزتها لأصبت بالجنون، وصرت لا أكفّ عن التكلم مع الرب ومع الأنبياء ومع كل قوى الكون، أرجوهم أن يهدوني إلى الطريق الصحيح لأتوّج نفسي أماً. ولم أعد أشعر بأية قيمة لي خارج مجال الأمومة. الأمومة هي الحياة، الأمومة غاية الوجود، الطفل جوهر وجود المرأة وليس الرجل، ولم أعرف مشاعرَ أقسى من مشاعر الندم، وبدا عمري مهدوراً بالحب وباختيار الرجل بدل الطفل، وآمنت بكلام أم غسان التي صرت أبدأ نهاري عندها بشرب القهوة لترى في قعر الفنجان كل مرة طفلة رائعة الجمال ستكون طفلتي، وخطرت ببالي خواطر مجنونة بأن أقوم بمغامرات جنسية مع شبان بهدف الحمل، لكن أحد معارفي وهو طبيب نسائية نبّهني أن الحمل في هذا العمر غير مضمون النتائج وأن احتمال ولادة طفل مشوّه كبيرة. كنت أشعر أنني أعيش في العراء، حيث لا أمان ولا حقيقة، حيث الوحده القاتلة والفزع، وتعلق وجودي كله وكياني بطفل ينتظرني في مكان ما، في رحم ما، وأنا سأهتدي إليه، واهتديت بعد عدة محاولات فاشلة. فذات يوم اتصلت بي صديقة وأخبرتني أن ثمة امرأة أنجبت توأماً ولا تريدهما، وأنني يمكن أن أتبنّى أحدهما أو كليهما. أجفلتني الفكرة وغاص قلبي متألماً من جريمة فصل التوأمين عن

بعضهما البعض، ولم أتوقع أن التبني معقد جداً في أوروبا، خاصةً في فرنسا، وبدأت أتّصل بأصدقاء لي في عمّان وبيروت ودمشق وحلب وغيرها، أصدقاء سايروني في هوسي، إلى أن أزفت الساعة التي حددها القدر لي ولابنتي التي رأيتها في إحدى قرى الساحل السوري وهي بعمر يوم. جرت الأمور بسرعة فائقة وسهولة كما لو أن الله اتّخذ على عاتقه مهمة تذليل كل الصعوبات التي ستواجهني، فقد اتصلت بي صديقة تسكن طرطوس وقالت لي: ثمة شابة ستنجب طفلة لا تريدها، والطبيب الذي سيولدها يعرف القصة كلها، فالشابة حملت من رجل جميل جداً لكنه متزوج ولديه أطفال، ويبدو أنه وعد الشابة بالزواج لكنه خذلها، وقد تقدم بها الحمل، لذا انزوت في دير للراهبات وحال ولادتها للطفلة ستتخلى عنها مقابل مبلغ من المال. بدت القصة كما لو أنها فُبركت خصيصاً لي، فوالدا الطفلة شابان ويتمتعان بصحة جيدة وجمال آسر خاصةً من طرف الأب. كانت الثورة السورية قد اندلعت منذ أسابيع ونصحني كل المقربين ألاّ أنقاد للجنون وأسافر إلى سوريا من أجل طفلة عمرها ساعات، لكنني كنت مستعدة للموت من أجل الحصول على طفلة حياتي التي عشقتها وعبدتها قبل أن ألتقيها، وانتابتني حالة مُضحكة كما لو أنها عرة عصبية، إذ صرت أمسّد بطني

باستمرار بحركات دائرية حنونة كما لو أنني حامل على وشك الولادة. حطّت بي الطائرة في بيروت، ولم أكن قد زرت سابقاً أية مدينة على الساحل السوري، ووفّقت بسائق شهم قبل أن يصحبني إلى طرطوس رغم المخاطر المحتملة للسفر ولعلعة الرصاص المُباغت والطائش وغير الطائش، أغريته بالمال، فقال: يبدو أن الأمر هام جداً بالنسبة لك. قلت له: أكثر مما تتصور، إنها مسألة حياة أو موت. كانت صديقتي بانتظاري وطمأنتني أنها تحدثت إلى الطبيب كي تتفق معه أنني سآخذ الطفلة، ولم أرضَ أن أستريح ولو لدقائق في بيتها، كنت أشعر أنني على موعد محدد مع طفلتي، واتصلت بدورها بسائق تكفّل باصطحابنا إلى القرية حيث مشفى صغير بائس، وحيث يقوم طبيب وتاجر في الوقت نفسه بدور الوسيط بين فتيات تورّطن ولا يردن الوليد وبين أهل لم يرزقوا بطفل ويريدون التبني. كان الطريق موحشاً ومُخيفاً رغم براعم الربيع التي تنثر شذاها في الهواء مُغيَبةً رائحة الرصاص، طلبنا من السائق الانتظار بعد أن دفعنا له مبلغاً جعله يبتسم ويفرد ملامحه المُتجهمة. كانت مشاعر مُلتبسة تنهشني فأشعر أنني في حلم وأن ما أعيشه ليس حقيقة، كنت أشعر أنني أحلَق وأحلَق ولا يحدني شيء، ولم أنتبه لجفاف حلقي إلا حين سألت الطبيب: أين

هي؟ التصق لساني بسقف حلقي وأنا أتكلم، قادني إلى غرفة صغيرة، وأنا أمشي كالمُترنحة من الهوى، حالة من الوله والهوى تلبستني قبل أن أراها، وهناك كانت بانتظاري، تسكن غرفة زجاجية صغيرة تسمّى الحاضنة، كانت عارية إلا من حفاض فضفاض على جسدها الصغير، كانت وردية اللون ولها شعر ناعم كستنائي، شعرتُ أن كل قواي تتخلى عني دفعةً واحدة، وتفجّر خزان من الحب في قلبي نحوها، اقتربت من الحاضنة كالمُسيّرة، كما لو أن مغناطيساً يجذبني، ولم أعد أسمع شيئاً سوى خفقان قلبي السريع المُتناغم مع إيقاع شهيقها وزفيرها، تأملت وجهها المستدير وتقاطيعها الجميلة، تأملت أطرافها الصغيرة وفمها الذي تفتحه وتغلقه كأنها تتثاءب، بجانب الحاضنة زجاجة حليب، فتحت الممرضة النافذة الصغيرة للحاضنة ومدّت لها زجاجة الحليب، فمصّت الحليب بشهية، تمنيت لو ألقمها ثديي، كنت أشعر بنمل في ثديي كأن حليب المعجزة يسري فيهما، كما لو أنني في سرنمة، ألصقت وجهي بالحاضنة وركعت وقلت لها: تقبري قلبي يا روح الاماما. في تلك اللحظة التي قلت فيها "روح الاماما" وُلدتُ أماً وتحوّلتُ إلى أم. فاضت دموعي، دموع تختلف عن كل دموعي السابقة، كانت دموعي أغلى ما أملك في تلك اللحظات، كنتُ مترعة من الوله والوجد، وانتبهت

لصديقتي تسحبني من تحليقي وتهمس لي أنني يجب أن أدفع للطبيب المبلغ الذي اتفقنا عليه، ٥٠٠٠ دولار. طمأنني الطبيب أن الوليدة بصحة جيدة، قلت له: اسمها حنان، في تلك اللحظة تفتّق اسمها من قلبي، ستكون هي الحنان والحب والأمل في حياتي، وكم تعجّبت حين قال لي: يُمكنك أن تعيديها إلى هنا إذا غيّرت رأيك، وشعر أنه يتوجب عليه أن يشرح لي كلامه فقال إنه يمهل الأهل أسبوعاً ليتأكدوا أنهم يرغبون بالطفل الذي أخذوه من هذا المشفى. لم أنتبه كيف صرخت متقززةً من كلامه: ماذا؟ هل الأطفال بضاعة كي نعيدها و.... قاطعني وهو يربت على كتفي: أفهم دهشتك والله، لكن من حق أي أهل يرغبون بالتبني أن يُخضعوا الطفل الذي ينوون تبنّيه إلى فحوص طبية متنوعة، كي يتأكدوا من سلامته من الأمراض، لذا إذا غيّرت رأيك بالنسبة لتبنّي هذه الطفلة يمكنك أن تعيديها لنا في مهلة أقصاها أسبوع. وجدتني أسأله عن أمها وأبيها، كرّر لي القصة ذاتها التي حكتها لي صديقتي بأن والدها جميل جداً ومتزوج ولديه أولاد، وأمها صبية في العشرين أحبت الرجل المتزوج وحملت منه وكان قد وعدها بالزواج لكنه لم يستطع أن يفي بوعده وكان الحمل متقدماً والإجهاض خطراً على حياة الأم... قاطعته: هل حملت الصغيرة بين يديها،

نفى بشكل قاطع برأسه وقال: في هكذا حالات أفضل ألا ترى الأم وليدها، وهي كانت بحالة نفسية سيئة وربما من حسن حظ الصغيرة أن أمها ولدتها بعملية قيصرية لأن الولادة تعثرت. قلت له إنني سمّيتها حنان، فقال وهو يضحك: بهذه السرعة أطلقت عليها اسماً، يبدو أنك كنت قد اخترته مُسبقاً. قلت له: على الإطلاق، ما أن نظرت إليها حتى أحسست أنني أعيش في قلب أعجوبة، في قلب نعمة، وشعرتُ أن أحداً ما همس في أذني باسمها، لا يمكن أن يكون اسمها إلا حنان. طلبت من الطبيب أن يكتب لي تقريراً طبياً بأنني أم حنان وأنني أنجبتها في المشفى، كان مستعداً أن يلبي كل ما أطلب بعد أن قبض ٥٠٠٠ دولار، وادّعى أنه سيعطي نصفها للأم، لكنه نبّهني أنني قد أواجه صعوبات لأنني غير متزوجة ولأن القوانين في سوريا والعالم العربي تمنع على العازبين التبني، وقال لي إن التبني أساساً ممنوع في القانون وإنه يعمل في السرّ، حيث يعطي الطفل الصغير إلى أبوين، ويكتب تقريراً طبياً بأن الأم التي تبنّت الطفل هي من أنجبته. قلت له: لقد دبّرت كل شيء فأنا سآخذ الطفلة إلى باريس حيث أعيش. أعطاني تقريراً طبياً كما طلبت، وتوجهنا إلى الحاضنة، وعاد طوفان الحب يتدفق من قلبي تجاه الصغيرة. فيما بعد قالت لي صديقتي إنها رأت وجهي يشعّ بالنور

وأنا أرنو إلى الوليدة، وأن غشاوةً من الدمع كانت تلتمع في عيني. سألتنا الممرضة: ألم تحضروا لها ثياباً؟ تعجبنا – صديقتي وأنا – من سؤالها وقلنا: لا، لم يخطر ببالنا، في الواقع لم أتوقع أبداً أن الصغيرة بلا ثياب وأنه يتوجب علي أن أحضر لها ثياباً. سألت الممرضة: ألم تترك لها أمها ثياباً؟ قالت: لا أبداً، لم ترغب أن تراها حتى! أسرعت صديقتي تطلب من السائق الذي أحضرنا إلى المشفى أن يقلها إلى السوق لشراء ثياب للصغيرة، كنت طوال الوقت أرنو إلى حنان، كنت أشعر بوجود كائن إلى جانبي، روح حانية، قوة كونية حققت حلمي أخيراً، ياه أي قدر هذا قذف بي من باريس إلى قرية على الساحل السوري لألتقي بصغيرة عمرها يوم لا تريدها أمها ولا أبوها، لقيطة ساحرة الجمال والعذوبة تُرمى على رصيف الحياة، لا بل يقدمها لي القدر هدية، رأيت حياتي كلها كيف ستكون بعد حنان، يا لقوة العاطفة التي تربطنا بالطفل، بدا الرجل الذي أحببته لسنوات أقرب إلى شبح، بالكاد أجبرتُ نفسي على الابتسام تكريماً لعلاقة الحب التي جمعتنا سنوات طويلة، لكنه انتهى تماماً الآن، ولم يبقَ منه إلا ذكريات وصور، الآن بدأ زمن حنان، بدأ زمني متوازياً ومُتلاحماً مع زمن حنان، ابنتي، ماما، ماما، يا للعذوبة التي تسيل في روحي وأنا ألفظ كلمة ماما وأرنو إليها. عادت

صديقتي لاهثةً وغاضبة قالت وهي تمدّ لي طقماً أبيض اللون من الصوف الرقيق: تصوري، لا توجد ملابس لطفل حديث الولادة، لم أجد سوى هذا الطقم. لكن إحدى الممرضات جلبت لنا ثياباً داخليه لحنان، وحين حملتها أحسست كم أنا هشة، وكيف حوّلني طوفان الحب المُختزن في قلبي إلى امرأة من نور أو من خزف رقيق، يكفي صوت مرتفع كي يهشّمه، كنت حباً سائلاً وأنا أتأمل معجزة حياتي وكيف تتنفّس تلك الطفلة بانتظام، وكيف تفتح عينيها قليلاً ثم تغمضهما بعد أن تجعّد جبهتها كما لو أن النور أزعجها. خرجنا من المشفى، مع حنان، كان الغسق بديعاً ونور الشمس يحيط الأشجار بهالة من السحر والقداسة، أعطاني الطبيب علبة الحليب وقال لي: الأفضل أن يفحصها طبيب اختصاصي في الأطفال، وكما قلت لك الموعد الأقصى لإعادتها إن رغبت بعد أسبوع.

جعلتني طفلة عمرها يوم أدرك أن لا حلم حقيقي يموت، وأن جوهر كياني يتوق للأمومة، وأن حب الرجل – حتى في أوج توهجه – لا يخلو من مرارة، أما حب طفل فهو تسبيح دائم للفرح والحب. حنان أحرقت كل شوائب روحي وجعلتني أرمي بأكوام الأدوية المضادة للاكتئاب والرافعة للمزاج والتي أدمنت عليها لسنوات، حنان أحرقت كبريائي الزائف بأنني امرأة حرة

ناجحة وأعيش الحب ولا يكبلني شيء، جعلتني أدرك أن أكثر ما يُكبّلني هو روحي ذاتها، روحي التي تتوق للأمومة والتي حرمتها منها طويلاً بحجج أجبرتُ نفسي على الاقتناع بها بأن الأمومة تعيق نجاحي وأسفاري وتحقيق ذاتي، وأن علي أن أختار بين عيش الحب أو سجن الأسرة والأمومة. يا لخداع المنطق والعقل! عقلي سمم حياتي، الآن أعيش مع حنان كما لو أنني في الجنة، نفرح بزهرة، وقطعة حلوى، وثوب جديد، وكلمات جديدة تنطقها حنان بنغمة تسحرني. حنان بلغت الرابعة من عمرها، لكن للأسف لم أنجح في جعل أوراق تبنيها نظامية، حنان بلا هوية الآن، لم تعترف بها السلطات اللبنانية، وضعوني في نفق ضيّق وسلطوا علي قوانين قاسية، لم يصدّقوا أنني أنجبتها، ربما كان خطئي أنني طلبت من الطبيب أن يعطيني تقريراً أنني ولدتها، وطلبت السفارة الفرنسية أن أتعرض لكشف طبي يؤكد أنني ولدتها، وحين رفضت الكشف الطبي وصموني للتو بالاحتيال، ولم أستطع العودة إلى باريس، بقيت في بيروت أصارع من أجل حنان، من أجل أن تكون ابنتي الشرعية، ابنتي التي أعبدها، مُنقذتي من براثن الاكتئاب والملل والهزيمة التي نشعر بها ونحن نتقدم في العمر، أتمنى لو نستطيع نحن النساء في الخمسين أن نحقق إنجازاً، وننسف القوانين

الظالمة، ونعطي الحق لامرأة عازبة أن تتبنّى طفلاً، لم لا؟ العنوسة تزداد بشكل مُخيف لأسباب كثيرة لن أخوض فيها الآن، وأظن أنكن تدركن وتعرفن معظم هذه الأسباب، لكن حلم الأمومة هو جوهر كيان المرأة، وأظن أنه أهم حق من حقوقها، فلمَ لا تحقق هذا الحلم ويُسمح لأم عازبة أن تتبنّى طفلاً؟! هذا ما أريده منكن صديقاتي في عمر الذروة، ذروة الفهم والحكمة والتسامح. أتمنى أن تسعين معي من أجل أن تصبح حنان ابنتي الشرعية وألا أضطر للكذب والتلاعب على القوانين وادّعاء أنني أنجبتها من رجل ومن زواج يباركه المجتمع. كم من أطفال أيتام ولقطاء يعيشون ظروفاً قاسية محرومين من الحنان والعيش الكريم؟ كم من نساء عازبات مرّت أعمارهن وأرحامهن تنزف دماً كل شهر لأنها تبكي الطفل الذي لم يُزرع في أرحامهن؟ لماذا لا نزيل العوائق والحواجز بين الأطفال والنساء؟ لماذا لا نساعد العانس كي تتبنّى طفلاً؟ ما أقوله يبدو خيالياً أو غير مقبول أخلاقياً واجتماعياً، لكن حنان جعلتني أدرك بكل جموح روحي أن عمر الخمسين هو عمر المجازفة الشجاعة، حيث نطوّع كل خبراتنا الحياتية من أجل تفجير ثورة في المفاهيم والأخلاق المُتكلّسة.

فقاعات ريم

لم ترغب ريم أن تقدّم نفسها إلا بإصرارها على كلمة فقاعات، تقول إنها تحسّ بكيانها وبحياتها أشبه بفقاعات، وطلبت منا في جلساتنا النسائية في منتدى الخمسين أن نطلق عليها تحبباً اسم فقاعة. بدت ريم غريبة، ليس بشكلها الشبحي الذي جعلنا نتوه في تقدير عمرها، إذ تراوحت تقديراتنا – كما يوحي مظهرها لكل منا – بين الخامسة والثلاثين والخامسة والخمسين! قالت وهي تقدم نفسها تسبقها روحها الغنية المرحة: أشبه الشمس، كل يوم أحترق، أحرق الزمن، ويُغرقني الزمن كل يوم ويُغيّبني، أحرق الزمن كالشمس أو يحرقني الزمن، هذا ما أحسّه، أن أكون أماً لمعاق يعني أن أقترب من الألوهة، يعني أن أمتصّ إعاقة حبيب قلبي كل يوم وأهديه صحتي، آخذ إعاقته وأعطيه صحتي، فأصير أنا المُعاقة وهو الصحيح. أن أكون أماً لمعاق وعلى مدى سنوات أحسها عمري كله – لأنني نسيت تماماً كيف كنت قبل أن أكون أماً لطفلٍ مُعاق – يعني أن يصبح لي وجه لا يُمكن سبر غوره، لأنه يستحيل أن يصل أحد إلى قاع الحزن الذي تشعره أم المعاق، حزن أكبر من أن أتحمّله وحدي. زوجي أصبح

سكّيراً من ألمه على ابنه، كان يستنجد كل مساء بخدر الكحول يلطّف آلامه، لم يستطع أبداً أن يتباهى بابنه المتخلّف عقلياً، لكن أنا – اعذروني إذ يختنق صوتي، ورجاءً صدّقوني – أنا أتباهى به، قد تقولون عني مجنونة، لكنني أتباهى به، جعل إنسانيتي تكتمل، جعلني أصل إلى لا متناهي الحب والعطاء وبذل الذات، جعلني أتطهّر من آثام الروح، من الحسد والجشع والشراهة وعبادة الشهوات، صرتُ خفيفة، نقية وشفافة كفقاعة، وحده أيقظ الجانب الروحي العميق واللامتناهي في نفسي، ولولاه لقتلني الروتين، لأن الروتين يقتل الجانب الروحي فينا، أن أكون أماً لمعاق يعني أن أفهم آلية عمل الكون وأن أعرف كم هي عظيمة الحياة. لن أكذب عليكن، فالسنوات الأولى من ولادة ابني المُعاق والمتخلّف عقلياً كانت جحيماً، كنت لا أعرف كيف أتملّص من الوقت والزمن، كنت أريد أن أقتل يومي قبل أن يبدأ، وألاّ أنهض من فراشي لأن الحزن يشلّني، لأن أعماقي موحشة وكئيبة كآبة تزن أطناناً، وكنت أنزلق من فراشي لأذهب إليه، هو القابع في إعاقته يلهو بألعابه القليلة التي لا تتبدّل أبداً لأن عقله لا ينمو، ينتظرني لأطعمه وأغسل وجهه الجميل الذي أعبده، وأسمع زقزقة صوته والكلمات القليلة التي يرددها كببغاء وبآلية، ويظل يرددها حتى أزجره

وأصرخ في وجهه، فيصمت ويزوغ نظره كأنه يبحث عن سبب لقسوة الكبار، لقسوة قلب أم، لكنه ودون أن يشعر كان يجعلني أخجل من نفسي فأرقّ وأشفّ حتى أتحوّل إلى فقاعة. كنا نبدأ يومنا بهرس مجموعة من أدويته المضادة للصرع والاختلاجات ومزجها مع طعامه. في البداية كان يبصق الطعام رديء الطعم، لكنني درّبته بطرق عديدة أن يبتلعه لأن لا مفرّ من الدواء، ورغم أدويته كان يُصاب بنوبات مُروّعة من الاختلاجات والصرع، كنت أجثو بجانبه أتأمّل جسده النحيل يرتطم بالأرض بقوة وروحي ترفرف كأنها تلفظ أنفاسها بجانبه، ثم تعلمت كيف أجعل من روحي وسادة لرأسه الذي يدقّ الأرض بعنف ودثاراً من حرير لجسده المُرتعش، وعلّمتني إعاقته وحدها كيف أضفي نكهةً ومعنىً لكل يوم. الإعاقة وحدها تعلّمنا أن الحياة نعمة، وتعلّمنا كيف نضيف جمالاً إلى جمال كل يوم، ونعمة فوق نعمة، تماهيث مع إعاقته وصرنا كائناً واحداً، كما لو أنه لا يزال في أحشائي، كما لو أنه ملتصق بي كتوأمين يستحيل فصلهما، وكنت أطحن الزمن وأطحن كبريائي كل يوم حتى أصبحث قديسة، أحرقت آخر بذرة من غروري وشعور الخزي كوني لا أستطيع أن أتباهى به كما تفعل كل الأمهات أو معظمهن. كان يكبر وتكبر معه إعاقته ولم يكن قابلاً للتعلّم إلاّ كما يستوعب

طفل في الرابعة من عمره، كان عالمه عبارة عن كتاب فيه صور وعدة دمى ولوح يخربش عليه دوائر لا متناهية مشوّهة، كنت أشعر أن خربشاته هي صورة روحي المختلطة المشاعر والمُشوشة، وكم ندمت حين اعتقدت لسنوات أنه مُصيبة وكارثة ألمّت بحياتي، كم تألّمت من نظرات الشفقة والشماتة لأن لدي ابن مُعاق، ثم بدأت أتبدّل، حين يرنو إلي أشعر بانسكاب نعمة إلهية في قلبي، نعمة إلهية تُطهّرني من عبادة الذات وعبادة الأصنام والمتع الفانية، كان يرنو إلي بطريقة تجعل حتى الليل يسيل حباً، الظلمة تتبدد وتصير شفافة وغلالة من نور بنفسجي شفاف تُسربلني، كنت أفهم جوهر الحياة ونظري يتقاطع مع نظره الضعيف الذي بالكاد يُميّز الأشكال والحركة، كان يقرّب الدمى من عينيه حتى تصطدم بأنفه ليراها، لكنه كان سعيداً وينادني ماما، يقولها بنغمة موسيقية تُدخلني في نشوة، كنت الماما، أي مُطلق الأمان والحنان والحب والوجود، كنت وجوده، لأنه يموت من دوني، لا يُمكنني وصف هذا الشعور بأن شخصاً مرتبط بكياني ويموت إن لم أعتنِ به. وكم أشعر بالخزي حين كان الشيطان يوسوس لي أن أجرّب عليه بعض التجارب كأن أتأخر في إطعامه وأراقب ماذا يفعل، لم يكن يفعل شيئاً، كان فقط يتململ ويتلفت حوله كأنه يستكشف قسوة لن

يدركها لحسن حظه. ذات يوم كنت ضحية الشيطان متألمةً من قدري ولأنني ابثليت بابنٍ مُعاق، ولم أطعمه وجبة الغداء، صار يصرخ: ماما... ماما، وأنا لا أردّ، ثم أجفلت إذ توقف عن الصراخ ووجدته منطوياً على نفسه نائماً، يومها انهمرت دموعي ومسحت قدميه بها، واكتشفت حقارة الإنسان وغروره. في ذلك اليوم أحرقت آخر شائبة من غروري وصرت قديسة في محراب الحب، لا يوجد ما هو أعظم من بذل الذات حباً، ثم بدأت أتعرف على نعمة الإعاقة، فهو لا يعرف الخوف ولا الغرور ولا الطمع ولا الكره ولا الحسد، هو روح نقية، منكفئة على ذاتها، حتى حزني صار وديعاً ولطيفاً ويشبه الفرح، لقد انتزع هذا الصغير من كياني كل الشرور وصرت أماً لكل الحزانى والمنكوبين، واكتشفت داخلي طاقات لا نهائية على المحبة والعطاء، ما كنت لأكتشفها لولاه. كان كمن يهديني إعاقته لأنمو في الإنسانية، كل شيء في هذه الحياة يمكننا أن نحوّله إلى نعمة، حتى الإعاقة، وقد دشّنت منذ سنة "مدرسة الأمل للمعاقين"، وهي بيت ورثته عن أبي كان بإمكاني استثماره بطرق عديدة، لكنني أردت أن أدشّنه مدرسةً للمعاقين، لأن هؤلاء أنقياء القلوب الذين وحدهم سوف يغادرون الحياة كما أتوها، دون أن يرتكبوا معاصي وشرّاً ودون أن يتسبّبوا بالألم لأحد، وكلّي أمل أن

تدعمن مشروعي، الاهتمام بالمعاقين لأنهم الجزء الجوهري من حياتنا، لأنهم ينبّهوننا إلى عمق الإنسانية فينا، تلك الإنسانية التي نشوّهها بأنانيتنا وغرورنا وأطماعنا، وهم وحدهم أنقياء القلوب ينيرون درب المحبة والحرية في خضمّ حياتنا القاسية. عينا ابني لا تبصران الأشياء بوضوح، بالكاد يرى الحركة والألوان ولن يتعلّم القراءة والكتابة، كل شيء يسقط عليه نظري وكل كتاب أقرأه أو مشهد جميل أتأمله أحس بنعمة النظر، وأعتذر لحبيبي المُعاق أنه لا يرى، لكنه يضحك فجأةً كأنه يقول لي إنه يُفوّضني كي أبصر نيابةً عنه وأحياناً أشعر أنه يرى بقلبه. لطالما اعتقدتُ أنني أعين إعاقته، وأنني أملأ الفضاءات الفارغة في حياته، لكنني اكتشفت يوماً بعد يوم، وأنا أحمل صليب الحب، أنه أهداني إعاقته كي أعي كل لحظة نعمة الحواس والفكر والعيش وكي أكون كالمنارة تضيء من حولها دون أن تحترق. أدركت أن كل شيء في هذه الحياة يُمكن أن نحوّله إلى نعمة، اكتشفت طاقات لا محدودة في أعماقي على العطاء والحب والتفاني في خدمة المعاقين، هؤلاء الذين يهدوننا إعاقاتهم لنتألق في الإنسانية. كم أحسّ بالخزي حين أرى القسوة التي يُعامَل بها المعاقون في بلادنا! كيف يخجلون منهم ويعتبرونهم مصيبة وانكساراً أصاب العائلة! هؤلاء

يمكن أن يكونوا جوهر وجودنا وإنسانيتنا، كما أن الثمرة المريضة تُظهر صحة الثمرات الناضجة غير المعطوبة، هكذا الحياة، أجزاء تتكامل وتساند بعضها ولا تتنافر كما نعتقد. لولا ابني المعاق لما أدركت قوة الحب في قلبي ولا قدرتي على العطاء وعلى أن أكون منارة لمن حولي. أتمنى ونحن في عمر الحكمة وتخمّر الحب في قلوبنا أن نعطي اهتمامنا للمعاقين.

***

في كل جلسة خميس كنا نشعر أن كلاً منا – نحن النساء الخمسينيات – تملأ فراغاً في حياة الأخريات، تُغني جانباً من حياتنا كان مُغيّباً، وكنا نشعر أن كلاً منا معنية بقصص الأخريات وقضاياهن، كنا نتكامل بطريقة مذهلة كما لو أننا لوحة "بازل" تشكّل كل منا قطعة فيها، وكل خميس كنا نزداد إذ تنضم إلينا مجموعة جديدة من النساء الخمسينيات، ورغم تباين تجاربنا الحياتية فإن لعمر الخمسين سحراً خاصاً، كما لو أن هذا الرقم يوحّدنا بطريقة غامضة وخفية، عمر الذروة، العمر الذي يتوقف فيه الرحم عن البكاء دماً، والعمر الذي تصبح فيه الرغبة مجرد ابتسامة ذكرى. كنا نشعر، كل منا بطريقتها، أن امرأةً غادرتنا وحلّت مكانها امرأة أخرى، لقد صُنعنا نساءً، وجاء الوقت الذي نُعيد فيه

صياغة شخصياتنا وكياننا. اكتشفنا أن كلاً منا أدركت، بعد أن وصلت إلى الخمسين أو تجاوزت هذا العمر بسنوات، أن شيئاً جوهرياً في شخصها كان مفقوداً وتريد أن تستعيده، إنه عمر ترميم كل تصدّعات الروح وجروحها. وحين بلغ عددنا الأربعين امرأة قررت فابيولا تشكيل ما أسمته "مُنتدى الخمسين"، وهو منتدى اجتماعي ثقافي يضم نساءً تجاوزن الخمسين، وتقرر فيه برامج ثقافية واجتماعية وندوات فكرية ومعارض فنية. حوّلت فابيولا أحد محلات الأزياء التي تمتلكها إلى نادٍ، وساهمت كل منا قدر استطاعتها في شراء الأثاث، وطلبث إلى كل عضوة في المنتدى أن تحضر خمسة كتب من كتب مكتبتها هدية لمكتبة المُنتدى. تساءلت إحداهن عن رقم خمسة وسألتني لماذا اخترتُ رقم خمسة؟ وجدتني أتذكّر القصة التي قرأتها وأنا طفلة بأن العادات في الهند أن يقوم العريس بغرس خمس شجرات قبل الزواج، وهذا التقليد لا يزال موجوداً في الهند، وطرحنا أفكاراً ومواعيد شهرية لنشاط المُنتدى، وقررنا استضافة كاتبات وكتاباً مرموقين وناشطين في حقوق الإنسان وحقوق المرأة. كنا نشعر بالدفء والقيمة، كما لو أننا ندخل مدرسة الحياة المختلفة والمميزة، ندخلها مع مخزون كثيف من التجارب والمفاهيم، ونعيد تقييم ما عشناه، ونتوق لردم

الفراغ الذي كان في حياتنا. كنا نناقش العديد من الكتب القيّمة، ونشعر بسعادة كبيرة كوننا ندشّن خطوةً جريئة ومهمة بالنسبة لمجمعنا الذي يعتبر النساء الخمسينيات كائنات لاجنسية، وأنهن يأخذن قيمتهن من الأبناء والأحفاد ومن الاعتناء بالأهل العجائز.

أربعون امرأة تجاوزن الخمسين، مُطلقات، مُتزوجات، عوانس، وحدنا الرقم خمسون، وكان المُنتدى هو هامش الحرية والانطلاق واكتشاف الذات. كم تفاجأنا ونحن نحكي عن حياتنا، كم تفاجأنا بالكمّ الكبير من طاقاتنا المهدورة أو المُغيّبة، كما لو أن الروتين يقتل الجانب الإبداعي والروحي فينا! كم اكتشفنا تصحّراً في حياتنا ونريد الآن أن نزرع فيه أشجار الأمل كما يزرع العريس في الهند الشجرات الخمس قبل الزفاف! منتدى الخمسين هو العالم الجديد الذي خلقناه لأنفسنا لنعيش فيه، لنكون أكثر قرباً من ذاتنا، لنخلق حياةً، لنبادر بقتل الوقت قبل أن يقتلنا الوقت، وكنت بحكم عملي كصحفية مشهورة أكتب في عدة مجلات عربية أكتب عن جمعية الخمسين التي قُوبلت في البداية بشيء من سخرية واستخفاف، لكن حين توسّعت نشاطاتها وصارت تستضيف كتّاباً مرموقين وأساتذه جامعيين ونشطاء في حقوق المرأة والطفل، انكمش الاستخاف وانحسر. وحين أكمل منتدى الخمسين سنته الأولى

أقمنا احتفالاً كبيراً وغرسنا الرقم خمسين في قالب الحلوى، وبكت العديد من المنتسبات إليه تأثراً. كانت فابيولا هي مديرة المنتدى وكنت نائبتها ومستشارتها في اقتراح أسماء الضيوف، وحين اجتمعنا لنقرر خطة العام التالي، وأية قضايا نريد طرحها والكتب التي نودّ قراءتها ومناقشتها، والضيوف الذين نحبّ أن نستضيفهم، وجدتني أنخطف إلى فكرة أغوتني بشدة: لماذا لا نستضيف الناقد إياه حاصد الجوائز، الناقد الأكثر شهرةً في عالمنا العربي والمعروف بتشجيعه واهتمامه بالأدب النسائي الجريء، حتى أنني كنت شاهدة ذات يوم على مشهدٍ مُخزٍ، حين أخذ كاتب مشهور يتوسّل إليه أن يكتب عنه، ولم يردّ الناقد سوى بابتسامة سخرية مُبطّنة باحتقار، فازداد الكاتب إلحاحاً ثم لم يستطع أن يُقاوم تفجّر غيظه حين قال للناقد: أصلاً أنت لا تهتم إلا بالأدب الإباحي النسوي!

في الواقع كان هذا الكاتب مُنحطّاً أخلاقياً وكانت موهبته الوحيدة هي وصف النساء اللاتي يُضاجعهن والبوح بأسمائهن أمام أصدقائه، حتى أنه كان لا يستحي أن يقول: أنا ذاهب لنياكة فلانة، ويذكر اسمها. وذات مرة لم يتوقّع أن ينهال عليه أحد الحاضرين بالضرب لأن المرأة التي ذكرها تكون ابنة خال الرجل الذي جاء بصحبة أحد معارف الكاتب، واضطر الأصدقاء

أن يُقنعوا الرجل الذي انقضّ على الكاتب السفيه بالضرب أن ثمة تشابه أسماء، فما كان من الرجل إلا وقد ازداد إصراراً على ضربه لأنه يُسفّه النساء ويُحقّرهن بتلك الطريقة.

لقد أعجبني جداً موقف الناقد الشهير الذي رفض توسّل الكاتب ليكتب عنه، كنتُ في ذلك الوقت أعدّ كتابي الأول عن نظرة المجتمع إلى المُطلّقة، وأقارن كيف يختلف مفهوم الأخلاق بين المرأة والرجل في مجتمعنا، وكيف أن هناك أخلاقاً للرجال وأخلاقاً للنساء، وكان لي الحظّ أن أحظى بإعجاب الناقد في المؤتمر الأدبي الضخم الذي التقيته فيه، وكيف أثنى على المحاضرة القيّمة التي شاركتُ بها في تحليل أكثر من عشرين رواية نسوية في بداية القرن التاسع عشر تكون بطلاتها جميعاً مجنونات، وكيف كانت الكاتبة تختبئ خلف شخصية بطلتها المجنونة، وأخذت مثالاً الكتاب القيم لفيرجينيا وولف، **غرفة تخص المرء وحده**، الذي كان دراسة مُعمقة عن روايات كاتبات في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. كان مديح الناقد المثقف يعني لي الكثير، ولا أنكر أنه غزا روحي ومشاعري. كان وسيماً ولبقاً ومغروراً، وقد أوجدت الكثير من الأعذار لغروره لأن جاذبية قوية كانت تتشكل وتولد بيننا، كان رجلاً صدّقته وأحببته، ثم

اكتشفت بطانته أو حقيقته، رجل أو ناقد أو باحث، كل تلك الأمور مُجتمعةً، يحتقر امرأةً في الخمسين ويسخر منها، رجل في الخمسين يتباهى كطاووس برجولته التي يحق لها أن تغزو الصبايا والمُراهقات، أما امرأة في الخمسين فلا يلتفت إليها لأن شفتيها لم تعودا نضرتين ولأن رحمها جفّ ولأن ثدييها تهدّلا. كنت سارحة في نشوة فكرة استضافته في منتدى الخمسين لنناقش بعضاً من كتبه الرائعة القيّمة والغنية، لنناقشه ونشكره على دعمه للإبداع النسائي والجرأة التي تقلقل الأخلاق المُتكلّسة والمفاهيم المُحنّطة، كنا نقدّم لضيوفنا درعاً تذكارياً مكتوباً عليه شعرنا: خمسون هلل يا خريف، مقلّدين قصيدة الشاعر أبي سلمى حين كتب لابنته قصيدة تبدأ بـ: عشرون هلل يا ربيع. كنتُ قد اعتدت على طعم المرارة الذي تتركه تجاربي مع الرجال، مرارة خفّ إحساسي بها كثيراً بعد أن صرت إحدى نساء مُنتدى الخمسين، صديقاتي الرائعات الخمسينيات أشعرنني أنني لستُ وحيدة في مرارتي وخيباتي، وأن حزني حين يواجه حزنهن ويتفاعل معه فإنه يولد من هذا التفاعل فرح وشعور بالانتصار، لا يوجد انتصار أعظم من انتصار الإنسان لكرامته. صرت قادرة على أن أستعيد كم أهانني الناقد الشهير الذي أحببته ذات يوم، وكم سخر واستهزأ بنساء في الخمسين، لدرجة أنه لم

يجد أي مانع ليسخر من حبيبة عمره التي كان على علاقة حب معها متحديَين مؤسسة الزواج والطاغية والمجتمع بأكمله، تلك الحبيبة التي يسخر منها لأنها أصبحت مُنتهية الصلاحية ككل امرأة في الخمسين، الحبيبة التي تماثله في العمر. حين طرحت اسمه لاستضافته هلّلت نساء المُنتدى، وحدها فابيولا رمقتني بنظرة متعجبة ومؤنّبة في الوقت نفسه، كما لو أنها لا تصدّق أنني أريد استضافة الرجل الذي أهانني وطعنني في جوهر أنوثتي وإنسانيتي، الرجل الذي هزئ مني حين سخر من حبيبته. كنت أريد أن أسأله سؤالاً واحداً فقط: هل هو مُخلص لكتاباته؟ لن أضيف حرفاً على هذا السؤال. ستكون بيني وبينه كل اللحظات الجميلة التي عشناها والتي أفسدها بغروره وعفن أفكاره وزيفها، كنت أريد بطريقة ما أن أسحب منه كل الدروع التكريمية والجوائز التي حصل عليها، وكنت أريد أن أحدّق في عينيه حين ستقدّم له فابيولا درع التكريم من منتدى الخمسين. كيف ستكون نظرته وابتسامته وهو يقف وسط أكثر من أربعين امرأة أنشأن منتدى الخمسين؟ هل سيسخر منهن في أعماقه؟ هل سيمرّ بباله صورتنا معاً نمشي في الشارع شديد الانحدار في رأس بيروت وأنا أتأبّط ذراعه كي لا أتعثر وأسقط، وهو يصف لي بسخرية فم حبيبته كيف يتخيله بعد أن

بلغت الخمسين؟ ويشرح لي نظريته في تقدير عمر المرأة حسب رطوبتها! أي مُبدع هذا وأي ناقد يُشجّع تحرّر المرأة ويقدّر إبداعها وفي أعماقه يحتقرها ويسخر منها ويراها كالبضاعة الكاسدة.

علمت أنه وافق على الدعوة، وسيكون بيننا قريباً مُدجّجاً بكتبه وألقه الزائف وغروره. سيكون بيننا قريباً أشهر ناقد ومُشجّع لأدب المرأة، سيكون أمامي كل الوقت لأصوغ سؤالي، مجرد سؤال كافٍ أن يعرّي روحه المتعفّنة، لكني مُصرّة على سؤالي لأنني أؤمن أننا يجب أن نكشف الجرح إذا أردناه أن يشفى تماماً.

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

هي امرأة في الخمسين، صحافية ومثقّفة وموظّفة في الجريدة الرسمية. طُلّقت من زوجها السادي، البخيل، الذي هجرها مع ابنهما ولم يسأل عنه بعد ذلك.

تتعرّف إلى ناقد بارز، حاصد للجوائز، مدافع عن حرية المرأة، لتكتشف أنه لا يرى من المرأة سوى جسدها...

تلتقي فابيولا، التي عاشت قصة مشابهة، لتوحّد بينهما المأساة، وتقويهما. تؤسس فابيولا جمعية للنساء اللواتي تجاوزن الخمسين، لتنضمّ إليها بعض النساء اللواتي هزمتهنّ الحياة...

إنهنّ نساء يكتشفن أنّ عمر الخمسين هو عمر الانعطاف والانعتاق والذروة و... التحرّر من الأوهام!

قيل في الكتاب

«جعلت الكاتبة من الخطاب الروائي عملية بوحٍ لعددٍ من النساء اختلفت مشاكلهن وتجاربهن وأهدافهنّ.»

(السفير)

نبذة عن المؤلف

هيفاء بيطار روائية وقاصّة سورية.

كتب أخرى للمؤلف

«وجوه من سوريا» - «فضاء كالقفص» - «كومبارس» - «امرأة من هذا العصر» - «أيقونة بلا وجه» - «SMS»

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm